رواية
نورا سليمان
وهج
عصير الكتب

وهج

عصير الكتب

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email:P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: يناير 2023م

رقم الإيداع: 4385/2023م

الترقيم الدولي: 978-977-992-228-7

المؤلفة: نورا سليمان

تدقيق لغوي: نهال جمال

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب»
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

رواية

نورا سليمان

وهج

عصير الكتب

شوك على وهج الشمس

إهداء

إلى أكثر رجل أحببته في حياتي،
إلى من شكّلني ومن أهداني اليقين والقوة،
إلى حبيبٍ جعلني لا أستسلم في لحظات اليأس،
من علّمني كيف أغلب المصاعب وأهزم عثرات الحياة،
إلى مــن زرع بي إيمانــي بالقوميــة العربيــة
وإرثي وفخري واعتزازي بهويتي المصرية
التي لا أرتضي بغيرها بديلًا،
إلى سندي وعزتي وقوتي،
إليك يا... أبي.

الوهج الأول

يُعَد الحب خطيئة إن خرج عن مرسوم مَلكيٍّ قيَّد القلب بالمولد.

«قبل التاريخ»

الموقع: أسوان.

«نهرها لا يُلقي بالشر، فهو مصدر الحياة والجمال».

كعادة ليلية تمشي بتؤدة خارج القصر المرصود، تتبعها خادمتان مخلِصتان اختارتهما بنفسها لمهمة حماية الجمال والفتنة، خارج البوابة الضخمة التي أُقيم عرشها على مسلتين من اللوتس. تمهلت لتتأمل الوحش المهيب القابع على ضفة النهر العظيم، دبت الرهبة كالعادة في قلبَي الخادمتين فتدحدرتا إلى الخلف قليلًا.

التفتت لهما تأمرهما بالثبات، ثم منحت إيماءة كتحية للقائد الواقف مع جنده المنتشرين حول القصر. لم يحاول أحدهم منعها، وكيف سيفعلونها لكبيرة الوصيفات ومربية الأميرة وعين الملك؟!

تقدمت «آسري نارتي» من جديد، تدب بخطواتها بصندل من الجلد المطعَّم بالزجاج الملوَّن البراق، ينسدل على جسدها ثوب من الكتان، يعلوه ثوب آخر من القماش الخفيف المفتوح، أما رأسها فزُيِّن بالشعر المستعار الجميل المطعَّم بحليٍّ من الذهب، وزينت جبهتها بزهرة اللوتس المقدسة.

ابتسمت ونظراتها الواثقة الثقيلة تتابع عينين واسعتين تغطيهما جفون من حراشف الجلد السميك، فك مرعب يتحرك نصفه إلى الأعلى ويغطس نصفه الآخر في أعماق النهر، معدة ثقيلة تخرخر بوجبة دسمة صارعت الحياة والموت في جو احتفالي وإيقاع سيمفوني، ولكن وحش العالم السفلي لم يعرف الشبع بعد، لقد وُعِدَ بلحم جندي مغوار لم تعرف البلاد من في حُسن خُلقه قط.

ضرب الوحش بذيله غضبًا وجسده يسقط في ظلمة الليل، وتبقت عيناه المترصدتان تَعْلق على طرفهما دمعة حزن إفكًا تُغري الفريسة للاقتراب، يتحداها. فكرت «آسري نارتي» وهي تحني رأسها إلى الأسفل ترد إليه تحديه الواثق.

تخط عيناها ما يقرؤه الوحش دون أن تتحدث: «هل تظن أن دمعك الكاذب سيخدعني؟!».

حرك الوحش المرعب فكه إلى الأعلى من بين الظلام يرد دون كلام: «سَيُوهِم من تُخوِّل له نفسه أنه قادر على سرقة كنزي».

ونخر: «أنا حارس الدرة المكنونة».

إيماءة أخرى باحترام لا سخرية فيها، ولا تقليل من حارس النهر.

حوار الأعين والخواطر بينهما لا ينقطع.

همست آسري: «أنت تحمي هنا ما لك، وأنا سأدفع عمري حماية لما أوكلتُ به».

غطس التمساح العجوز الداهية بهدوء، وتبعه مئات من التماسيح المنتشرة بداخل القناتين المتعاكستين، محاصِرةً معبد «بر-إي-لق».

عاد وارتفع قليلًا بتحدٍّ، عيناه تطلقان الشرر مؤكِّدًا الحديث: «أنا «سوبيك» الوحش المرعب، حارس النهر السفلي، مهمتي لن أتقاعس عنها، سأحمي حفيدة العصور الذهبية وسأبطش بالمحب المتطفل».

خواطرها يجب ألا تعبِّر عنها، ولكن سوبيك التمساح أصبح يحفظ وعيدها، لذا ردت بنظرة مصرَّة: «لن أسمح لكَ بفجيعة ربيبتي، لن أتسامح مع تحويلها إلى ملكة مفجوعة أخرى».

رمت وعيدها واستدارت بكل هدوء راحلة، فنخر سوبيك بوعده هو الآخر من جديد، عيناه ترصدان من موقعه المستتر بين الأشجار والورود الحارسين الواقفين بتأهب على مدخل المعبد، في كامل عتادهما مع رمح نحاسي قد ساوى طولهما، تنورة ذهبية علِّقت على خصريهما مزينة بحزام مثلث ممتد إلى الأسفل، يُستَر صدراهما بالدروع، ويغطي رأسيهما قناع حورس مناسب لعظمة المكان.

ينتظر الحارسان، ينتظر بشوق لن يعادله شوق البشر، هنا الحد والنهاية وهو حارس «بر- إي-لق» من كل متطفل.

سوبيك حامي الدرر المكنونة ووحش الكنانة.

***

بداخل المعبد المهيب الذي احتل ربع مساحة الجزيرة، وبُني من الصخور الجرانيتية الوردية، جدران منتصبة تميل إلى الداخل، قوية وسميكة من الخارج، وأعمدة وكرانيش استُمدت فكرتها من أصل نباتي، يغلب عليها طبع زهرة اللوتس.

عاشت آسري نارتي زمنًا ليس بقليل داخل جدران المعبد، لكنها وإلى اليوم عندما تتأمل البناء الشاهق المهيب لا تملك القدرة على التعبير عن دهشتها للجمال والسكون الذي يتركه أثر المكان عند مشاهدتها «لؤلؤة كيميت» أبو المعابد وملجأ السيدة العظيمة.

النصوص الهيروغليفية المقدَّسة تحيط بها في كل مكان، الأحجار والمسلات وقفت شامخة، بكل بقعة أشجار وورود ونخيل محمَّل بالثمار، الهواء الذي يشفي كل عليل، والماء سر الحياة يحيط بها من كل جانب.

هنا الجنة، فكيف لا تسعد العجوز بإيكالها مهمة حراسة ربتها داخل «بر-إي-لق» الحبيبة؟!

ألقت آسري نارتي تحية المساء على الحراس الملازمين داخل الجدران، وبإشارة حازمة أمرتهم بالمغادرة إلى الخارج والانتشار ككل ليلة حول المعبد الحصين، واستمرت في طريقها نحو غرفة الربة، الأميرة الأسيرة «آسينيت» ابنة الملك المبجل «أوسر كان».

***

لماذا الحب مزدوج المعاني بمدينتها؟! كيف يُعد الحب في أرض كميت تزويرًا ورذيلة؟ فجنايتها أنها أحبت بقلب صادق لم يعرف الفروق داخل أرض الشمس والعشق، سُجِنت داخل جدران شهدت أول قصة حب عرفتها البشرية، ومشى على خطاها كل المحبين داخل القطر وخارجه.

ها هنا داخل جوانب هذا المعبد زُرِعت بذرة الإخلاص والوفاء التي حملتها نسمات الهواء ونشرت عبقها داخل كل فؤاد.

ألا يُعد نفيها من سخرية الأقدار وتعذيبًا ليس فوقه تعذيب؟! أسيرة بخطيئة الحب ببيت سيدة العشق!

فكرت «آسينيت» بموضعها فوق مصطبة النافذة المطلة على بِكر الطبيعة وسحر نيلها الخالد، تشتم رائحة عبق التاريخ الأزلي، تسمع صوت الأجداد والجدات، تُرى هل عانوا لوعة الحب؟ هل وقع عليهم ظلم السجن ومرارة النفي؟!

سؤال عبثي لن تملك إجابة عنه يومًا رغم كل الوقائع التي تحولت عبر الأزمان إلى أساطير لم تُنسَ.

أسطورة جدتها التي بجَّلت الحب، طاردته وانتصرت على الموت لتستعيد عشقها المفقود، ولكن أين هي من جدتها التي امتلأ عقلها وقلبها منذ نعومة أظافرها ببطولتها التي قدست ورفعت من شأن النساء وبجلت المرأة المصرية الوفية من مئات السنين؟

تذكري ولا تنسي يا آسينيت، الوفاء والحب خطيئتان ألقتا بكِ في الأسر يا حفيدة العصور الذهبية.

طرق منتظم ومهذب، رفرفت الستائر بنعومة متفاعلة مع باب سجنها وقد فتحه حاجب يشع وجهه بالجِدية.

صوت وصيفتها وسجَّانتها الوفية لأبيها يُدَوِّي بحزم يشع احترامًا لسيدتها وأسيرتها: «هل ستبقين مستيقظة الليلة أيضًا؟!».

أزاحت شعرها الأسود الغجري خلف أذنيها ساخرة: «وماذا تقترحين؟ وهل للسجين همٌّ غير حصد الأيام والليالي الطويلة؟».

صمتت تبعد عينَي وهج الشمس عن وجه العجوز المتربصة بحنان يناقد تواطؤها بالجُرم.

تمتمت بحسرة: «حتى هذا الأمل حُرِمتُ منه، فالسجين يَعد أيامه ويلاحق شعاع نور ممتدًّا من آخر نفق مظلم يُمَنيه بالخلاص، أما أنا فلا خلاص لي من أسري».

ردت العجوز بنبرة مؤازرة: «سيدتي، لا أملك من أمركِ شيئًا، بيدكِ تحطيم أسوار أسركِ والنجاة».

الشوق خط آلامه داخل حدقتيها المتوسعتين بأسى، وقالت: «وكيف النجاة لقلب سلك سبيله وفتح بابه لمالك واحد ثم أوصده بقفل لن ينكسر؟ المحب يحول بيني وبين قلبي، لا نجاة لمن لا يملك أمر فؤاده».

هزت آسري نارتي كتفيها بعدم يقين، لا تعرف فن الرد على قلب مفطور، تتعاطف مع ربَّتها ولكنها لا تملك ما تقول، مقتنعة أن أميرة القصر وابنة الملك لا يمكنها أن تخرج عن الوعد المرصود، رغم استنكار العقل كيف تُنفَى فتاة الحب في معبد شُيِّد لساحرة الحب العظيمة أُم المعجزات؟!

ابتلعت أفكارها وانحنت تجمع متعلقات آسينيت عن رف مرآتها المزخرفة بآثار الأجداد، ورصَّت أدوات الزينة في صندوق مطعَّم بالعاج نُقش عليه معنى اسم صاحبته «هدية إيزيس»، ثم تقدمت تُشعل بعض الشموع لتحدَّ من ظلمة الجناح، رغم التكوين المعماري الذي ساد معابدهم بجدران مائلة من الداخل وشموخ عظمتها من الخارج، تتخلل أحجارها نوافذ صغيرة يَنفُذ منها شعاع الشمس وضوء القمر فتضيف رهبة ووقارًا إلى المكان.

تدحدرت إلى الوراء باحترام مع انحناء رأسها بتوتر، وقالت: «سأترك الغرفة مفتوحة منذ الليلة، علَّكِ ترغبين في التجول في المكان، أرجوكِ لا توقعيني مع حراسكِ بمشكلة».

ابتسمت آسينيت ساخرة: «وكيف سأفعل؟! إن هربتُ من الحراس فكيف سأهرب من وحوش النهر الأشرار؟».

اعتدلت آسري وأكدت بثقة وإيمان: «النهر حياة، شريان يمتد في دمائنا والأجداد، حامينا لا يضم بين جنباته الخبث».

لم ترُد. وجهت عينيها إلى صفحة الماء الممتدة بلا نهاية، وغرقت في سحر النيل المهيب رغم لوعة القلب الناقم.

انتظرت أن تُزاح الغمة المتطفلة على خلوتها الليلة، فتترك فسحة زمنية لأمانها حتى عودة آسري صباحًا. وحين اطمأنت واهتدت بنجمة توهجت في كبد السماء معلِنة عن منتصف الليل، تحركت ترفل بثوبها الكتان الذي حُلِّيت كتفاه بالهُدب الخفيفة من قماش شَكَّلَ ثنيات جسد أنثوي دقيق التكوين فارع الطول، انسدل مع استقامتها تاركًا ذراعها اليسرى مكشوفة، وزُيِّن عنقها ومقدمة صدرها بعقد من الفضة والذهب تداخل معهما اللونان الأزرق والأحمر.

حدقت إلى المرآة تتأمل زينة عينيها المكحَّلة الواسعة، قرطيها المقوسين على شكل هلال، وأحمر الشفاه الذي لوَّن فمها، ربما هي في حالة حزن، ولكن جزءًا من تكوينها بالوراثة لا يستغني عن إبراز جمالها النادر.

أخبرها والدها مرة أنها ورثت جمال الساحرة العظيمة المرسومة على الجدران، والموثَّقة في أوراق البردي، وهذا وحده يثبت عراقة أسرتها وأنها لم تكن أسطورة.

بحذر شديد نفضت أفكارها كما أزاحت المرآة الثقيلة إنشات قليلة، لهثت بالرهبة ككل مرة ودقَّ قلبها وجلًا عندما تراءى لها سرها الأعظم، واكتشافها المذهل الذي لم يعرف أحد عنه قبلًا.

طوت ساقيها على الأرض، وأخفضت رأسها إلى الأسفل بوقار وتضرع، يداها مفتوحتان للأعلى نحو تعاويذ النواح الملكي للزوجة المتفجعة.

أخفضت نبرة صوتها وصراخ التوسل: «أيتها الساحرة الأم، العاشقة المخلصة، رمز الوفاء، السيدة الفريدة المهيبة، ساعديني فأنا إحدى بناتكِ المفطورات».

انحنى رأسها أكثر والخصلات المهذبة أحاطت الوجه بحلاوة، تترنم موقنة بكنز سرها الثمين: «إيزيس المبجلة القوية، الساحرة المقدسة التي بفضلها رُفِعت المرأة ملكة على كيميت العظيمة، ساعديني واحمي أوناس بن إيريس البطل، فخطيئتنا الغرام، نوركِ لوَّن قلوب الناس بالحب، من تبجيل عشقكِ عرف الإنسان الوفاء في قصص العشاق، والموت من أجل المحبوب يا هازمة الموت».

أغلقت جفنيها وانخفضت كتفاها في نواح يائس، تذرف دموعًا تكفي ليفيض النهر.

انخفضت كفاها المتضرعتان وهبَّت دون استكانة، فجدران جناح المعبد الأنيق المهيب تطبق عليها وتحتاج إلى التجول، علَّ مساحة محبسها تتسع فتشعر ببعض من وهم الحرية.

لم ينتهِ البكاء، تذرف دمعها دون تباطؤ واللسان يرتل ترانيم التضرع، ربما ما تفعله ضرب من الجنون، ولكن اليائس من ظلم الحياة يتمسك بوهم الأمل.

تحركت يداها تلقائيًّا تأخذ شمعة موضوعة في حامل ذهبي مخصص، وسارت إلى الخارج بزيِّها المهيب الذي انسدل فوقه ثوب مفتوح أقل رقة من ثوبها الكتان، يصدِر حفيفًا من خلفها يؤنِّسها بوحشة المكان، هبطت تتجول في أركان المعبد الذي كانت تزوره في رحلات ثانوية فرِحة، فتحول إلى مكان للحزن ومنفى كما نَفَت فيه جدتها نفسها بإرادتها.

أبدع البناؤون في تشييد الجدران العالية المهيبة من الحجر، لتتحدى عوامل الزمن، وكوارث الطبيعة، وكيد المُغيرين على الأرض المقدسة.

تلمست الدفء والونس من أرواحهم، حتى وصلت إلى «بيت الماميسي»، وقفت تتأمل تمثال حورس كصقر يرتدي تاجًا مزدوجًا لبرهة، قبل أن تنتقل إلى داخل الغرفة الملأى بالنقوش والرسوم رغم فهمها ولكنها كالطلاسم.

أشاحت بعينيها نحو مكان صور إيزيس تحمل حورس حديث الولادة بين ذراعيها، وبدأت تترنم من جديد، صوتها يحمل جرحًا لحب لا يُخطئه السامع، ولا تغفله روح حارسة الحب.

تقول: «سنج إن إيست، حنوت امنت، إني أحببت وجه القمر ونور الوجود، بطل الأبطال وهازم الأشرار، كما أحببتِ».

انحنت تضع الشمعة على إحدى المصاطب قبل أن تعتدل لتتلمس النقوش الغامضة.

قالت: «أعطِني سركِ لنهزم سوبيك».

ترنيمة تتبعها أخرى ويدها تتحرك بتعثر لتضغط رمزًا وراء الآخر وهي تتفوه بخطر تجهل كنهه.

ثقُل الحمل فوق صدرها فصرخت مزلزِلة أركان الأحجار المستحيلة: «يا والدة النهار امنحيني نوركِ، حرِّريني فأنا أكره العبودية، أبغض الاستسلام، أنا ملكة ولستُ سَبيَّة، أثبتي سحركِ يا آلهة السحر، انتفضي لملكات إرثكِ».

هبط باب مخفي داخل «بيت المامیسي» وحاصرها هناك، وأضاءت كل الرموز العجيبة في تتابع كحلقة ضوئية تناغمت مع صوت ناي مخيف رغم عذوبته.

هبط قلبها بين قدميها وتراجعت إلى أحد الأركان بغير هدى وقد زارها جُبن لم تعرفه قبلًا، اهتزت الحوائط وانفجر نور قوي تبعته ظلمة، وأُعيد رصُّ الأحجار الثقيلة كأحجية ثم ظهر من بينها ممران طويلان لاحا في الأفق!

تعثرت ووقعت على الأرض تزحف على يديها، عيناها جاحظتان تحملقان برهبة ورعب، وبأحد الممرات لاح صراخ أنثى مرتعبة!

أما عند الجدار الآخر فتحرك ظل مهيب ومخيف بسرعة نحوها، يطير خلف الظل ما يشبه عباءة ملكية، خمنت أنه يأخذ هيئة البشر لولا القرنان اللذان لوَّحا بشرٍّ نحوها.

وصوت عميق يخرخر بغضب متوعد: «من يزعج ساحرة الشمس لن يرى نورها».

شهقت آسينيت شهقة طويلة كغرغرة الموت! لقد انقلب سحر اللعبة اليائسة على الغافل.

***

«الحاضر»

الموقع: أهرامات الجيزة.

موقع تُنقِّب فيه الدولة بسرية تامة حدَّ أنهم اتخذوا مبادرة جديدة واستثنوا أي أطراف أجنبية، وحتى الآن كل أفراد البعثة بدماء مصرية خالصة، وقد جمعوا فيها كل المتفوقين من خريجي كلية الآثار من كل محافظات الدولة، والذين تركوا أثرًا على مر السنين.

إلى الحفرة العميقة...

تبعتْ بهية هبوط زملائها على سلم خشبي طويل ذي ثقَّالات متمكنة لحفرة عميقة يطلقون عليها بوابة المعرفة، رغم أنهم يجهلون طبيعة المعرفة، وصلوا إلى ساحة كبيرة تحت الأرض ممتدة حتى أطراف أبي الهول الخلفية، وليس الأهرامات كما اعتادوا اكتشاف الكثير من أسرار الهرم الأكبر.

لمست قدماها الأرض أخيرًا واعتدلت قامتها متوسطة الطول، وقد خبأتها ببلوزة بيضاء فضفاضة تعلو بنطالًا من الجينز الواسع، أما وجهها الخمري فكان خاليًا من ألوان الزينة، تكفي عيناها السوداوان الواسعتان المكحَّلتان طبيعيًّا، وشعرها الأسود غجري الطبع خبأته تحت حجاب أبيض من القطن، ليساعدها على تحمل حرارة الأجواء.

تحت الأنوار تبينت ذلك الاتساع الشاهق للمكان.

فكرت بشغفها الإيماني: «كل حجر بأرضها يحوي أثرًا، وكل ذرة تراب تروي حكاية!».

تساءلت: «تُرى ما هو اللغز الجديد هنا؟ وما الاكتشاف الذي سيزلزل العالم ويغيِّر التاريخ ويمحو كل المعتقدات عن حكايات الأجداد ويدمر كل الأساطير فيصنع أخرى من هذا الواقع؟!».

انتفضت عندما مر كالسهم الحارق خيال لطائر العُقاب بأجنحة محترقة ينهاها: «لا تستعجلي فتح الأبواب».

أغلقت جفنيها وارتعشت شفتاها وأسندت كفها على قلبها، لقد اعتادت هذا الخيال منذ نعومة أظافرها حتى خُيِّل إليها شعورها بنبضه داخل فؤادها مجسِّدًا مخاوفها، العُقاب يعيش داخلها، ولكن أين هي من معناه؟!

قالت إحداهن: «هل أنتِ بخير؟».

هزت رأسها مبتسمة وقالت: «ألا يحق لي الرهبة إجلالًا أمام هذه العظمة؟!».

سمعت أخرى تمزح: «لقد وقفنا بما فيه الكفاية إجلالًا في المواقع الأخرى بأسوان. تقدمي فليس لدينا الوقت الكافي للتأمل، يفترَض أن نقدم لهم ما يثبت فائدتنا».

فرصة العمر التي لن تتركها تغادر دون تحقيق حلمها كما غادرها الكثير من الأحلام الموءودة.

فكرت بصمت وهي تتقدم بين تماثيل المحاربين التي ارتكزت على الجانبين، والجدران التي كُتب عليها بلغة قديمة مختلطة بين «مدونتر ورا إنت كيميت».

تستطيع بالطبع قراءة اللغة المكتوبة، إلا أن هناك أمرًا محيِّرًا بالطريقة المسجلة، كما أن تفسيرها لما كُتِب وكل ما استطاعت فهمه حتى الآن: أنها حكاية عن معركة مصيرية جرت على أرض النهر، وعند بوابة النهاية في أسوان بأرض فيلة، ولكن ما فسرتْه متداخل بالأساطير.

الأثر جديد كليًّا، ولم يسمعوا قط عبر التاريخ عن هذه المعركة بكل تفاصيلها، مَن أطرافها؟ ومَن قادتها؟ وفي أي حقبة كانت؟

دارت عيناها حول أفراد البحث والتنقيب المنهمِكين في الدراسة والتحليل والتسجيل، توقفت خطواتها عند تمثالين ضخمين مهيبين، من الواضح أن قدماء المصريين لم يدخروا جهدًا في نحتهما. تُرى أكانا ملكَي تلك الحقبة؟!

التمثالان لرجل وامرأة، حملت المرأة بيدها كتاب عجائب واليد الأخرى كانت تحمل ما يشبه منارة نصر، والرجل الواقف بجانبها يحتضنها بحماية، وجمال نحته عجيب، بتداخل جسده السفلي لتمساح واقف على قدمين، أما الرأس لإنسان.

جاورها أحد زملائها متسائلًا بفضول: «تحمل كتابًا ومن تعبير المنحوتة كأنه يروي قصة!».

ضيَّقت بهية عينيها وفتحت الضوء المزروع في نصف خوذتها، وبهمة دارت حول التمثال تتفحصه بتمعن شديد.

ركعت بتروٍّ تشير نحو قاعدة التمثال المطمورة تحت الأحجار وتقول: «إن كشفنا عن القاعدة نستطيع تبين إن كان راويًا أم لا».

جاء تصريح من خلفهما بهدوء واثق: «هذا الدليل، لا أظنه راويًا، بل مصححًا وناصحًا».

التفت الجميع إلى الرئيس المسؤول عن مجموعة الشباب الذين نالوا فرصة العمر عبر مبادرة الدولة.

«مُحِب»، هذا اسمه، تعرفه بهية وقد كان المشرف والمسؤول عنهم، ورافِع تقاريرهم للرؤساء الأكبر، شاب في منتصف الثلاثينيات على أقصى تقدير، لا يكبرها هي وبعض الأفراد هنا بالكثير من العمر، ولكن بالمنصب والمسيرة المهنية يسبقهم بالكثير.

لم تنطق بكلمة، فقط تناولت بعض أدوات التنقيب لتبدأ رحلتها بتركيز في إزاحة الأتربة المتراكمة عبر السنين. الاكتشاف سيكون لها، هذا النصر يجب أن يوضَع عليه اسمها، علَّها تنال حريتها أخيرًا من قيود كبَّلتها بها عائلتها.

سمعت أحد زملائها يقول: «وكيف علمتَ؟ هل هناك دليل؟ فما زالت رحلتنا غامضة!».

أجاب محب بهدوء مبتعدًا عن مكانها قليلًا: «مجرد نظريات من طريقة عرض البردية التي يحملها الملك الغامض».

سمعت من جديد زميلها ينفي: «هذه ليست بردية، بل كتاب يحوي صفحات حجرية».

أكَّد محب بغموض: «لا تجزم بما تجهل حتى لا تقتل الحقيقة أحلامك، بالنهاية لا يقتلنا ما نجهله».

اختفى صوت محب وأُتيحت فرصة كبيرة للعمل الجاد.

انضمت إليها إحدى زميلاتها تساعدها في العمل المهني الدقيق، بينما هناك عمال مخصصون لرفع الأتربة إلى الأعلى.

مسحت بهية جبهتها بطرف حجابها ووجهت نظرها إلى صديقتها وعبَّرت عما يجري بداخلها من تساؤلات محيرة.

قالت: «حتى الآن لا أفهم ما الذي يربط هذا الموقع بموقع أسوان الذي عملنا فيه قبل ثلاثة أشهر! ولماذا نقلونا إلى هنا رغم أن أعمال التنقيب متواصلة هناك حتى اللحظة؟».

أجابت مروة بنبرة منخفضة: «نحن هنا لنعرف السبب».

لاح عدم الرضا على وجه بهية وردت بسخط: «نعرف ماذا بالضبط؟ وكأنهم سيخبروننا أي شيء! وكأن الأمر سر عسكري وليس اكتشافًا سيهز العالم كما هو مفترَض، بحق الله إنهم حتى لم يعلنوا عن اكتشافنا لمقبرة جديدة!».

انضم الرئيس إليهم مثيرًا بداخلها الحنق. من أين يظهر لها هذا الرجل؟!

يا سلام! كان ينقصها سخريته المبطنة إذ قال بتسلٍّ: «أولًا ليست مقبرة، لم نكتشف أي مومياوات حتى اللحظة، فلا تجعليني أتشكك في وجودكِ بيننا».

احمر وجهها بالغضب من الإهانة، ولكنها كالعادة لم ترُد ولن تفعل أبدًا، لا تتذكر أنها ردت يومًا إساءة، فمنذ نعومة أظافرها تحيط بها قوانين المسموح وغير المسموح، العيب والأدب.

أُغلق عليها ألف باب وكُبِّلت بقيود الوهم، حتى وجودها هنا كان ضربة حظ سحرية، موافَقة مشروطة من عائلتها، ولا تظن أن الأمر سيستمر طويلًا.

شعرت بالظل الطويل للرئيس محب ينحني نحوها، فتحركت بسرعة لتحافظ على المسافة بينهما.

ابتسم وجهه بهدوء وقال: «أنتم هنا لتخبرونا ما سر الربط بين الموقعين».

قوله جازم لا يحمل شكًّا.

فكرت قبل أن ترد بهدوء ذكي، ثم قالت: «أنتَ لم تنفِ أن هناك سرًّا بين الموقعين، لا أظنك تجهل علاقتهما ببعضهما بعضًا».

رفعت كتفيها بلا اهتمام وتابعت: «أنتم تعرفون الكثير، ولهذا كان الإصرار على عدم إدخال أي أجنبي، بجانب التعتيم الإعلامي على الأمر، مع الأخذ بعين الاعتبار إصرارك على أن من ينزل كلا الموقعين هم الأشخاص نفسهم».

أجاب بنبرة ماكرة منخفضة: «نُحِيك مؤامرة، ولهذا اخترتكم حتى يسهل عليَّ دفنكم جميعًا مع السر».

ضحكت مروة قبل أن تكتم ضحكتها وتخفِض وجهها، بينما عينا محب لم تفارقا عينَي بهية اللتين توسعتا بالهلع.

تبًّا! هذه الفتاة لا تعرف العبث وتجهل المزاح والسخرية.

هناك العديد ممن التحق ببعثة التنقيب، ولكن لسبب يجهله يحب النظر إلى وجهها، واللحظات التي يدور فيها النقاش بينهما حتى ردود أفعالها السخيفة غير المصطنعة تعجبه!

برَّر لنفسه أنه ربما تعجبه فتاة بهذا الذكاء والمهارة في المهنة، بجانب إتقانها المتميز للغة القديمة وكأنها وُلدت معها، ولكنها بعيدة تمامًا، بل أول مرة يلمح وجهها كان قبل ثلاثة أشهر في موقع أسوان.

سأل بشيء من الحزم رغم المرح والتسلي المرتسمين على وجهه: «تريدين معرفة السر؟ ولكن يجب عليَّ تحذيرك، إن أخبرتكِ فعليَّ دفنك هنا عقب الانتهاء».

غضبت ولم تظهِر ذلك، وقالت باتزان: «ألا يُعد هذا تهديدًا يوحي بنية سيئة؟».

تدخلت مروة بالقول الحسن حتى تمتص بعضًا من جدية صديقتها: «بهية، عليكِ التحلي بالمرونة والتفريق بين القول الجاد والمزاح».

أخذت بهية نفسًا طويلًا بحكمة، ثم قالت: «الكثير من الحقائق المؤذية تقال في وقت المزاح».

توترت مروة قليلًا خوفًا من غضب الرئيس، فهو الوحيد القادر على إخراج أي فرد منهم وإقصائه بعيدًا عن موقع التنقيب، وهي تعلم كم أن هذا الأمر مهم لبهية، بل مصير حتمي لحياتها القادمة.

فقالت: «لا أعتقد أن السيد محب يقصد معنى سيئًا، بل يحاول أن يُضفي جوًّا من الألفة على العمل».

لم يجِبها أحدهما، وإن كانت هناك نظرة فارغة في عينَي بهية، وأخرى متسلية واثقة غامضة ترقد في عينَي محب، الذي نطق أخيرًا مبددًا حدة الصمت وهو يشير إلى الأعلى نحو وجه تمثال المرأة.

وقال: «حسنًا، تأملي وأنتِ ستعلمين ما الرابط بينهما، ولماذا أنا متأكد أن الموقعين يخلِّدان حدثًا واحدًا».

اعتدل محب كما وقفت بهية تنظر إلى وجه التمثال.

ازدردت ريقها الجاف قبل أن تهتف بافتتان: «التمثال نفسه للمرأة الغامضة التي اختبأت تحت جناح «إيزيس»».

احتدت النظرة في عينَي محب تلمع بعاصفة مخيفة، واختفت سريعًا وبدَّل بها نظرة مرحة غامضة.

قال: «أتعلمين ما الغريب والمخيف؟ كلا التمثالين يشبهانكِ يا أستاذة بهية بشكل مريب! إن كان لكِ جدة لن تتطابق معكِ بهذا الشكل. ألا تتفقين معي؟».

فغرت فمها على متسعه كما صديقتها، وأخذت تتأمل ما غاب عنها ومن المستحيل أن يطرق عقلها وهي مشتَّتة الذهن بما يفوق الذهول، شبهها! هي تشبه هذا التمثال؟ جدتها هي!

أمن المعقول أن تجد الدليل الدامغ أنها مصرية وعائلتها تنحدر من ساكني ضفاف النيل ولا تنتمي إلى تلك النظرية المريعة التي يقول البعض فيها (إن هناك قبائل وشعوبًا أخرى سكنت مصر حديثًا ومحت

الجين المصري)؟!

قفز قلبها بين أضلعها، وحين استدارت نحو محب لتجادله كان قد اختفى تمامًا.

اقرأ من الأرض؛ حكايات الأرض لا تكذب!

***

(مذكرتي العزيزة، يومًا ما سنجد رجلًا نادرًا، يجعل الحياة سهلة بالمزاح واللعب والحب، رجلًا أستحقُّ الانتظار ليحملني إلى الأفق السابع محقِّقًا كل أحلامي المؤجَّلة، مرتحلًا معي إلى كل الرحلات الممنوعة. مهلًا يا بائسة! هل صدقتِ كذبتي؟ هذا الكائن الخرافي لن نعثر عليه إلا في الأحلام، أو في صفحات الكتب، أنا عانس وسأظل بكل فخر عانسًا إلى الأبد).

داخل الخيمة المعدَّة لفريق الحفر التي تشاركتْها مع عدد من الفتيات، تقلبت بهية على الجمر وقد فقدت رغبتها في تسجيل يومها كما اعتادت على صفحات صاحبتها الوحيدة، مذكِّرتها العزيزة التي تُبقيها قريبة منها دائمًا، لقد سخر منها البعض لتنقُّلها بها في كل مكان، ولكن ماذا تفعل؟ فهي كثيرة الأفكار وسريعة النسيان، فاعتمدت على تسجيل كل ما يجول في خاطرها سريعًا لسهولة العودة إليه، في الواقع لقد تخطت مذكرتها فكرة تسجيل حياتها فقط، بل حتى ملاحظاتها عن العمل وإنجازاتها الشخصية.

سخرت معتدلة: «أيُّ إنجازات بحق الله؟ حتى شغفكِ الذي فطركِ والدكِ عليه عاد وسحبه منكِ بكل بساطة، بحجة العادات الرديئة».

رنين الهاتف أخرجها من أفكارها الأحادية، ومع تعالي همهمات اعتراض زميلاتها المرهَقات من عمل اليوم، قادتها قدماها سريعًا نحو فضاء الخارج.

فتحت الخط هامسة تملؤها رغبة في الصراخ تمردًا على المحاصَرة غير العادلة: «بحق الله أنا في الثلاثين من عمري، في موقع العمل الذي قاتلتُكم لأكون فيه، حفظتُ العيب والمقبول حتى مللت، وأعلم الحلال والحرام بإيمان ينبض من داخلي، فماذا تعتقدون أني فاعلة؟».

إلا أنها لم تعبِّر عن أفكارها، فالصمت صوته أعلى من الصراخ!

قالت: «مرحبًا يا أمي».

والدتها تتحدث بلسان القلق والخوف من كلام الناس، نعم تعرف، ولكن رغمًا عنها شعرت بالإحباط.

قالت أمها: «ماذا تفعلين عندكِ؟ أين أنتِ الآن تحديدًا؟ ومتى ستعودين من هذه المنحة؟ لا، إنها محنة، لم تكن تنقصنا يا بهية».

تنهدت بصبر على الهجوم غير المنظَّم، وغلبتها سخريتها المتمردة النادرة.

فقالت: «كنت نائمة يا أمي داخل خيمة ملأى بالفتيات».

كالمعتاد استفسرت والدتها بريبة: «وأين تقع خيمتكن؟».

اختنقت من الشرح المتكرر: «في مكان بعيد عن الرجال، يحرسنا العشرات حتى يتأكدوا من عفتنا قبل أن يمسنا خطر كسارقي المقابر مثلًا الذين يهاجمون الكثير من المواقع ولا يُبقون خلفهم أحدًا».

صاحت أمها: «تأدبي يا بهية».

تتأدب؟! أكثر من هذا؟! لقد قضت عمرها البائس كله في الأدب، إنها تمشي داخل الجدران حرفيًّا، ماذا تفعل أكثر ليثقوا فيها قليلًا؟

تنهدت بأسى معتذرة: «آسفة».

برطمت والدتها بسخط: «ما لنا نحن واستدعاء الحكومة؟ كنتِ بجواري وتحت عيني، من وظيفتكِ مدرسةً للتاريخ للمرحلة الإعدادية إلى المنزل مباشرة».

أجل، إلى المنزل الذي ضجرت منه داخل قرية أُزهقَت روحها فيها.

ردت بهدوء رغم العلة المتمكنة من قلبها: «ربما ما كان على أبي قبول دخولي كلية الآثار بالمقام الأول».

قالت والدتها معترضة باتهام: «صلابة رأسكِ ما أجبرته على الخضوع، وفشلكِ منعكِ من الحصول على زوج بعد تخرجكِ».

اغتاظت مستنكرة، فشلها هي؟! هل حلمها بزوج محترم يتقي الله فيها كثير؟!

لم تعتد أن تعبِّر عن أفكارها، فاستسلامها المقيت حد الخنوع قيَّدها من تفسير نفسها صراحة.

قالت: «نصيب يا غالية».

– نصيب أم صلابة رأسكِ؟ لو كنتِ متزوجة الآن وحولكِ أطفالكِ ما أجبرتْنا الحكومة على الموافقة.

رفعت نظرها إلى السماء تطلب العون.

ضمت شفتيها بقنوط وهادنتها بصبر: «يا أمي، حاولي أن تري الخير في تذكُّرهم لي واستدعائي. إننا بصدد اكتشاف مذهل، سينقل تاريخنا إلى مرحلة متقدمة، اكتشاف سيخط اسم ابنتكِ بحروف بارزة من الذهب في المستقبل القريب».

تمتمت والدتها بعدم رضا: «وماذا سنحصل من خط اسمكِ البائس؟ الفتاة في النهاية ليس لها إلا بيتها وزوجها».

قالت مؤنِّبة بتهكم: «ما تقولينه مهين للمكان الذي أقف فيه ولتاريخنا، يا أمي جداتي المصريات كُنَّ ملكات ومحاربات، عرفن فنون السحر والعلم، وكان لهن مكانتهن في حين كانت النساء مجرد سبايا في بلاد أخرى».

صرخت أمها معترضة: «لسن جداتكِ. تخلي عن أحلامك واهبطي إلى أرض الواقع قليلًا، أنتِ في خطر يا بهية، العمر يجري من تحت قدميكِ وقد دخلتِ سن العنوسة».

امتعضت: «أنا عانس بمقاييسكِ منذ سن السادسة عشرة؛ لم يعد اللقب يرعبني كما تتخيلين، بل أحمله بكل فخر».

- خائبة وستظلين خائبة.

ضحكت رغمًا عنها بإحباط وقالت: «أنا فاشلة وخائبة في عينيكِ يا أمي وإن صعدتُ إلى القمر بمجداف».

أتاها الفرج أخيرًا فردت أمها بسخط: «وضعتُ أصابعي في الشقِّ منكِ. والدكِ يريد محادثتكِ».

نبرة حنان خالطتها هيبةُ والدها عبر الأثير: «لا يُحزنكِ كلامها فوالدتكِ قلقة عليكِ».

ابتسمت عيناها بشفافية وكأنها تُحدِّث حبيبًا تاق القلب الجاف إلى الارتواء من عشقه.

ردت: «أنت في الجوار، فلا حزن ولا انكسار يزورني يا أبي».

- أنا دائمًا بجواركِ وأساندكِ، ربما هذه البعثة رضيت عنها جبرًا، ولكن جزءًا من قلبي مال إلى منحكِ فرصة تمنيتِها.

- الفتيات أيضًا يمكنهن تحقيق أحلام آبائهن الموءودة.

تنهد فاهمًا مقصدها وقال: «أثق أنك ستفعلين يا حفيدة الملكات».

لطالما ناداها والدها بهذا اللقب، مشعِلًا شرارة شغفها بالآثار المصرية، فلم يترك مقبرة أو معبدًا أو أثرًا لم يأخذها إليه، حتى الأماكن الموجودة على طول محافظتها بصعيد مصر المجهولة للكثيرين.

قال: «انتبهي لنفسكِ، لن أوصيكِ يا قرة العين».

إنها فتاته الوحيدة على ثلاثة من الذكور، مدللته وصاحبته، متأكد رغم كل القيود التي خنقتْها كثيرًا أنها كطير العُقاب يتوق إلى التحليق وفرد جناحيه، ولكن قيود الوهم تحبسه في قفص من ذهب.

ردت: «سأفعل، لا تخَف، تربيتك في النهاية».

جاء صوت أبيها مشددًا بتحذير دائم: «بهية، احذري ولا تثيري سخطهم، القدماء تركوا الكثير لنتفاخر به، ولكنهم تركوا الأكثر مرصودًا مُخبَّأً إلى يوم الدين. أنتِ لستِ أهلًا لغضبهم».

هزت رأسها ولم تعلِّق، والدها عاشق مخلص للتاريخ، ولكنه كالكثيرين من سكان الصعيد المحاطين بالآثار الظاهر منها والباطن، يؤمن بلعنة المصريين القدماء!

- سأفعل.

***

لم تستطع أفكارها المشتعلة جرَّها للعودة إلى أمان الخيمة، فجلست حول النار الخامدة تحرك طرف عصا محترقة شاردة.

(مكانها هنا بين مجد الماضي وحلاوة اكتشاف المستقبل، وليس هناك، مدرسة تاريخ بائسة. لطالما اقتنعت أن التاريخ لا يحتاج إلى أن يُدَرَّس، فحكايات الأجداد يمكن لأي قارئ مطالعتها والتوغل في بحورها).

فكرت بألم قاتل في أن رحلتها الخيالية على وشك الانتهاء، إن كان والدها ساعدها مرة وتنازل فلن يفعل مستقبلًا، بل سيسير على نهج الآخرين ويجبرها على العودة.

خيَّم عليها ظل ثقيل في جنح الظلام، رفعت عينيها تلقائيًّا لتصطدم بوجه رئيسها محب، لم تحاول إخفاء الاندهاش الذي وجد صدى على حاجبَي محب المعقودين.

سألت بهدوء: «هل وجودي هنا يُعد خرقًا للقوانين؟».

هز رأسه نافيًا متعجبًا من السؤال وقال: «خارج ساعات العمل لكِ الحرية في فعل ما تريدين».

أفكارها البائسة وخيبة الأمل بعد حديثها مع والدتها جعلتاها تسترسل بلا تركيز: «هذا ليس رأي والدتي المتفِق مع المجتمع أجمع، يُفترض بي فعل المتوقَّع وليس ما أرغب».

إذن حديثها الذي التقطه من موقعه القريب كان مع ذويها، من خلال معرفته لها بما يزيد على الأشهر الثلاثة بجانب بعض المعلومات التي جمعها عنها من الواضح أنها خاضعة لقيود صارمة.

رد بهدوء متزن: «اندهاشي لأنه يُفترض بعد يوم عمل مرهِق أن تكوني نائمة مثل الجميع».

تهكمت بتفكير أحادي: (ليس إن كان عليها تقديم تقرير مفصل عن تحركاتها يوميًّا).

ولكنها فسرت بشيء معاكس: «كنت أخط بعض الملاحظات المهمة من أجل التقرير الذي سيُرفع غدًا».

هز محب رأسه إلى الأسفل نحو مكان يقابلها مستأذنًا بالجلوس، فسمحت له دون كلام.

قال متربعًا فوق الرمال: «التكليف الذي استُدعيتم لأجله على وشك الانتهاء».

أشاحت بوجهها بحزن سقيم قائلة: «لا تحتاج إلى تذكيري بأمر أعدُّ ساعاته قبل لياليه».

أخفض محب وجهه متلاعبًا بشيء وهمي بين أصابعه وقال: «لم أتوقع توقكِ إلى الرحيل! من خلال عملكِ الدؤوب وكفاءتكِ اللافتة ظننت أنكِ تأخذين فرصتكِ على محمل الجد!».

بل حياتها كلها متوقفة على حلم ظنته بعيد المنال!

ردت بهدوء شديد عكس نيرانها الداخلية: «إن كان الأمر بيدي ما غادرتُ قط، أنا أتوق مجبَرة، ليس لديك أي فكرة عن الحرب الطاحنة التي أخوضها يوميًّا مع عائلتي».

كما أجزم يوم رؤيته لها أول مرة، فعلى عكس المتوقع لم يجذبه إلى بهية حسن خلقها، أو هدوؤها وتأنيها الملموس، بل اليوم الذي جمع فيه أفراد فرقته كان الجميع شغوفًا فرِحًا، أتوا قبل موعدهم بكامل عتادهم، وتأخرت هي بضع سويعات، وظن أنها لن تأتي، حتى ظهرت محاطة بأفراد من عائلتها الرافضين لسفرها وحيدة، وأوامر كثيرة أُلقيت على مسامعها، حتى شك في هويتها المكتوبة في قائمته، وظنها فتاة صغيرة لم تطحنها معارك الحياة بعد.

طبيعته هزلية ساخرة بشدة، حتى قال عنه البعض إن كثرة تنقيبه في تاريخ الأموات قد جعلت عقله يخف، ولكنه لن يظهِر ذلك مع شابة جادة لا تفقه فن المزاح.

فسر أخيرًا: «ما قصدتُه من حديثي أني أعددتُ قائمتي الاصطفائية وأريدك معي».

رفعت رأسها بحدة، وبدأت نيران الغضب ترميه بسهام سامة، قبل أن تقف تهجم عليه لتصرعه بأسنانها كأسد جائع.

ولكنه عدَّل كلماته سريعًا بتملق: «عنيتُ معنا، معنا يا بهية، عمل دائم في فريقي، أنتِ خلال فترة قصيرة أظهرتِ مهارات نحتاج إليها».

قبضت يديها بجانبها بشدة تعيد انفعالها إلى البرود التام والجمود.

قالت: «فرصة عمر غير قابلة للتحقق».

رمقها بنظرة خبيثة وقال: «هل أنتِ انهزامية دائمًا؟ صفة فيكِ أم طبع مكتسَب؟».

إن كان يتوقع ثورة فهو واهم.

ردت ببرود جليدي: «أستاذ محب، العلاقة بيننا لا تسمح أبدًا بما قلتَه».

وقف محب من مكانه واضعًا يديه في جيبَي بنطاله وهز كتفيه غامزًا بتهكم مرِح: «بعد تصريحكِ المثير للشفقة عن تحكم عائلتك ذابت كل المسافات بيننا».

قلبت فمها باستنكار شديد وقالت: «لا أسمح لك».

انحنى بغمزته المريعة قائلًا بغموض: «اسمحي من أجلكِ، وفكري في عرضي يا بهية، أعدكِ أنكِ ستجدين ما يحرركِ».

غادر بعد أن ترك وجوده القصير محنة لا تُطاق.

***

انتهوا من يومهم المرهِق والمفعم بالشغف قرابة العشاء، تجمع أفراد البعثة البحثية حول نار التدفئة كعادتهم يتبادلون الآراء، يطرح كلٌّ منهم وجهة نظره فيما توصلوا إليه خلال رحلة التنقيب.

غلبت العتمة على المكان إلا من بصيص نور من الفحم المحترِق كاحتراق نفسها، تلوح بالأفق المدينة القريبة وأنوارها تتراقص بإغراء، والنجوم تتلألأ بنعومة لتزيِّن البدر، والنفس تتوق إلى الحرية ولو لليلة تتنعم فيها بخمرها المسكِر، علَّ حِمل التفكير الثقيل ينزاح عن كتفيها.

قالت مروة: «بهية، إلى أين ذهبتِ؟».

ابتسمت بتكلُّف والانتباه يعاودها سريعًا وقالت: «هنا، وأين سأكون؟».

تأملتها مروة مليًّا ملاحِظة تشتتها الذهني منذ أيام.

ردت: «كنا نقول إن هذه المقبرة بالذات تُحطِّم كل أكاذيب «الأفروسنتريك»».

قلَّبت بهية عينيها في وجوه الزملاء بهدوء وقالت: «لا نحتاج إلى اكتشاف جديد لتحطيم ادعاءاتهم».

قطع إجابتها زملاؤها حين هتفوا في صوت واحد فجلبوا أنظار محب الذي كان يتفقد تجمعهم.

دعَوه ليشاركهم: «تفضل يا ريس، لقد أعددنا الشاي الثقيل على نار الحطب».

راقبتْه يستدير متوجهًا إليهم ثم جلس في مكان بين الشباب متقبلًا كوب الشاي بامتنان.

قال: «بدوتم مندمجين وتعالت أصوات جدالكم. تُرى ما موضوع الليلة؟».

أجابه هاني موضِّحًا: «لا جدال، بل تبادل وجهات النظر، قلنا إن ما نكتشفه في الموقع هنا كل يوم مع موقع أسوان سيحطم ادعاءات الأفروسنتريك».

أشار عبد الله نحوها مبتسمًا وقال: «الأستاذة بهية اعترضت بأننا لا نحتاج إلى هذا، وأتفق معها».

سأل محب باهتمام دون أن يرفع بصره عن الكوب: «وما وجهة نظركِ يا أستاذة؟ ألا يدعمنا أكثر وجود إثبات جديد؟».

حركت كوبها الفارغ بين كفيها وأجابته: «في كثير من الأحيان محاولة إثبات الحقيقة يضعِفها وينفيها».

أومأ محب برأسه متمتمًا بنبرة خشنة: «أوافقكِ في هذا، ولكن بما أن دولتنا كانت مطمعًا للمدعين والكذابين منذ فجر التاريخ، فلا بأس من وقت إلى آخر بتذكيرهم بقدرها والزهو باكتشاف جديد يثبت ملكيتنا للأرض منذ فجر التاريخ».

رفعت بصرها خلسة تنظر إليه بطرف عينيها، ذاك المحب به شيء غامض بدأ يجذبها وتجهل ماهيته، ربما لأن معظم وجهات نظرهما تلتقي في نقطة ما!

ابتلعت ريقًا أجوف قائلة بتوازن: «ربما هذا صحيح، ولكن ما فائدة أي اكتشاف جديد ونحن لدينا لوحة سنوسرت الثالث التي حددت لنا التخوم المصرية في ذاك العهد ببلاد النوبة؟».

قاطعها بنبرة محبة يتلو ما كُتب وكأنه يداعب نص اللوحة بقلبه: «لقد جعلتُ تخوم بلادي أبعد مما وصل إليه أجدادي، ولقد زِدتُ في مساحة بلادي على ما ورثتُه، وإني ملك يقول وينفِّذ، وما يختلج في صدري تفعله يدي، وإني طَموح إلى السيطرة، وقوي لأحرز الفوز، ولست بالرجل الذي يرضي لبه بالتقاعس عندما يُعتدَى عليه، أهاجم من يهاجمني حسب ما تقتضيه الأحوال، وإن الرجل الذي يركن إلى الدعة بعد الهجوم عليه يقوِّي قلب العدوِّ، والشجاعة مضاء العزيمة، والجُبن هو التخاذل، وإن من يرتد وهو على الحدود جبان حقًّا، ولَمَّا كان الأسود يحكم بكلمة تخرج من الفم، فإن الجواب الحاسم يردعه، وعندما يكون الإنسان ماضي العزيمة في وجهه الأسود، فإنه يولي مدبرًا، أما إذا تخاذل أمامه فإنه يأخذ في مهاجمته. على أن السود ليسوا بقوم أشداء، ولكنهم فقراء كسيرو القلب، ولقد رآهم جلالتي، وإني لست بخاطئ في تقديري، ولقد أسرتُ نساءهم، وسُقتُ رعاياهم، واقتحمتُ آبارهم، وذبحتُ ثيرانهم، وحصدتُ زرعهم، وأشعلت النار فيما تبقى منها. وفي حياتي وحياة والدي لم أنطق إلا صدقًا، دون أن تخرج من فمي فرية. وكل ولد أنجبه ويحافظ على هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي يكون ابني، وولد جلالتي، وألحِقه بنسبي، وإن من يحافظ على تخوم الذي أنجبه، يكون منتقمًا لأبيه حقًّا، أما من يتخلى عنها، ولا يحارب دفاعًا عن سلامتها فليس ابني ولم يولَد من ظهري، والآن تأمل، فإن جلالتي قد أمر بإقامة تمثال

عند هذه الحدود التي وصل إليها جلالتي حتى تنبعث فيكم الشجاعة من أجلها، وتحاربوا للمحافظة عليها».

رفعت بصرها سريعًا تُحدق إليه كأنها تستجدي شيئًا يائسًا لم يفهم فحواه.

قالت: «أتحفظها عن ظهر قلب؟!».

ابتسم بتكلُّف وعيناه السوداوان يتدفق منهما سحر عجيب، وسألها: «ألا تفعلين؟! لا أعتقد أنكِ دونتِه في كتاب ملحوظاتكِ».

ارتبكت ولمست جيب معطفها المختبئة فيه مذكرتها العزيزة. كيف عرف عنها؟ هل يراقبها؟

سمعت مروة تنجدها: «مع الغزو الفكري لمدَّعي الانتماء إلى بلادنا من الضرورة أن نحفظ جميعًا اللوحة».

أومأ عبد الله مؤكِّدًا: «أتذكر أيام الدراسة كنا نحفظ لوحات الملوك عن ظهر قلب».

ما زال محب يحدق إلى وجه بهية الذي زاد احمراره وارتباكه إلى حد غير معقول.

حينها سأل: «في رأيكم ما سر ادعاءات الأفروسنتريك منذ سبعينيات القرن الماضي؟».

أشاحت بهية بوجهها بعيدًا عن مرماه وردت بهدوء: «في الواقع انتشر فكرهم في السبعينيات والثمانينيات، ولكن بذرة الفكرة بدأت من عشرينيات القرن الماضي، وهي في حد ذاتها حركة عنصرية عالمية تتمحور حول التعصب العرقي مع العرق الزنجي، هدفها الأسمى القضاء على العرق الأبيض في إفريقيا في الشمال والجنوب على وجه خاص، مدعين أننا إما عرب احتلوا مصر وإما أوروبيون احتلوا جنوب إفريقيا».

صمتت تتيح الفرصة لأحد الزملاء الذي بدأ في طرح وجهة نظره: «رغم ادعائهم على الحضارة المغربية والقرطاجية ونسبتها عنوة إلى العرق الأسود، لكن مصر كانت أهم أهدافهم ومفتاحهم للسيطرة على باقي دول الشمال».

طرح آخر رأيه في النقاش: «أعتقد أن حُجتهم الوحيدة أو ادعاءهم على وجه الدقة أن واحدة من زوجات أمنحتب الثالث في الأسرة الثامنة عشرة مصرية بملامح إفريقية ولون بشرتها أسود، وذلك لأن والد الملكة «تي» كان من أصل أجنبي، ونحن نعرف ذلك لأن اسمه مدوَّن بعدة طرق، وهذا يدل على أنه ليس مصريًّا، ولكن هل يمكننا الجزم بحقيقة ذلك؟ وإن كان أجنبيًّا، ما الدليل على أنه ينتمي إلى العرق الأسود؟».

مد محب قدميه أمامه بأريحية وأضاف: «ليس هذا فقط، فهم يأخذون العادة الدينية في هذا العصر بكسر أنوف التماثيل لاعتقاد المصريين آن ذاك أن التماثيل تتنفس، يفسرونه خطأً بأن المصري الحديث من كسر أنوف التماثيل حتى يخفي ملامح الأنف الإفريقي».

أيَّدت مروة: «حجتهم المضحكة على وجه الإطلاق هي بعثات حتشبسوت إلى بلاد بونت، حيث يرون أن إثيوبيا أرض الآلهة، والمصريون يرون أنفسهم أبناء الآلهة، بالتالي هم أصل المصريين، المضحك هنا أننا لم نجد قط في الأثر ادعاء المصريين بأنهم أبناء لآلهة، بل مجَّدوا الآلهة المصرية ونسبوها إلى عناصر الأرض أو السماء».

تولت بهية الرد الهادئ: «جميعنا نعرف من المسؤول عن ظهور هذه الحركة ولماذا، حدَّ أنهم يتلاعبون منذ عشرات السنين بـ «الهبلوجروب»، أي معرفة أجناس البشر، مستغلِّين DNA لمنطقة عرق معين بمنطقة ما، ثم عمموا هذه النتائج المزوَّرة على جميع أنحاء شمال إفريقيا وليس مصر فقط».

تعددت ألوان الغضب على وجه محب، وكأن الأمر شخصي، ولكن ألا يمس هوية كل مصري؟

قال بخشونة: «تعنين الصهاينة، فهذه الأفكار خدمت مصالحهم، وبخاصة عندما جاءت دعوة جمال عبد الناصر إلى الوحدة العربية، وأصبحت جمهورية مصر العربية تدعم الوحدة الوطنية بالدين واللغة، فروَّجوا إلى أن كلمة عربية تعني العرق وليس اللغة، وهذا يؤكد مزاعمهم، وبالطبع خدم مزاعمهم، لأن في وقتها لو تحققتْ هذه الوحدة لأصبحت مصر في العدم».

انزعجت ملامح بهية دون تفسير وكأنها اعتقدت أن محب يهاجمها كالعادة.

ردت بنبرة شرسة: «لا تنسَ أن الأفروسنتريك مكمِّلون لما حاول اليهود إثباته كذبًا، من أنهم بُناة الأهرامات، وهذا بحد ذاته يدعو إلى أكبر ضحكة هزلية في التاريخ، فبنو إسرائيل عندما دخلوا مصر أول مرة جاؤوا هاربين من مجاعة سادت العالم كله ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [سورة يوسف]، آمنين من الجوع والعطش والحروب القبلية، دخلوا ووجدوا حضارة أُقيمت بالفعل منذ زمن، وأول جيش نظامي في التاريخ قائم على حمايتها، وكان من قبلهم بمئات السنين عندما دخل نبي الله إبراهيم ووجد حضارة وعمارًا وقصورًا مُقامة، أيضًا لا يوجد أثر واحد يخلِّد بأي طريقة مساهمة اليهود ببناء الحضارة».

صمتت بهية ووجهها محمر بالغضب، أنفاسها تتلاحق بسبب تدافع الحديث. حدق الجميع ببعض العجب إليها وإلى محب الذي بدا هو الآخر منزعجًا بطريقة ما بسببها رغم اتفاق وجهتَي نظرهما!

لكنه رد ببرود: «لم نختلف، إذن هناك علاقة بين الأفروسنتريك وإسرائيل، كلاهما رعاع سارقا تاريخ، فأحدهما ادعى أن فلسطين أرض الميعاد، والآخر يرغب في سرقة التاريخ والحضارة المصرية».

هبت بهية من مكانها حانقة وقالت: «لا، بل إسرائيل تستخدمهم وتستغل توقهم إلى أي شيء يرفع شأنهم بعد استعباد الأمريكان لهم سنين طويلة حتى تحرروا بعد الحرب الأهلية، بهدف واحد، تجفيف نهر النيل بعد فشلها الذريع في وجودها العسكري في الأراضي المصرية وتحقيق حلمهم من النيل إلى الفرات».

وقف محب هو الآخر وابتسم بإغاظة وقال: «ما زلنا متفقين، العالم متواطئ ويدعمهم لأنهم سيحققون ادعاءات اليهود، وكلنا نعرف أن حفنة القتلة الصهيونيين مجرد حشرات يقفزون على أي

حضارة لدعم قولهم بأنهم شعب الله».

عقدت حاجبيها بتفكير وقالت: «ترغب في تأكيد أن الأفروسنتريك لديهم علاقة وثيقة مع الصهيونية؟».

رد أخيرًا أحد الزملاء قاطعًا النقاش الذي تحول إلى مناظرة بينهما: «بالطبع لديهم، وبنفسي جربتُ دخول أحد مواقعهم فهاجموني ووصفوني بالمحتل العربي، رغم تبادلهم الحديث بكل ودية مع الإسرائيليين».

وضع محب كفه في جيب بنطاله وجال بنظره في وجوه الشباب المهتم.

قال: «هل تذكرون محاولتهم لعقد مؤتمرات في الأقصر وأسوان لإعلان أنهم أصحاب الحضارة المصرية؟».

هتفت مروة بمرح وعيناها تلمعان بالتشفي: «أتذكر وقتها أن الحكومة دقَّتها على رؤوسهم حرفيًّا وطردتهم شر طردة».

أومأ محب بجفنيه وقال: «غير المعلَن عنه حتى الآن أن التمويل الضخم كان إسرائيليًّا، واختيارهم لذلك الوقت بالذات حينها جاء مع مشكلة سد النهضة».

تمتم هاني بحرقة: «لدينا أدلة حقيقية، اللعبة مكشوفة ولكن لا أحد يتحرك، بل يدعمونهم، لا أعرف لماذا حتى الآن لم نحاربهم ونهد هذا السد اللعين فوق رؤوسهم؟».

ضحكت بهية بعصبية ساخرة: «مياه إفريقيا للأفارقة، أليس هذا شعار الإثيوبيين؟ أي إننا خارج تصنيفهم، ناهيك بالمشروع المعَد الآن لتوصيل مياه النيل إلى إسرائيل، هل رأيتم الوقاحة؟ يعدُّون مشروع القرن لتوصيل مياه ليست مياههم إلى أرض ليست أرضهم!».

رغم الحماس الغامض الذي لفها من محب مسبِّبًا لها ارتباكًا وعصبية أشد، فإنه أنهى الحديث بأمر حازم.

قال: «عملنا ليس اتخاذ القرارات السياسية، بل إثبات تاريخنا مرة تلو المرة ولا نكف أبدًا، لذا ليس على أحدكم الاعتقاد مرة أخرى أننا لا نحتاج إلى اكتشاف جديد يدعمنا، نحن وحدنا تمامًا في هذا العالم».

ساد الصمت مؤقتًا بينما بهية تبلع ريقًا جافًّا، ولم تستطع تحديد إن كان يوجِّه إليها إهانة مطوية من تصريحها السابق أم أنه يحثهم ويحمسهم!

نظر محب إلى ساعته قبل أن يستدير مستعدًّا للمغادرة معلنًا: «الوقت تأخر ولدينا عمل في الصباح الباكر، هذا يكفي الليلة».

همَّ الجميع بالوقوف فورًا احترامًا للرئيس، وتوقف محب بمنتصف الطريق ونظر من وراء كتفه مركِّزًا نظره على بهية، بالنظرة نفسها الغامضة المريبة، كأنه يبحث عن ضالته ووجدها.

قال: «أتعشم بعد حديث الليلة أن يكون كل فرد منكم قد فهم لماذا أصرت الدولة هذه المرة على أن يكون الاكتشاف مصريًّا بدماء مصرية خالصة».

***

(يمر الوقت ثقيلًا حينما نفعل ما نكره، وينافس الضوء في سرعته حينما نفعل ما نحب)، قانون عجيب من قوانين الحياة!

الوقت ينفد منها ولم تجرؤ على إخبار والديها بما طلبه رئيسها، فهي أجبن من أن تفعل، سلبية، لا تستطيع المواجهة، تعترف لنفسها بهذا بطيب خاطر، كما أن محب لم يحدِّثها في الأمر من جديد منذ آخر مرة تحدثا فيها معًا، لقد مر الأسبوع المنصرم اعتياديًّا، ربما يشاكسها خلال الفترات التي يوجَدون فيها في الموقع ولا شيء زيادة.

انتهت للتو من التقرير اليومي لوالدتها بجانب التقريع الدائم، وتذكيرها أن الوقت على وشك النفاد، لقد اعتادت الأمر بملل، ولكن اليوم كان مختلفًا، إذ زادت شراسة أفكار والدتها.

أمرتها بتآمر: «افعلي شيئًا ناجحًا في حياتكِ، واستفيدي من هذا السجن الإجباري، واجلبي شابًّا يصلح زوجًا».

احمر وجهها بحنق، لم يبقَ إلا أن تُدلل على نفسها في سوق الجمعة لإيجاد الزوج الهمام! بحق الله! لقد حوَّلت والدتها كل المواقف والتجمعات إلى أهداف كارثية، حتى حفلات الزفاف والتجمعات العائلية التي تجمع شبابًا عرفتهم طوال حياتها، ومؤكد لا ترغب فيهم ولا في أمهاتهم.

قال محب: «هل فكرتِ؟».

ازداد احمرار وجهها بدافع الحياء هذه المرة، ما به المتربص يقتحم خلوتها كل مرة عقب الاتصالات الكارثية؟ رباه! قد يظن البعض أنهما على موعد من نوعٍ ما.

قالت: «هل ستعتاد اقتحام خلوتي؟ هذا غير مقبول».

ارتسم الهدوء على وجهه رغم رده المشاكس: «أنا هنا في عمل وليس لشيء آخر».

فكرتْ: (هذا الشخص مستفز لأقصى درجة).

قالت: «الأوقات الرسمية انتهت، يمكنك تأجيل السؤال إلى الغد».

قصفها ببرود: «التأجيل إلى الغد فعل الفاشلين».

تجمدت مكانها دون أن ترفع وجهها وهي تتنفس بصعوبة، رغم تفكيرها المتهكم: (هل هذا المحب له علاقة بوالدتها أم هو روحاني يقرأ الطالع؟).

(فاشلة وخائبة وكسولة، اتهامات والدتها المفضلة).

زمَّت فمها قائلة بأكبر قدر من الاحترام: «لا أعتقد أني مميزة إلى هذا الحد، رجاء ابحث عن شخص أفضل مني».

ابتسم بتكلُّف وأصر: «أنا أنظر إلى الأفضل».

عقد محب حاجبيه بقوة وهو ينظر إلى التورُّد المستحيل الذي كسا ملامحها حين تلعثمت تهز رأسها: «لا أظنني اختيارًا جيدًا، المهنة تحتاج إلى شخص لا يخضع للقيود».

جلس محب القرفصاء أمامها وأطرق للحظات، وجهه غامض كتفكيره وكأنه ينازع فكرة ما.

حتى قال فجأة: «ربما تحتاجين إلى دَفعة مزلزلة؟».

سخرت بتحشرج: «أرجوك لا تلقِ على مسامعي خطبة أخرى عن الثورة وكسر القيود، ربما أكره قيودي ولكني مؤمنة بها».

التقط أحد الأحجار ثم قذفه بعيدًا بعنف، مجيبًا بنبرة خشنة: «لم ألقِ عليكِ خُطبًا في السابق لأفعل الآن، ما بيننا علاقة عمل لا تحمل أي حقوق للتدخُّل في حياة الآخر».

اضطربت ولم ترد، فأكمل بهدوء: «أنا أيضًا مؤمن أن بعض القيود تحمينا، ولكن الإفراط في الإيمان بها يؤذينا، إن التغني بزيف قناعاتنا دون أن نمارس حريتنا يضعنا في سجن الممنوعات، كل شيء في الحياة يجب أن يتوازن».

لديها الكثير من فن الرد، ولكنها لن تفعل ببساطة: «ماذا تريد يا سيد محب؟».

وقف محب يضرب حصى آخر بقدمه، فتدحرج إلى الأسفل نحو جمر النار المطفأ.

قال: «ما أعنيه هو منحكِ شيئًا قد يدفع غيركِ عمره لرؤيته».

رفعت عينيها الواسعتين باهتمام جلي، فأوضح محب بنبرة خافتة متلاعبة: «تتساءلين يوميًّا عن سر الربط بين الموقعين. يمكنني إطلاعكِ على الأمر».

توسعت عيناها بشكل أكبر، وطل الحماس والشغف منهما ووقفت ببطء وسألته بلهفة: «ما هو؟».

ابتسم بطريقة جانبية وقال: «تعالي معي وستعرفين كل شيء».

انمحى الحماس من ملامحها ولاح سوء النية، كتم ضحكته المتسلية ورسم الوقار والجدية الشديدة.

قال: «طوال معرفتكِ بي هل ظهر لكِ مني ما يشين؟».

لم تتخلَّ عن ملامح الرفض والشك، فسأل مجددًا بصبر: «ألا تثقين بي؟».

ردت دون تفكير: «بالطبع لا، أنا لا أعرفك».

ابتسم هذه المرة بتوسُّع ماضيًا في طريقه، ورماها بغمزة مريعة أخرى.

قال: «حسنًا، العرض قائم لمرة واحدة ولن يتكرر».

لم تترك مكانها ولم تُظهِر أي نية لاتِّباعه.

توقف وأطل من وراء كتفه وقال: «إن لم تثقي بي على الأقل أنتِ تثقين بأن لعنة قبور الأجداد لن تترك من يدنِّس قدسيتها يا بهية».

ازدردت ريقًا جافًّا وكلماته تضرب على وتر حساس، ذكَّرها بكلام والدها المشابه!

سألته بتهور: «هل تؤمن بلعنتهم؟».

مال رأسه جانبًا ولم يتنازل عن ابتسامته المتكلفة، وقال: «أنا مؤمن أن لكل خرافة أصلًا من الواقع. تحكي الخرافات قصص الأسلاف وأصل البشر والعالم، فلمَ لا؟».

لم ينتظر منها ردًّا كعادته ومضى في طريقه، ولكن هذه المرة كانت خطواته بطيئة متزنة ومنتظرة، يعلم بكسرها لأول مرة في حياتها كل القيود لتمضي وراءه.

***

تبعتْه سيرًا على الأقدام لفترة طويلة، محافِظة على مسافة بينهما حتى اختفى تمامًا أثر المخيم وموقع الحفر، الصحراء الصامتة بدأت تملؤها بالرهبة التي قضت على الحماس، دائمًا كان الخوف من المجهول أكبر أعداء الإنسان، يأكل من سلامه كما أحلامه وأهدافه.

الأهرامات الثلاثة المهيبة عن يمينها وأبو الهول المخيف يلوح في الأفق على يسارها، لا عجب أن سمَّاه الناس على مر العصور أبا الهول، فوجهه المخيف وكأنه من عالم آخر يثير الذعر، وكأنها دخلت أحد أفلام الرعب، يتتبع فيه الإنسان مصيرًا أسوأ من الموت، ورغم كل لافتات التحذير فإن فضوله يقوده إلى حتفه!

جسد أسد مهيب ورأس إنسان يرتدي «النمس»، والرأس الصغير الذي لا يتوافق مع حجم الجسد لطالما أثار التساؤل والغموض حوله، ليس عدم توافق التمثال فقط ما يثير حوله الغموض، ولكن البناء في حد ذاته، فرأس التمثال بُني من الحجر الكلسيِّ وقاعدته من حجر مختلف تمامًا، وبالطبع التمثال لا يوجد عليه أي نقش يجزم بنسبه إلى أي ملك.

هتف محب من بين القدمين الأماميتين المنتصبتين للتمثال أمام لوحة الحلم: «وصلنا».

انحنت بهية إلى الأسفل تسند كفيها فوق ركبتيها تُهدِّئ أنفاسها، ثم رفعت رأسها بتبرم تقول: «لا تقل إنك أتيت بي كل هذه المسافة من أجل لوحة الحلم. هل هي السر العظيم؟».

قصفها كما أصبح معتادًا: «عالم الآثار وبخاصة المصريات يجب أن يملك كل الصبر وعنصر الخيال يا أستاذة».

لم تتراجع هذه المرة، قالت: «عملنا هو نفي الخيال ودحر الأساطير وإثباتها بالوقائع».

قال بهدوء: «التحلي بالصبر لن يضركِ».

اعتدلت تضع يدها على خدها بحنق وقالت: «أنتظر اكتشافك العظيم».

التفت إليها وسألها بغتة: «هل أنتِ مقتنعة أن أبا الهول هو الملك خفرع؟».

أخذها التفكير لبرهة قبل أن تجيب بعملية: «علم المصريات الحديثة لا يعترف إلا بأنه قد بُنِيَ قبل نحو 2500 سنة قبل الميلاد، لذا يجب أن يُعطى الفضل للملك خفرع لإقامة أروع تمثال في العالم».

تراجع مقتربًا منها وسأل بإلحاح: «لم أسأل عن شيء أعرفه، بل عن رأيك أنتِ».

ترددت قليلًا ثم قالت: «لا، لستُ مقتنعة، رغم آراء كل الباحثين ومحاولاتهم البائسة لإثبات هذا، فإني أجد كل الأدلة متضاربة، وأكبر دليل هو لوحة الحلم بحد ذاتها».

ارتخت ملامح محب وقال: «جيد، هذا ما أعتقده أيضًا، وكما أشرتِ، لوحة الحلم أكبر دليل، فإن كان التمثال لأبي الهول لماذا لم يذكره الملك تحتمس الرابع بدلًا من اعترافه أن «حور إم أخت» من ظهر له في الحلم وأقام معه الصفقة بأن يزيح عنه التراب مقابل أن يبارك له في مُلكِه على كيميت؟».

تأملت التمثال المهيب مليًّا ثم شرحت برهبة: «كنت أؤمن دائمًا أنه لا يمكن لعظمة المصريين أن تصنع تمثالًا غير متجانس، فهذه تعد إهانة، أنا مؤمنة أن الرأس كان ضخمًا وأُعيد تشكيله عن طريق الترميم، ليوافق شكل الملك خفرع».

لاح الاهتمام على وجه محب، كأنه وجد ضالته في إنسان يؤمن بأفكاره.

قال: «تقولين إن التمثال كان موجودًا قبل الملك خفرع بكثير».

هزت كتفيها تتلفت حولها برهبة ورعب بدأ يتسلل إلى أوصالها بسكون المكان.

قالت: «قاعدة التمثال تُثبت ما أقوله، آثار الشقوق المتسببة فيها الأمطار المستمرَّة تخبرنا أن عمر التمثال يتخطى العمر المعروف بين علماء الآثار والجيولوجيا».

كان ينصت باهتمام فأكمل مؤكدًا: «عمر تقديري، ربما يتخطى الاثني عشر ألف سنة».

ردت بحيرة: «ربما، ولكن ما نعرفه أن المصريين القدماء وُجِدوا فيما يتراوح بين خمسة آلاف سنة قبل الميلاد أو ما يزيد قليلًا».

ابتسم بتؤدة قائلًا بنبرة جازمة: «وحتى إن أُثبتت النظرية هذا لا ينفي أن من بنى التمثال وعَمَّر الأرض هم مصريون أيضًا، ولكن لسبب ما طُمس وجودهم، ربما لسبب ديني نعرفه وربما تقلبات الطبيعة».

هزت رأسها بموافقة متوترة تقول: «هل يمكننا مناقشة الأمر في المعسكر؟ لا أشعر بالارتياح هنا».

تقدم محب نحو الكف اليسرى للتمثال وقال: «لم أُرِكِ السر، لقد وعدتكِ بما سيقلب معتقداتكِ وأنا لا أخلف وعدي أبدًا».

خرجت منها كلمات الرفض التلقائي تلح بالعودة: «لا، أحلُّك منه، هذا يكفي».

– جبانة متخاذلة.

هتفت غضبًا: «لا أسمح لـ ... ك!».

توقفت الحروف في جوف بهية حين رأته يزيح حجرًا ضخمًا وظهر من خلفه ما قلب رأسها.

تمتمت بذهول: «حجرة تشاك حقيقية!».

فتح يديه باستنكار شديد وقال: «هل اعتقدتِ ولو لحظة أنها أسطورة؟! للمرة الثانية أشك في تفوقكِ وذكائكِ».

رغم الإهانة قالت بتخاذل: «لقد فشل تشاك في الحصول على تصريح كما نعرف، ولم يتحدث أحد عن الأمر».

قال بهدوء وهو يشعِل إضاءة مخصصة فمنحها واحدة وأمسك أخرى: «لم يثبت أحد ولم ينفِ».

صمتت لتستوعب ما صرَّح به.

تابع: «لماذا في اعتقادك استعددنا بتكتم تام واستعنَّا بكل الخبرات المصرية ورفَضنا أي تدخُل أجنبي؟!».

تمتمت بانبهار مقدِّمة قدمًا ومؤخرة أخرى: «بعد كل هذه السنوات قرروا اكتشاف الأمر بنا نحن؟! بأيدي أبناء البلد؟!».

هبط محب إلى الأسفل وأشار قائلًا: «اتبعيني وحافظي على مسافة قريبة مِني».

أغلقت بهية عينيها تبتلع ريقها الجاف بمحاولة فاشلة للسيطرة على رهبتها، لكن فضولها كان له وقع أشد.

قالت: «أنت المسؤول، لهذا تخوَّل لك كل الصلاحيات».

بدأ محب النزول على سلم خشبي معلنًا: «لا أحد يعرف بأمر الغرفة إلا القليل، وأنت أحدهم الآن».

ارتعشت ابتسامة على فمها، تراه يضع الإضاءة بين أسنانه ويهبط إلى الأسفل بحذر، تبعته على الفور.

الرحلة إلى الأسفل طويلة أكثر من أي موقع قد زارته قبلًا، رائحة الرطوبة تفوح من المكان، وكأن ماءً جاريًا ما زال هناك معاكسًا لطبيعة المكان الجافة، مظلمًا بشكل يقبِض القلب، يثير كل خيالات الخوف، رحلة محفوفة بالمخاطر، وفي الأسفل اشتد الظلام، والإنارة الخافتة للغاية التي وُضِعَتْ زادت الأمر سوءًا بدلًا من أن تهدئها، خُيِّل إليها أشباحًا تتراقص حولها، قلبها دق كالطبول وعجزت عن السيطرة عليها، وعاد العُقاب ينبعث من قلبها يحرسها كما اعتادت عند الخطر، سرها الخاص منذ الطفولة الذي أوصاها أبوها ألا تخبر عنه أحدًا أبدًا، رياح غريبة ضربت أسفل قدميها مع كل درجة تهبطها، ولولا ثبات محب العجيب لصرخت رعبًا وفرت ذعرًا. بدأت أسنانها بالاصطكاك وقشعريرة باردة لفَّت بدنها، أصوات غريبة وعجيبة تزداد في الارتفاع، وكأنها أصوات الموتى من عالم آخر، يلقون لعنات على الأحياء الذين يدنسون أسرارهم.

درجة أخرى ثم أخرى، لقد فقدتْ تركيزها، هل تجاوزا المائة بعد؟!

الممر ضيق بالكاد يتسع، السلالم الطويلة المربوطة بحبال قوية أوصلت السلالم الخشبية المتعددة، فواحد أو اثنان مهما بلغ طوله لن يصل إلى القعر.

قالت: «يا إلهي! لم أتخيل قط أن يكون هذا العمق تحته! وكأنه عالم آخر وأرض أخرى تحت الأرض التي نعرفها!».

رد بهدوء: «كلما ازددتِ فضولًا في البحث داخل «كيميت» ستدهشكِ، إنها جنة الله، كل بقعة في هذا البلد تحوي سرًّا».

ذبذبة احتلت صوتها بالرهبة وهي تقول: «أصدقك القول، حاليًّا أريد الفرار لا الاستكشاف».

صوت ارتطام عنيف جعلها تهتز وتفقد توازنها، شعرت بيدَي محب تسندانها سريعًا من ذراعيها.

صاحت بجنون أهوج: «أبعد يديك حالًا».

رفع يديه في بادرة سلام وهادنها بحذر وهو يقول: «اهدئي، أردتُ حمايتكِ، على كلٍّ وصلنا إن لم تلاحظي».

زفرت أنفاسها عدة مرات وأدارت عينيها، فلاحظتْ ممرًّا طويلًا بلا نهاية، جدرانه ضيقة بالكاد يكفي لوقوف شخص واحد، ظلال دامسة وخيالات مجنونة وكأنها أشباح أسطورية، أرواح الأموات كما فكرتْ وأكدتْ لنفسها وهي تسمع الهمهمات المخيفة، وشعرت بارتعاش شديد.

قال لها: «الفضول قتل القطط».

قهقهته ممتزجة مع الهمهمات نفسها، زادت المكان غموضًا وفزعًا.

أقرت بندم: «لا نتعلم من حِكم الأجداد، القطة سارت إلى الفخ بكل غباء».

ضحك وقال: «حقًّا أنتِ ممتعة».

صاحت فارتد صوتها بجزع أشد: «لا أسمح لك».

عنَّفها: «اخفضي صوتكِ واحترمي خشوع المكان حتى لا تغضبيهم وتلاحقكِ لعنتهم».

- ما الذي ورطتَني فيه معك؟

هز كتفيه دون أن يلتفت إليها وقال: «ما أشد غباء الناس وولعهم حين يتحكم بهم الفضول!».

قالت بجدية دون التخلي عن تلفتها حولها: «سيد محب، لا أقصد الإهانة ولكنك إنسان مستفز للأعصاب لأقصى درجة».

حك رأسه مقرًّا وقال: «كل ما يتبع جملة بلا إهانة هو مغزى الإهانة في حد ذاته».

تجمدت مكانها ملتهية فيما تراه وأصبح تنفسها مستحيلًا، كما كلَّ جسدها الذي ينتفض، فمن بين الظلال كانت عينان زرقاوان بلون غريب كالجواهر تبرقان تحدقان إليهما!

وكأنه انتبه عندما استدار يطمئنها: «لا تخافي؛ إنه حارس المقبرة».

فتحت فمها على متسعه للصراخ، ولكن صوتها فُقِدَ تمامًا. ما هذا البرود؟! هل هو جنِّي يُخبرها عنه بكل أريحية؟

زفر بغيظ وأكمل: «مجرد تمثال يا بهية على هيئة أسد باللون الأسود، لذا لا يظهر منه إلا عيناه».

اصطكاك أسنانها مريع ولكنها وجدت صوتًا من نوع ما: «أسد؟!».

وضَّح حديثه: «نظنه «روتي» إله الحماية عند القدماء».

- نعم، نعم روتي.

التفت والتسلي يزداد بداخله على حسابها وغمز وقال: «أنتِ لم تمرِّي بشيء شبيه من قبل؟».

هزت رأسها بالنفي. أراد محاورتها ليسحب منها رهبة المكان ولحمايتها من الخوف، رغم هبوطه إلى هنا مئات المرات لكنه شخصيًّا ينبض بالذعر.

أمرها بعملية: «اتبعيني».

وهل بقي لديها اختيار كي لا تفعل؟

تلمست في طريقها الجدران بيديها، هناك كتابات، وبتسليط الضوء على بعضها علمت بغموض لغة الكتابة، لم تتعرف عليها قبلًا رغم دراستها لكل اللغات القديمة، الظلال تزداد، وكلما تقدما كثرت الأصوات المموهة، لم تسأل عن مصدرها وهو لم يتبرع ويفسِّر.

أخيرًا لاحت في الأفق بوابة عجيبة وكأنها لمغارة صامدة، ذكَّرتها بأسطورة منقوشة على إحدى مغارات الجبل المؤصدة، بابها لم يكن مشيدًا قط، بل كأنه نُحِت في قلب الجبل، بالنظرة الأولية ودون حاجة إلى الفحص أيقنت أنه من حجر قاع أبي الهول نفسه.

نقوش تضوي حول إطاره بتمثالين لأسدين، ولكنهما لا يشبهان وجه أبي الهول رغم أن الجسد وطريقة الجلوس متطابقة.

توقف محب أمام الباب بإجلال فخور وقال: «هنا السر، هنا يكمن الربط بين الموقعين».

رفعت حاجبيها بتعجب وقالت: «ما الذي تقوله؟! ليس هناك شبه واحد بين هنا وهناك».

تلمَّس محب النقوش للكتابات الغريبة كعازف ناي ماهر وقع في غرام نغماته.

قال: «حسنًا، سأخبركِ من البداية، عندما قررنا البحث والتقصي واستطعنا فتح الباب المخفي الذي هبطنا منه، وقفنا أيامًا وشهورًا وسنوات في حيرة من أمرنا، حتى كُشف لنا موقع آخر، وباستخدام تكنولوجيا متقدمة أجزمنا بأن في نهاية هذا الممر يقع الموقع الذي ننقب فيه حاليًّا، ولكنه أعلى بقليل من الأرض، عكس كل الآثار التي نجدها في الأعلى وتقود إلى الأهرامات».

فكرت للحظة قبل أن تستدرك: «تقصد أن من أقام ذلك الموقع قصد أن يكون امتدادًا لأبي الهول؟».

رد بحيرة صادقة: «أو قصد قيادتنا إلى شيء ما خُفي أسره طويلًا، وكأنه قصد الإفصاح عن أعمق الأسرار باستشهادات ملموسة».

- وما علاقة هذين الموقعين بموقع جزيرة فيلة؟!

صمت للحظة وملامحه تكفهر بغضب، ثم قال: «عندما انحصرت مياه النيل عن جزيرة فيلة الأصلية، وليس «إجليليكا» التي نُقل إليها المعبد الأصلي، كشفت الجزيرة عن أعمق أسرارها المدفونة داخلها، والتي كانت صدمة للكثيرين كما تعرفين».

- نعم.

- أخبرتكِ عن تمثالَي المرأة المجهولة المتطابقين، وأن المسح الجيولوجي أثبت أنهما شُيِّدا في الفترة الزمنية نفسها!

بدأ الهدوء النسبي يحتلها وقد غلبها الشغف للمعرفة، فقالت: «هذا عن الموقعين، إذن ما الذي يربطهما هنا؟».

أشار محب إلى البوابة موضحًا: ««غرفة الماميسي» الموجودة في معبد فيلة الأصلي».

وافقته بإيماءة من رأسها فأكمل وهو يتلمس نقشًا معينًا، يتتبع حروفه المتراصة بشكل عمودي وكأنه يقرؤه بتركيز وخشوع.

قال: «هذه البوابة تتماثل مع جدارين مخفيَّين داخل غرفة الماميسي، وكأنهم بطريقة سحرية ممرات من نوع ما موصولة ببعضها بعضًا».

امتعضت قائلة: «الآن أنت تهلوس وتضرب المنطق في مقتل».

لم يهتم لاعتراضها، وأغلق عينيه يتلمس الأحرف بمهابة رهيبة مؤكدًا: «الساحرة العظيمة قاهرة الكره والشر ناصرة الحب والخير، اسمها نُقش بالترتيب نفسه باللغة نفسها، والخطوط هنا وهناك».

سألت بفضول: «وما الذي يوجد خلفها؟».

- لم نعرف، فشلت كل الطرق في فتح البوابة.

همست بنوع من الرهبة: «إيزيس! السر فيها إذن، لطالما احتوت سيرتها ومسيرتها الأسرار حدَّ أننا نجهل إن كانت واقعًا أم نسجًا من الخيال والأساطير».

ابتسم محب بشكل يثير المشاعر، ابتسامة لم ترَ في جلالها وعظمتها قط، راقبت أصابعه تتابع بالترتيب نفسه للنقوش، وفمه أخيرًا يهمس بحروف يجهلان سر تعويذتها، مما دفعها دون تفكير إلى أن تتلمس بعض النقوش مثله.

قالت: «إيزيس سيدة السحر، إن كنتِ واقعًا ساعدي أحفادكِ من أبناء كيميت لدحر كل أساطير الرعاع المتنطعين».

شعاع أزرق سارق وآخر ذهبي قاتل شعًّا فجأة من الأحرف المرصوصة، أصوات موسيقى جنائزية كارثية وأخرى لصرير أحجار تتزحزح من مكانها، وطائر عقاب غادرَ صدر بهية واختفى، ثم فتحت بوابة الجحيم لا الحلم...

لم يدرك أحدهما ما يحدث، وحلقة تبتلعهما وتدور بهما، صرخات بهية تعالت دون رادع ولا قدرة على تهدئتها، فقط ما استطاع محب أن يفعله وسط ذهوله وتشتته أن يمسك يدها بقوة في أثناء رحلتهما حتى لا يفقدها.

مؤكد هذا كابوس سيتيقظ منه، ربما هو عاشق للتاريخ ونابش للحكايات قبل القبور، ولكنه لم يؤمن بالأساطير قط، وبالتأكيد البوابة العجيبة المظلمة التي لاحت في الأفق وألقتهما داخل مكان غريب لم تكن حلمًا.

صوت مرعب في شرِّه وتهديده الذي خيَّم فوق رأسيهما، لم يكن خيالًا مفزعًا.

قال: «من يزعج ساحرة الشمس لن يرى نورها».

***

الوهج الثاني

نحن هنا لأنهم كانوا هناك...

مشتَّت الذهن استطاع ربط اللغة باللغات السامية، والمرجَّح تحدُّث المصريين القدماء بها قبل تطورها، ومرورها بالعديد من التغيرات، لغة يألف قراءتها بتفوُّق ولكنه مؤكد لم يسمعها قط، نبرة الشر في صوت الكيان المعتم ربطها بتهديد شديد، ربما وعيد بلعنة ستُلقى فوق رأسه وبهية، زاره الندم لتوريطها معه.

جالت عيناه على الكيان مبتلعًا الخوف الذي يرتع بداخله، ليرى جسدًا فارعًا وطويلًا طولًا زائدًا عن الحد بمقاييس عالمه، على هيئة إنسان وإن كان يطفو عن الأرض وكأنه يطير.

أنثى!

كسا جسدها رداء ملكي طويل باللون الأحمر، تعلَّق بكتفيها العاريتين بحمَّالتين رفيعتين، زُيِّن صدره بخيط من الكتان الأبيض ونُقش بكتابات لم تعرفها من قبل، تضع غطاء للرأس يشبه الشعر المستعار شديد الإتقان، يعلوه تاج على هيئة قرنَي بقرة، ويتوسطهما قرص الشمس، تحمل بين يديها مفتاحًا وصولجانًا على هيئة زهرة اللوتس.

فغر فاه على متسعه ولكنه لم يكف عن تأمل المرأة، الكيان ما هو إلا امرأة، أنف منتصب بشموخ مع ملامح بفتنة الجمال المصري، عينان واسعتان مرعِبتان بغضبهما زُينتا بالكحل الثقيل.

تفوَّه والحيرة تغمره بإقرار أكثر منه تساؤلًا: «إيزيس؟!».

وتساءل أشد ربض داخله: (هل سقطا في موقع تصوير لفيلم يصوِّر أساطير القدماء؟ ولكن كيف؟!).

صرخت بهية أخيرًا وقد وجدت صوتها؛ يبدو أنها أيضًا تفحصت ما رآه.

قالت: «أين نحن؟ من هؤلاء وكيف وصلنا إلى هنا؟!».

التقطت عيناها وجود آسينيت المكوَّمة في الطرف الآخر من الغرفة، ترقد دون حراك ونظرة رعب تعلو وجهها المصدوم تتفحصهم بذهول.

من الجيد أنهما ليسا فقط الجهَلة في هذا المشهد، أليس كذلك؟ أم يُفترض أن يزيد الهلع داخلها؟!

هدر صوت إيزيس وصداه يتردد: «من تجرأ واستدعاني ولأي سبب؟!».

هتفت بهية بصوت تضخم من فرط الذعر: «استدعيتَها؟! منك لله، أرى فيك أسبوعًا أسود من أوله. ما الذي ورطتَني فيه؟».

التفت إليها محب محركًا كفيه إلى أعلى وأسفل منكرًا: «استدعيتُ من؟ اخرسي، ستسلمينني تسليم أهالٍ».

ضيقت إيزيس عينيها وطارت نحوهما بسرعة الضوء متأملة، فتراجع محب خطوات مداريًا بهية بجسده حاميًا، محدقًا إلى وجهها بلا تردد.

قالت الساحرة: «لستما من هذا الزمن».

ازدرد ريقه قبل أن يحاول جاهدًا الرد باللغة نفسها يجمعها على لسانه بمرح ساخر: «من الواضح أننا تطفلنا على موقع تصوير، أي فيلم هذا؟ لم يبلغني أحد به!».

بعض الفضول طاف بملامح الساحرة لجهلها بتلك الكلمات العجيبة.

استدارت وقالت: «أجدب، مهرطِق».

نهرته بهية متمسكة بذراعه بكل قوتها: «اصمت حبًّا بالله ولا تشعل غضبها المشتعل أصلًا».

توقفت إيزيس على بعد خطوات من آسينيت التي اعتدلت بسرعة وكأنها أخيرًا استوعبت الموقف، كانت أكثرهم إيمانًا بظهور إيزيس ونجدتها.

قالت آسينيت: «الساحرة العظيمة! المُحبة المخلصة، الأم المبجلة، سمعتِ ندائي».

عيناها السوداوان الواسعتان حدقتا إلى آسينيت تُقيِّم مظهرها الذي لم يختلف كثيرًا عن مظهر الفتيات في زمانها، وإن كان قد تطور الملبس وأدوات الزينة وحتى الحُلِي التي نجحت في تجميل الفتاة، حتى اللغة المنطوقة لم تتغير بشكل ملحوظ مثل الدَّخِيلين الآخرين.

إذن تعويذتها لم تفسد، وسر بواباتها الزمنية لم يُهتك، حينما سحرت البوابات وضعت لها شروطًا: يجب أن تُفتَح وتُستدعى من زمنين مختلفين ولسبب موحد، محض خطر واحد يتطلب حمايتها للجوهرة المقدسة.

همهمت بصوت أجش رغم نعومته ونبرة تفيض بالاتزان تجبرك على الإجلال والاحترام للملكة الأم: «إذن أنتِ من بدأتِ طقوس الاستدعاء، لهذا نحن في أرضكِ؟».

زحفت آسينيت على ركبتيها نحوها وقالت: «اليأس يجبرنا على النفخ في النار وإن قتلنا أنفسنا في سبيل النجاة».

مال جانب فم إيزيس بابتسامة شر خالصة وقالت: «ترين لجوءك إليَّ موتًا حتميًّا؟ ورغم هذا تجرأتِ واستدعيتِني!».

فردَت آسينيت كفيها أمامها بخشوع وقالت: «ما كنتُ لأراكِ نارًا، أنتِ الأم المبجلة هازمة الموت».

تلون وجه إيزيس بغتة وبدا أنها في معجزة تتألم، متلقية طعنة أوجعتها، نالت تلك الفتاة المستضعفة منها، هذا ما ظهر لعينَي محب المترصدتين.

أكملت آسينيت بنبرة هزها القهر: «أحببتُ فنُفيت ولُعِن الحبيب بالموت إن اقترب».

تساءل محب بنبرة خشنة مستنكرة: «وهل الحب جريمة؟!».

تشنج وجه آسينيت بالألم، رغم جهلها بمن هما وفزعها لظهورهما ومهاجمة إيزيس لهما، يبدو أنهما وقعا في فخ لعبة النار والأشواك.

أجابته: «في القواعد الملكية إنه كذلك، إني أحببت جنديًّا شجاعًا وقائدًا مقدامًا لا يهاب الموت، وجهه كطلعة البدر عم الوجود بنوره، ولكنه ارتكب الإثم الأعظم عندما تطلع إلى حب لِرَيِّ الوردة المحاطة بالأشواك وهو أقل منها مكانة».

هدرت إيزيس متسائلة بنبرة مستأسدة لم يفهما فحواها: «ابنة ملك أم شقيقة؟».

أجابت بكبرياء لم تبالغ فيها، بل بدت أنها جزء لا ينفصل عنها مهما كان وضعها البائس: «أنا آسينيت ابنة أوسركان ملك كيميت ساكن أون (مدينة الشمس)، حامي الكهف المقدس بر-حابي- رب-حعب-محيت».

ومض بريق أزرق بلون مياه الفيضان الصافي في عينَي إيزيس أرعبهم قبل أن تعود حدقتاها إلى السواد التام.

وسألت: «ما سبب استدعائي؟».

رفع محب يديه بعجز مُصِرًّا على حماية بهية المشتَّتة وراء جسده، وتمتم باستسلام: «إن كان عبث الحلم حقيقيًّا فلا بأس من مجاراته».

زمجرت إيزيس: «حلم؟!».

تغاضى عن الإجابة وأكمل: «وجدنا أثرًا مذهلًا مخبأً في قاعة أسفل مخلب «روتي»، ولكننا لم نستطع فتحه وقد حاولنا بكل الطرق حتى المستحيلة منها، واليوم قصدته مع بهية بزيارة عادية و...».

تردد في قول ما حدث عند نطقه بالكلمات: «أعني وجدنا نفسينا هنا....».

هدرت إيزيس: «هذا مستحيل، البوابة لن تُفتح إلا بكلمات استدعائي».

نكزته بهية وقالت: «قل الحقيقة وأزعج الناس بدلًا من الكذب لإرضائهم. لقد نطق بترنيمة قبل إضاءة البوابة وألقتنا هنا».

حبس محب أنفاسه والتفت إلى بهية غير مصدِّق اعترافها دون أن تُضْرَب قلمًا واحدًا!

همس بحنق: «سمجة وتقبلتُها، معدومة روح المرح وابتلعتُها، ولكنكِ نذلة أيضًا، تسلمينني إلى المرأة التي تهدِّد بقتلي؟!».

تحاشت النظر إليه وفسَّرت بجدية: «إذا كان الجنون واقعًا يجب أن نكون دقيقين حتى يتسنى لنا النجاة».

جزَّ على أسنانه بغيظ وقال: «إن نجونا من هنا أعدكِ ألا تفلتي من عقابي».

عينا إيزيس تترصدهما بغموض خطير ولكن دون تفسير، الاثنان يجيدان التحاور بلغتهما وتخليا عن لغتهما التي تحدثا بها في بادئ الأمر، وإن استطاعت طبعًا أن تتبين أن لغتهما الأم متشابهة مع لسانها.

التفتت إيزيس إلى آسينيت الخاشعة تحت قدميها وسألت بنبرة منخفضة: «أرجو أن يكون عندكِ سبب أقوى من سببهما حتى تسلموا من غضبي».

ارتعشت شفتا آسينيت وحبت خطوة أخرى نحوها، والرجاء ينضح بمرارة من صوتها.

إذ قالت: «أنتِ ساحرة الحب، أمُّ كل قصص العشاق، مشينا على نهجكِ، تضحيتكِ أينعت القلوب القاحلة، قصتكِ ملهِمة لكل قصص العشاق».

قست ملامح إيزيس والغموض ما زال يلف كنفها، نهرتها: «لا أفضِّل المرأة الخانعة السلبية، ألقي مطلبكِ بشجاعة، أنا لم أخلف إرثًا من الحفيدات الضعيفات، المرأة الضعيفة المستسلمة للموج لا تجري بها دماء كيميت».

اهتزت ملامح آسينيت من الاتهام وإقرار إيزيس، هل يمكن أن تكون حفيدتها بالفعل؟! ووقع الكلام على بهية عليًلا، وجملة إيزيس الأثيرة تخلق في النفس زوبعة، لطالما آمنتْ بنقاء جيناتها وانتماء دمائها إلى ماء النهر، مؤكد هي حفيدة العظماء الذين أدهشوا العالم، ولكن جملة إيزيس الواثقة بملَكية هزت إيمانها!

– لا يمكن أن تخلِف حفيدة سلبية خانعة ولو فرَّق بينهما مليون سنة.

سمعتْ آسينيت ترد بقوة وقد دب فيها الإباء: «أريدكِ أن تساعديني ومعشوقي، انصري قصة عشقنا لنخلدها كما خلَّدتِ تضحيتكِ، لنكون منارة يتعلم منها الناس معنى الوفاء والإنسانية، حرريه من لعنة الموت، أبعدي سوبيك وجنده عنه».

الظلمة تزداد بشكل فتاك على ملامح إيزيس، كفاها تقبضان على الصولجان ومفتاح الحياة حين همست: «تريدين ما يستحيل أخذه».

هدر محب بيقين وكله يتورط مع نبرة آسينيت الحزينة، إخلاصها لذاك العشق الذي تفضحه كل خلجة منها حد القفز على المنطق.

قال: «لا مستحيل في الحب».

صُعِقت بهية وهي تحملق إلى محب وكأنه كائن عجيب لا تعرفه، ولكنها حقًّا ماذا تعلم عن الرجل؟ لا شيء، هل يُعقل أن لديه حبيبة ليتفوه بهذا اليقين وكأنه على استعداد لتقديم حياته مخلِصًا لعشقها؟! ما تعرفه أنه ليس متزوجًا، فقد صرَّح مرة أنه تزوج التاريخ، ووهب نفسه للتنقيب عن الغموض الذي يلف حكايا الأجداد.

قلَّبت إيزيس نظرات مقيمة مبهمة نحو محب وبهية، ثم عادت إلى آسينيت تطفو نحوها بسرعة غريبة.

رفعت ذقنها إلى الأعلى وهمست بابتسامة حسرة: «طفلتي الجاهلة اليائسة، لا تعرفين شيئًا!».

لهث صدر آسينيت من شدة المشاعر، ولكنها لم تجرؤ على رفع كفها ولمس إيزيس كما تتمنى بكل أحاسيسها.

توسلت إليها: «أرجوكِ لا تتخلي عنا».

تركتها إيزيس مبتعدة وانغلقت مشاعرها على السخط مُعلنة: «أسبابكم ضعيفة، محض تُرهات، لعبة خطرة ستنقلب عليكم».

زحفت آسينيت بسرعة نحوها وسجدت تشبك أصابعها ببعضها بعضًا بتوسل بائس وقالت: «الرحمة والعطف، أغيثي قلبين أهلكهما الحب».

امتعضت بهية من الذل الذي تُبديه آسينيت، ومن أجل ماذا؟ رجل؟ لهذا لن تتخلى عن روحها وكبريائها أبدًا لأجل رجل. بينما محب يراقب بهدوء تام هذا العرض.

التفتت إليها إيزيس من جديد وأخذت وقتًا تتأملها قبل أن تقترب وتمسك كفيها وتجذب نظرات آسينيت المتوسلة إلى الأعلى، ثم قالت: «الحب تضحية يا طفلتي، نحن نتألم بالحب أكثر من وجعنا دونه».

هبطت دمعتان ملكيَّتان على وجه آسينيت، تمتمت والعشم لم يغادرها: «ساعديه ليتخلص من السحر الذي ألقاه عليه عوَنة أبي الملك، إن مات لأجلي سأقتل نفسي وراءه».

تنهدت إيزيس وأقرت بغموض: «لن تفعلي، حتى الموت يُعد راحة للأشقياء، راحة لن تتجرئي على منحها لنفسكِ».

– أرجوكِ.

عادت تلك الابتسامة الشرسة تسكن عينيها مساوِمة: «الحب تضحية كما حذرتكِ، إن ساعدتُه يجب تقديم الثمن، هل أنتِ مستعدة لدفعه؟».

لم تفكر آسينيت مندفعة: «فعل الكثير لأجلي وحان دوري لأفعل أي شيء لأجله».

صاح محب معترضًا بخشونة: «هذا الجنون يجب أن ينتهي، الفتاة غافلة جاهلة كما تفضلتِ وقلتِ يا أيًّا من كانت ماهيتك».

وسكت غير مبالٍ بضرب بهية لظهره مرتعبة عندما انقلبت ملامح إيزيس إلى شر معتم.

وضع محب رداء الغلظة مقتربًا من آسينيت وأقر: «ليس هناك رجل عاقل يقدِّم روحه فداءً لنجدة امرأة عشَّمها بحبه، تعقلي، هذا المحبوب الغامض أراهنكِ أنه نسيَ حتى حروف اسمكِ وربما الآن يمرح مع عشر نساء لا واحدة».

شهقت بهية بصوت مسموع، صدمتُها في محب نسفت الأمل الضئيل الذي زارها في السابق عندما ناصر الفتاة بفعل المستحيل في الحب، الآن أقر بعقيدتها الكافرة برجل الأحلام!

أكمل بجمود: «اعترفتِ أنه مجرد جندي وأنت ابنة ملك، أي إنه متسلق لعين رآكِ مجرد خيار سيوصله إلى سلطة ومنصب، ليست قناعتكِ بتضحيته».

سخر أمام صدمتهن مشيرًا بفخر إلى نفسه: «أنا رجل وأخبركِ أنه لا يوجد رجل سيضحي بروحه من أجل الحب، أنتن النساء عاطفيات زيادة عن الحد».

اعتدلت آسينيت ببطء مهيب حتى غطى طولها طول محب رغم أنه يُعَد بمقياس الرجال ضخم الجثة.

انحنت بشرر ذَكره بوجه إيزيس وهدرت: «أنا لستُ اختيارًا، أنا فرصة».

لم يتراجع، وقال: «بالضبط، وهذا يثبت وجهة نظري لا ينفيها».

رفعت إيزيس حاجبًا واحدًا مرعبًا ناطقة بنبرة رخيمة: «كافر بالحكم والمعاني، يائس، تائه بالإخلاص».

- ربما، ولكني عاقل مؤمن بالواقع.

توسع الشرر المبهم على وجه إيزيس وقالت: «ما اسم معشوقكِ؟».

هدر قلب آسينيت، الكائن المتشرد والدخيل له فائدة! في النهاية استفز إيزيس حدَّ أنها قررت تعليمه درسًا ومساعدتها.

قالت آسينيت: «أوناس بن إيريس القائد البطل فارس كيميت».

أسبلت إيزيس عينيها الواسعتين لبرهة ورفعت يديها بدوائر، تعالت حبات رمال نحوها تدور وتدور كعاصفة صغيرة سيطرت عليها، متمتمة بتعويذة حتى آسينيت لم تفهمها.

قالت إيزيس: «هل ترين محبوبك؟».

اقتربت آسينيت تنظر إلى الصورة التي ظهرت لأوناس التائه بجنبات مقبرة مقدسة.

تمتمت بأسى: «وجه القمر، منير الوجود، محيا شمسي».

- تُريدين أن آتي به وأحله من لعنة العجوز الحامي المتربص منذ بداية الزمان؟

فهمت من تقصد وهزت رأسها موافقة.

محت إيزيس تجلِّيه بحدة قبل أن ترفع يدها إلى الأعلى وتضرب الصولجان مسبِّبة زلزالًا تحت أقدامهم.

وهدرت بترانيم مخيفة تعلو وكأن هناك موسيقى تلبست صوتها وأشارت إلى محب: «رخ-صهد-واح-أنسان-ماهور-بح-محب».

توسعت عينا محب متراجعًا عن تحديه بندم ولوعة، وقال: «صهد وبح! هل تنوين التضحية بي لجهنم؟».

اقتربت أكثر والغبار يلفها، ونبراتها تعلو باهتزازات مخيفة مكررة: «رخ-صهد-واح-أنسان-ماهور-بح-محب، سنج إيست-حنوت...».

- لاااااااااا.

صرخ ثلاثتهم ولكن... في لحظة ظهر ضوء أزرق ذهبي يشتعل امتد من العنخ، ومع صرخة بهية المختلطة باعتراض آسينيت اختفى وكأنه تبخر في العدم.

لقد أثار اهتمامها واستفزها بالفعل، ولكن بالطريقة الخاطئة تمامًا.

عقب ما حدث تعالت أنفاس آسينيت وبهية بلهاث، وجه آسينيت ينتفض بغضب واجم وإن كان هناك بعض الأمل.

قالت آسينيت: «لماذا فعلتِ هذا؟ لقد وعدتِ بمساعدتي ووافقتُ على المقابل».

ردت إيزيس: «طفلتي الجاهلة، لم أعدكِ بشيء، الثمن أقصى مما تتحملين».

بينما بهية شاحبة تمامًا وأخذت تضرب وجهها بصفعات متتالية متمتمة كمن يوقظ نفسه من غفلة النوم: «هذا كابوس! أفيقي، مؤكد غفوتِ بجانب النار بعد مكالمة والدتكِ، لم يأتِ إليكِ محب ولم تتبعيه لاهثة وراء فضولكِ، محب اختفى إذًا! هذا كابوس، أفيقي يا بهية قبل أن تصنع منكِ أمكِ مقطفًا بلا أذنين».

هندمت إيزيس ملابسها بوهمية وردت بكل أنفة متنازلة لمخاطبة كائن أقل منها منزلة: «هذا ليس كابوسًا، أكُل ما حدث لم يوقظكِ بعد من الوهم؟!».

توسعت عيناها كمخبولة مشتتة الذهن، مما جلب إلى قلب آسينيت التعاطف لتخبطها، هرعت بهية نحو كيان إيزيس الطافي ولم تتنازل لتلمس الأرض بقدميها بعد.

أمسكت ثوبها متعلقة متوسلة بارتجاف: «إن كان واقعًا أعيديني إلى حيث كنتُ».

قلبت إيزيس شفتها السفلى تنظر إليها كمن يرى حشرة مستنكرة جرأتها للمسها، وشهقت آسينيت بقوة للسبب نفسه!

وازداد هلع بهية متمسكة بخصر إيزيس تجذبها من ثوبها مهرتلة بعدم ترابط: «الوقت يمر وستتصل أمي في الوقت المعتاد والهاتف لا يوجد به شبكة خلوية هنا، أمي ستخرب بيتي، أمي تفوقك شرًّا...».

- سُكِّي فمك.

هدرت إيزيس تبعدها عنها وإن كانت لم تفهم معنى الهاتف ولا الشبكة، فأرجأتها إلى كلمات الهرطقة التي تفوَّها بها قبلًا.

توحدت جبهة آسينيت وإيزيس حين وجَّها سؤالهما إلى بهية باستنكار: «تريدين العودة غير عابئة بمصير معشوقكِ؟!».

شهقت بهية بازدراء من الاتهام الغاشم وقالت: «أنا ليس لديَّ عشاق، خَرُسَ من اتهمني بهذا العار».

- عار!

الحيرة غطت وجهيهما، وسألت آسينيت بتعجب: «ظهرتما معًا، كان يحميكِ مقدِّمًا نفسه عنك إلى الخطر. كيف تتخلين عنه وتتنكرين له؟».

انهمر دمع بهية على وجهها، وقالت شاهقة بضيق: «هذا المحب ليس حبيبي ولا أعرفه، أنا عانس».

اسمه محب إذًا! عبست إيزيس بحيرة: «عانس؟! ألهذا تفسير؟».

كشرت ملامح بهية وقالت: «عانس لفظ يعني أني بائسة تركها قطار الزواج، في الواقع كل القطارات تركتُها على رصيف الانتظار، لا حلم تحقق، لا إنجاز تم، ولا زوج جلبته لتفرح أمها».

رفعت إيزيس يديها بغضب مستنكرة، وبمهابة هبطت لتلامس قدماها الأرض، من الواضح أن صدمتها في نساء زمن بهية أرضختها.

فردت على بهية: «ماذا تقولين؟! أطلقتِ على نفسكِ لقب بائس بسبب رجل! أين أنت وكبرياؤكِ؟».

هزت كتفيها بعجز وقالت: «لم أطلِقه، هذه قواعد مجتمعنا».

أحنت إيزيس وجهها إلى الأسفل وارتفع حاجباها بسخط وقالت: «هذا ليس الإرث الذي تركتُه، كيف وصلت النساء إلى هذه المهانة؟!».

لوت بهية فمها بصمت مكفكفة دموعها بتفكير صامت: (أتُعد إهانة؟! ماذا لو عرفت عن وضع المرأة المهين الذي وصلنا إليه اليوم؟ مؤكد إن وصل إليها ستحرقهن أحياءً اعتراضًا على خيبتها بحفيداتها).

تمتمت بإحباط: «تقلبات الزمن».

قست ملامح إيزيس ونهرتها آسينيت بخيبة: «لا ترمي على الزمن عيوب البشر، الخطأ في ساكني زمانكِ».

نظرت بهية حولها بنفاد صبر وتركت أفكارها تنساب على لسانها دون كابح: «العجب من استيائكِ، فبالنسبة إلى وضعكِ المزري أنا أفضل منكِ حالًا، على الأقل لستُ منفية وملعونة».

شهقت آسينيت بقوة من قسوتها المتهكِّمة، وازدادت ابتسامة خطرة على وجه إيزيس الفاتن، إنها جميلة بشكل لم ترهُ بهية من قبل، ذات بهاء سحري وكأنها أخذت جمال العالم كله ولم تُبقِ إلا بقايا زهيدة لتتقاسمها بعدها النساء، لا عجب أنهن تناقلنها كأسطورة!

عضت بهية طرف شفتيها ببعض الندم وقالت: «آسفة، أحيانًا لا أتحكم في أفكاري».

برحمة ملَكية أومأت آسينيت تتقبل الاعتذار وعادت بهية لتطلب متوسلة: «ستعيدينني؟ أرجوكِ الرحمة بي، فأنا من محبيك يا إيزيس».

كررت إيزيس بنبرة متجبرة: «تطلبين ما يُستحال منحه، ليس الآن على الأقل، لقد ورطتِ نفسكِ ولن يُسمح لأحدكم بالعودة إلا عندما أعرف سبب استدعائي، وكيف كسرتم تعاويذ بوابتي».

صاحت بهية بيأس: «ولكننا أخبرناكِ بالأسباب، أنا هنا بالخطأ، محب والأميرة من استدعياكِ».

قالت إيزيس بنبرة شابهت هدير الشلالات غلَّفها الغموض كالعادة: «ليس كافيًا، استُدعيت لسبب أشد فتكًا ولن أبرح قبل اكتشافه يا با-هية».

صححت لها: «بهية، اسمي بهية».

مال فمها في شبه ابتسامة ناعمة وقالت: «نعم، با-هية، أعرف».

وضعت بهية يديها فوق رأسها وأخذت تخبطهما بتتابع تندب حظها: «لقد ضعت، أزعجتهم يا أبي، يا حسرتي! بدل أن أحقق اكتشافًا تتفاخر به حصلتُ على لعنتهم».

تحركت إيزيس أخيرًا نحو البوابة المخفية التي أُغلقت عند فتح المعابر، وبإشارة واحدة أصدرت صريرًا واختفت تمامًا تفتح الباب أمامهم، البوابة كان غرضها حجب كل ما يدور داخل غرفة الماميسي عن خارجها، لذا لم يسمع أحدهم هتاف آسري-نارتي القلِق على آسينيت.

للحظة استعدت آسري للهجوم على آسينيت ولكنها تجمدت تمامًا عندما لمحت بهية بمظهرها الغريب مع بنطالها الجينز الباهت وقميصها المموه وذلك الرداء فوق رأسها، ودارت التساؤلات داخل عقلها من هي وكيف وصلت إلى هنا!

قالت إيزيس: «آسري نارتي، حارسة جوهرة العقد».

الصوت العميق المهيب لف الهواء من حول آسري وقهقرها إلى الوراء رهبة.

تمتمت آسينيت بإدراك: «لا تراكِ».

أجابت إيزيس بتلاعب: «أظهر لمن أقرر».

لم تنتظر طلبها، بل الإجابة وصلت إليهن عندما خرت آسري ساجدة برهبة وقالت: «نثرو-نبت-سنج-إن-إيست-سنج-سنج إيسيت».

أشارت إيزيس بالسبابة والوسطى تزيح آسري نارتي من طريقها، وأخذت طريقها في أرجاء المعبد كارهة لما تراه.

ابتلعت آسري ريقًا جافًّا ترفع رأسها بحذر، وفور أن اطمأنت لرحيل إيزيس، حدقت إلى وجه آسينيت وقد أدركت الوضع المهيب دون تفسيرات، كانت تعرف إمكانية حدوثه، أليست أحد المؤمنين؟

سألت بظلمة: «ماذا فعلتِ؟!».

راقبت بهية وجه آسينيت الذي غادره الضعف والرجاء وطفت مشاعر متعددة أبرزها التحدي والقوة.

سخرت: «نفذتُ ما أردتُه تمامًا، وجدتُ الحل لمنحي حياة».

ومع إجابتها وما شاهدتْه أدركت آسري نارتي خسارتها، هل خسرت حقًّا بظهور من لا يمكن إيقافها؟

هزت رأسها يمينًا ويسارًا بحنق وقالت: «أيتها الطفلة الجاهلة، أنتِ لا تدركين أي اللعنات جلبتِ!».

ازداد نعي بهية وندبها تفكر أنه إذا كانت المرأة ارتعبت فماذا ينتظرها!

بدأت بالنواح: «إنها اللعنة يا أبي، من الواضح أني أزعجتهم زيادة عن الحد، فأنا لم تصبني لعنة القدماء، بل وصلتُ إلى صانعة اللعنة نفسها».

لا أفكار تنجو وسط الفوضى، العاجزون اليائسون يصدِّقون الأكاذيب الكبيرة متوهِّمين أنها الأمل!

***

أنفاسه هائجة، ووحش يفتك بداخله نتيجة لتجربة يمر بها ولا يتحكم في خيوطها، القلق يتضخم وشعور قاتل بالذنب نحو بهية، إن لم يتلاعب بنقطة ضعفها ما كانت الآن تعاني في مكان مجهول في تجربة تزلزل كل ثوابتهما.

وازن جسده الذي سقط عقب رحلته بسرعة الضوء، وجلس يسند مرفقيه فوق ركبتيه، أدار رأسه متأملًا المكان بانبهار، وادٍ مملوء بالأشجار والخضرة متراصة بتناغم وتناسق شديد، وكأن هناك مجموعة من أمهر مهندسي الزراعة يعتنون به، تشقه قنوات مائية صافية تمامًا لم يتجرأ بشر أو حيوان على تلويثها.

بدا محب تائهًا قليلًا حين تجول في الأرجاء لفترة وجيزة، تسمر مدهوشًا أمام البناء الهرمي الضخم المغطى بحجر الجير، يعلوه شكل هندسي من الذهب الخالص.

هتف مذهولًا: «خوفو!».

هل عاد إلى مكانه الأول؟! مؤكد لا، فهرم خوفو يقف عملاقًا مهيبًا وحيدًا تمامًا دون هرمَي خفرع ومنقرع! ولكن ما جعل فكه يتدلى حرفيًّا وجود أبي الهول!

هرول ناحيته يتفحص التمثال المهيب، سر شغفه ومكمن رحلته الغريبة، وعكس كل ما درسه وبحث عنه يومًا فإن أبا الهول لم يظهر منه إلا رأسه، بينما الجسد كان مدفونًا تمامًا تحت تكتلات صخرية.

ابتلع ريقه مدركًا وقال: «هذا يثبت شيئًا ويدمر قوانين أخرى، مؤكد أبو الهول المعروف لا ينتمي إلى الملك خفرع، مصر سكنها قبلًا مصريون أشد بأسًا وذكاءً، علومهم وحِرفيَّتهم توارثوها منذ زمن إعمار آدم للأرض!».

أخذ يدور بيأس حول جسد التمثال المدفون علَّه يصل إلى أي شيء، ربما يجد منفذًا لغرفة بوابة إيزيس المجهولة، ولكن لا شيء، ويبقى السؤال: أين؟ مؤكد يعرف أنه في فترة قديمة جدًّا، ولكن أي ملك يحكم الآن؟ وهل هو في الفترة الزمنية نفسها التي قابل فيها إيزيس؟ أم أبعدته أعوام أخرى إلى الأمام أو الخلف؟

في بداية الأمر لم يتفحص جيدًا مظاهر العمارة ليعرف أي زمن، وإن كان علِم أنها غرفة الماميسي أو جزيرة فيلة قبل نقلها إلى جزيرة جيليكا لبناء السد.

نغمات ناي شجي تسحر العقل والوجدان تناثرت في أرجاء الكون الرحب، وكأنها تغازل آذان وقلوب العاشقين، ولكنه ليس بعاشق، فلماذا تفاعل مع الشجن الحزين بكل وجدانه؟!

سيطر على نفسه ونظم أفكاره ثم تحرك يتتبع الصوت، ومن بين الحضارة التي لا تُغفل وعلى بعد أمتار ممتدة من تمثال أبي الهول، وجد بناء قيد الإنشاء، جدران معبد لم يكتمل تحرسه مسلتان متوسطتا الطول، وعلى بقايا البناء المهمَل وجد نفسه أمام شاب يعزف وكأن حزن العالم شيَّد القلاع واستوطن قلبه، تحيطه طيور بارعة الحسن تتناغم مع موسيقاه وتؤازر حزنه.

كان الشاب وحيدًا، بدا منفيًّا والوحدة تنخر داخله، وإن كان العالم كله بين يديه، ربما هو فارس أو عاشق رمت به الأقدار إلى مصير الهلاك. أخيرًا أنار عقله والتمعت عيناه وعرف أين رمته إيزيس!

قفز الشاب برشاقة فتعداه طولًا، ورغم أن محب ليس بالشاب الهزيل، فإنه فاقه في بنية جسده.

هدر الشاب بغضب: «من أنت؟ وكيف انتهكتَ محرابي؟».

ألقى محب إحدى إجاباته الساخرة: «أنا في أرض الحكومة، هذه ملكية عامة للشعب منذ خمسة آلاف سنة، أو ربما أربعة عشر ألف سنة».

ضيق المحارب عينيه وانحنى يتفحصه كأنه أعجوبة، وأعلن: «هذه أرض الملوك».

- وهل أنتَ ملك؟! حسنًا، يبدو أنك بائس تائه تمامًا مثلي في أرض غريبة تحبها ولا تألفك.

اهتز شيء في وجه المحارب، ووضع يده على سلاح معلَّق بخصره يشبه سكينًا طويلًا أوله محدب.

وهدر بشجاعة: «أنا لكيميت حتى أعبر إلى الحياة الأخرى، وحتى ذلك الحين سأكون مخلصًا لها».

تراجع محب خطوة حذرة رافعًا يده بإشارة سلام وقال: «لا تتهور، كلانا لديه هذا المبدأ، فأنا أيضًا مخلص عاشق لأرض مصر».

عينان حادتان كالصقر حدجتاه بتفحص مختلط بعدم الفهم.

صحح محب متنهدًا: «عنيت كيميت، صدِّق أو لا، دمنا واحد».

هدد: «عرِّف عن نفسك».

أجاب محب والحيرة تغمره لا يعرف ماذا يقول وكيف يشرح ومن سيصدقه: «اسمي محب من مصر العليا تقنيًّا، ولكني لستُ من هذا الزمن».

توجس المحارب أكثر متفحصًا ملابسه الغريبة، ولكن الهيئة مألوفة والوجه ليس بعجيب، يستطيع القول إنه رآه في وجوه العديد من الشعب وليس من هؤلاء المتسللين الطامعين بوجوههم الكريهة، يعرف شعبه وسمات وجوههم تميزهم.

اقترب خطوة بجسده المهدِّد آمرًا: «فسِّر أكثر».

نفخ محب بإحباط وقال: «الأمر لا يسهُل شرحه ولكن هل ستصدقني إن أخبرتك أني أُرسلت من قِبل الساحرة الأم السيدة المهيبة الفريدة؟ أليس هكذا تلقِّبونها؟».

هدر المحارب: «تهرطِق».

رد بصبر: «وإن أثبتُّ لكَ؟».

أشاح المحارب بذقنه وأخذها محب كإشارة فأفصح: «أنتَ أوناس بن أيريس البطل المحارب الذي أحب ابنة الملك وأحبتك فلُعنتَ أنت ونُفِيتْ هي».

احتشدت المشاعر على وجه أوناس ولكن دون أن يختل بأسه، وقال: «تهرتل بما يعرفه الجميع، قصتنا لم تخفَ على الملوك قبل العوام».

تنهد محب قائلًا: «ولكني لستُ من هذا العالم، آسينيت من قصت علينا كل شيء بعد أن استدعت إيزيس لمساعدتك وورطتنا نحن».

اخشنَّ صوت أوناس وأصبح وجهه معقد المشاعر مستحيل الشرح، وقال: «آسينيت حبيبتي وملكتي، شمسي وظلي ونجمة طريقي».

امتعض محب داخليًّا، إن كان هذا المحارب يمطرها بهذا الغزل على الدوام فلديها كل الحق في فقد عقلها.

رد محب: «اسمع، أقدِّر مشاعرك وأبجِّل قصة حبكما العظيمة، ولكني أطمع أن تساعدني في الوصول إلى فتاة عبرت معي، حتى نعود إلى زماننا لأن محبوبتك ورطتنا بالعبث».

هدر صوت أوناس بشرٍّ وانتصب القوام حد أنه خُيِّل إلى محب أن طوله ازداد: «هل تهين أميرة كيميت وملكة النساء؟».

ربما عشقه للآثار والعيش في مقابر القدماء أثَّرا في عقله، ولكن ليس إلى حد رميه في التهلكة.

هادنه: «لا والله، بحق آمون لم أفعل، أريد فقط الوصول إليهن».

لماذا شعر أوناس بالاستهزاء؟

تدارك محب نفسه: «يجب ألا يكون هناك عداء بيننا، أنت تريد شيئًا وأنا أريد خدمة، لماذا لا نتعاون؟».

راقب ملامح الشاب تستكين وإن فعل به اليأس الأفاعيل، وقال: «قلت إنك رأيت أميرتي؟».

أومأ محب.

غلَّفت الحدة صوته المهزوز بالشوق وهو يقول: «أهي بخير؟! هل تعاني؟ أيزعجها أمر أو يهدد حياتها عدو؟».

حرك محب حدقتيه بتفكير ثم قال: «بخير تمامًا، إن استثنينا وجود إيزيس بالجوار».

سحب أوناس نفسًا عنيفًا وقال باتزان: «إذًا هي آمنة، وهذا كل المبتغى».

انسحب وجلس مكانه يسند رأسه إلى الحائط وكأنه انتهى من الأمر، أليس من المفترض أن يُجن غضبًا؟ يهدم الموانع ويهرع إليها؟!

اقترب محب هادرًا: «إيزيس معها وأيًّا كانت الصورة التي تجلت فيها فلا تقرب بصلة إلى ما نعرفه عنها، بماذا أصفها؟! امرأة غاضبة، ناقمة على من استدعاها، تنتوي صب سخطها فوق رأسه... أعني آسينيت».

ابتسم أوناس دون أن يفتح عينيه وتمتم بيقين: «السيدة الأم لن تؤذي أحد رعاياها، وأميرتي بالذات لا يمكنها مسها بأذى».

تمتم محب بشكل جانبي: «يبدو أن الأذى أصاب عقلك».

ساد الصمت بينهما للحظات، محب يفكر في كيفية الخروج من هذه الورطة، ومن يساعده للعودة، ليس أمامه حل إلا هذا الضخم.

اقترب دون خوف حتى أطل على جذع أوناس ووضع يديه في جيبَي بنطاله.

ثم قال باستفزاز ساخر: «من الواضح أن آسينيت امرأة مغيَّبة، آمنت بمن لا يستحق، بالغت في وصف محارب شجاع وما أنت إلا شاب ضعيف جبان».

واشتعلت العاصفة، وقبل أن يدرك محب ما يحدث وجد نفسه معلَّقًا من رقبته مختنقًا بيد أوناس.

هسهس أوناس: «تلعب بالجمر باستفزازي».

وضع محب كلتا كفيه فوق يد أوناس الغاشمة هادرًا بصعوبة: «أصف حقيقة ما أراه، امرأة فاقدة العقل تستدعي كيانًا من عالم آخر، تهزم الواقع وتكسر التعاويذ من أجل إنقاذ حياة إنسان متخاذل».

لهث أوناس بنيران جهنم مطبِقًا على عنقه بشرٍّ مستعر، في حين سعل محب وجحظت عيناه موقنًا من اقتراب أجله، هل يتعشم أن يضعوا جسده في تابوت بعد تحنيطه ليجده تلاميذه يومًا ما؟!

لم يكتمل حلمه الأحمق، إذ ألقاه أوناس على طول ذراعه واستدار يلهث بجنون، زأر بصوت أسد حُبس في مصيدة غاشمة حتى هجرته كل الطيور المؤازرة.

سعل محب محاربًا لاستعادة أنفاسه حين سمع هسهسة أوناس اليائسة: «أُجنِّبها الحزن، لا أكترث لأمر حياتي، ولكنها لن تتحمل ذنب موتي».

فرك محب نحره بيديه وقال: «لا أظنها تكترث بالذنب، بل ببُعدك في حد ذاته، إنها تحارب من أجل قصتكما وأنت يجب أن تقدِّم جانبك من التضحية».

– فعلتُ، حاربتُ وضحيتُ.

قال بهدوء: «ولكنك لم تنتصر بعد، لا تبرح حتى تبلغه، ما دام في صدرك نفس واحد يجب أن تحاول ولا تيأس أبدًا».

– لستُ يائسًا، أريد تجنيبها عقابًا آخر.

هز محب كتفيه بلا معنى وقال: «الضرر وقع مسبقًا وحان وقتك لرفعه».

– وهل هناك أمل؟

- الأمل دائمًا موجود لمن يحارب مهما واجهتْه أبواب مغلقة.

واجهه أوناس وتحرك إلى داخل المعبد يجلب بعض الأشياء، علَّق بحزام من جلد الحيوانات السلاح والناي، واتخذ وضع الاستعداد.

وصرَّح بعزم: «سنرحل إلى «سونو»، اتبعني».

قفز محب على عقبيه وتبعه ركضًا، ثم سأل بحماس: «ماذا تقترح للوصول إلى أسوان؟ أرى أن الطائرة أسلم حل، ستختصر الوقت، ولكن إن أردتَ القطار فلا بأس، فأنا أفضِّل القطارات لتأمُّل جمال القرى والمدن التي نمر بها».

لم يمنحه أوناس نظرة إلى الخلف حين تساءل بصوته العميق الخشن: «أهناك الكثير من الهرطقة في المكان الذي أتيت منه؟».

أسرع حتى جاوره ضاحكًا بصخب وقال: «الكثير مما سيدهشك، لكن أقصى الهرطقات صعوبة تكالُب الأمم علينا، وكلٌّ منهم يحاول جاهدًا نسب جذورنا وحضارتنا إلى نفسه، هناك مثلًا العبريون يقولون إنهم بناة الأهرام، وهؤلاء المخابيل الأفروسنتريك حدِّث ولا حرج عن طفرة جنونهم».

استقل أوناس ما يشبه عربة حربية في طور تصميمها الأول وسمح لمحب أن يجاوره.

قال أوناس: «هذه زندقة! أخبرني، من هم العبريون؟ لم أسمع عن هؤلاء القوم قبلًا».

حدق محب إلى الهرم المهيب بإجلال وأكَّد: «بالطبع لم تسمع عنهم، وهذا الهرم القائم ينسف حجتهم، البناء شيِّد بأيدينا نحن».

- ومن أنتم؟!

ابتسم محب والفخر يملأ صدره حتى إنه سمع السلام الجمهوري يرن في أذنيه بينما قال: «نحن المصريون، أبناء كيميت وأحفادكم».

قيَّمه بنظرة عديمة الرضا وقال: «من الواضح أن أحفادنا تدهور حالهم كثيرًا حد أنَّهم سمحوا للرعاع بسرقة إرث أجدادهم حتى وإن كان مجرد ادعاء».

تنهد محب بأسى وقال: «ساء بما يفوق تخيلك، ولكن ماذا نقول؟ دائمًا ما كانت مصر الحبيبة جوهرة الشرق، معشوقة مغوية، تجذب كل الأعين إلى سحرها طامعين في نيل شيء منها، ونحن نصيبنا الموت في سبيل خلاصها».

التفت إليه أوناس ببعض الرضا وقال: «بدأتَ في قول ما يعجبني يا حور محب».

صحَّح: «محب فقط، وأتعشم أن أعيش حتى أجد أم حور ولا أهلك معك».

- سنأخذ مركب الشمس ونبحر في النهر نصارع وحوشه، وربما نصل، ولكن المؤكد أننا سنهلك في المحاولة، وفي الطريق ستقص عليَّ كيف تدهور حالكم يا محب.

ابتلع محب ريقًا جافًا وبدأ يتخوَّف، إن كان قلقًا من محاولة إيزيس قتله حين ترى وجهه، فهو الآن أشد ذعرًا من وعد أوناس صاحب اللعنة ووحوش النيل.

وهل لمانح الحياة وحوش؟!

***

وراء حاجز مزخرف بالألوان الجميلة بدَّلت بهية بملابسها الرداء الذي منحته لها آسينيت، من بين الملابس النسائية الرائعة والمتعددة في غرفتها اختارت بهية أكثرهم احتشامًا، ليناسب غطاء رأسها الذي تخلت عنه الآن لعدم وجود أحد في غرفة الأميرة غيرهما!

قالت آسينيت بلا مبالاة متوجهة نحو المصطبة المريحة المطلة على نافذة تكشف سحر الخارج: «لقد أغلقت آسري الباب من جديد».

خرجت بهية بتردد مستفهِمة: «هل أنا أسيرة؟».

تأملتها آسينيت للحظات مبتسمة بمحبة وقالت: «لا أظن أنكِ ما يشغل بال مربيتي الآن».

زفرت بهية بأسف وجالت نظراتها تتأمل أرجاء الغرفة الباهرة، حقًّا الواقع أبلغ من كل الخيالات التي تصورتْها بناءً على دراسة مظاهر الحياة لمصر القديمة، الغرفة مؤثثة بكل مظاهر الترف، مرآة باهرة الصنع، فراش مريح بأغطية قطنية وحريرية، فراش من خشب العاج مناسب لكل قطعة وُضعت، حتى أضواء الشموع المتحدة مع نور القمر المتسلل من الفتحات الصغيرة أنارت أفضل من ألف مصباح كهربائي.

تمتمت بخفوت: «في اعتقادي أنها الآن تفكر كيف تُثنيكِ عن طلب العون من إيزيس بما أنها حارستك».

ضحكت آسينيت بطريقة سببت الوجل لبهية وقالت: «أنا عنيدة في الحصول على ما أريده من الحياة، وآسري تعرف هذا جيدًا، ليس هناك في الكون ما يجعلني أتراجع وقد حققتُ نصف الطريق».

صمتت حين لاحظت تراجع بهية بخوف، فمدت يد سلام تدعوها بهدوء: «تقدمي با-هية، لا أريدك أن تهابيني، فأنا أحببتك».

ابتسمت بهية بتردد حين اقتربت وجلست مقابلها بمكان بعيد نسبيًّا وقالت: «أحببتِني ولم تمر على معرفتنا الغريبة إلا ساعات؟!».

باتت أكثر ثقة وقوة حين اعترفت: «قلبي كنز ثمين يعرف معدن من أمامه، يكشف روحه الطيبة من أول نظرة با-هية».

هدأ تشتتها وحذرها وبدت مرتاحة أخيرًا، الأميرة الجميلة تتباسط معها بالحوار، ترغب في صداقتها وهي من لم تحصل على صديقة مقرَّبة قط!

ردت بهية: «ماذا أخبرك قلبك عني؟».

ردت بود: «جميلة ومشرقة من داخلكِ كما خارجكِ، ولكنكِ تحتاجين إلى الكثير من المساعدة لتلمسي قلبكِ وتعلمي ما الذي تريدينه لتحاربي من أجله».

أقرت بارتباك: «تعلمتُ واعتنقتُ بإيمان أن الدنيا لا تمنح كل الأمنيات».

ردت بهدوء: «الدنيا تمنح المحاربين لا الخانعين، عليكِ العمل بكد لتحقيق أمنياتكِ».

تلاعبت أصابع بهية بثوبها الكتاني لبرهة وردت بهدوء متهرِّبة: «في الوقت الحالي حلمي الأقصى أن أستفيد من هذا الوضع وأستكشفكم عن قرب».

ضحكت وهزت كتفيها إلى الأعلى وقالت: «ستفعلين، لا تستعجلي الأمور، فما يأتي سهلًا يذهب سهلًا».

وأين السهولة التي تتحدث عنها بحق الرحمن؟! محتجَزة في غير زمنها، وفي قلب صراع لم تعرف عنه شيئًا، تحرسهم امرأة مصمِّمة على حماية آسينيت، وتحيطهم ساحرة عظيمة معتمة بلعناتها!

قالت بهية: «أليس لديكِ ولو ذرة خوف مما يحدث؟!».

توسعت عيناها المكحلتان بإتقان مع ارتفاع حاجبيها وقالت: «خوف وقد لبَّت إيزيس ندائي؟! أنا حصلت على معجزة لم يحصل عليها أحد من قبل».

تساءلت بهية بعجب: «أتتحدثين عن إيزيس نفسها التي هددت بسلب أرواحهم؟! على كلٍّ يبدو أنها ليست عديمة الإحساس الوحيدة هنا وهذا مريح نسبيًّا».

بدت آسينيت متوحدة مع الصورة المنعكسة في الخارج، تسبح في عالم لا يراه غيرها.

سحبت بهية تركيزها وقالت: «هل لي بسؤال؟».

أومأت تمنحها الإذن، فترددت بهية لدقيقة قبل أن تقرر إلقاء سؤالها الفضولي.

ثم قالت: «لقد كررتِ أنكِ ارتكبتِ إثمًا بحبكِ للقائد، وما أعرفه عن مصر القديمة أنهم لم يجرِّموا العشق قط، بل بجَّلوه!».

لم يظهر على وجه آسينيت العار أو الحزن، بل كانت واثقة قوية بملامح أنيقة حين أجابت بوضوح: «ترعرعتُ لأُعدَّ للجلوس على العرش بعد والدي، من المفترض أن أتزوج أميرًا من داخل أسرتي الحاكمة حتى لا يحدث نزاع من بعده أو تشكيك في أحقيتي في العرش من جانب الكهنة».

اتسعت عينا بهية قليلًا وانعقد حاجباها وقالت: «ما أعرفه جيدًا أن الكهنة لن يعترفوا بجلوس امرأة على عرش مصر في كل الأحوال، بل يجب أن يكون الحاكم رجلًا».

شمخت آسينيت بكبرياء وأجابت: «هذا كان قبل أن تغيِّر إيزيس أقدارنا في الماضي، فهي من أجلست أول ملكة على أرض النوبة المصرية».

تراجعت بهية قليلًا هامسة: «إذن محب كان مُحقًّا، إيزيس حقيقة وملكة ذات سيرة قوية، تركت أثرًا باهرًا، بالطبع كان يجب أن تتحول عبر الأزمنة إلى أسطورة يتناقلها الشعب».

ثم صمتت تلتقط أنفاسها وتهرتل كالعادة: «بالطبع واقع يا حمقاء، فقد رأيتِها بعينيك».

رمقتها آسينيت من بين أهدابها بحذر وقالت: «هل أنتِ معتادة التحدث لنفسك؟».

عضت بهية طرف فمها وردت: «عادة سيئة منذ الصغر».

ضحكت آسينيت قائلة: «لا بأس، الجميع يحتاج إلى مساحة خاصة لجنونه لا يراها أحد».

- ماذا سيحدث الآن؟

هزت آسينيت كتفيها من جديد تشير إلى الخارج قائلة: «سننتظر إما عطفها وإما غضبها، وبخاصة بعد ما يحدث هناك».

أسندت بهية يديها على النافذة تطل لترى ما تقصد، وحينها لم تلُم نفسها على إسرافها بالانبهار، فما تراه كيان إيزيس الطافي فوق جزيرة «بيجة-أباتون أوزوريس».

وقفت إيزيس هائمة بجسدها فوق الأباتون تتأمل قبر المحبوب بعينين خُط فيهما الألم العجيب، تتلألأ فيهما الدموع وإن لم تهبط على وجهها الشاحب، يدها ترتجف، يلف الوجع كيانها والقهر يحرق قلبها، هبطت أخيرًا على قدميها مرفوعة الرأس شامخة الوجدان، تتلمس كل جدار في المعبد وكأنها تلمس المحبوب.

تمتمت بوجل: «شُيِّد بدمائك يوم أن غابت شمسك عني وأظلم كوني يا ملكي وحبيبي».

أغلقت عينيها المكحَّلتين طبيعيًّا تفرج عن دمعة وحيدة بقيت معها لسنوات بعد أن جففت دموعها الأرض الخضراء تفجعًا لفقده.

مست شفتيها بسمة حزينة متقدمة ومترنمة بينما تقول: «حارس الحياة الأبدية، ملك الغرب الحبيب، ما زلت أنتظر أن تأخذني معك في رحلتك، ما زلت وفية عاشقة، ربما لم تعيدك دموعي ولكن قلبي أحياك أوزوريس».

صمتت من جديد وفتحت عينيها تكشف سحر العالم، بين الجفون تركز على بقعة واحدة وحدها من تعرف مكانها بدقة، وقد دفنته بيديها.

تلمست المكان قبل أن تنهار على ركبتيها، ورفعت وجهها إلى السماء وكتفاها تتناغمان بموسيقى لم تُعزَف وترنُّمها يزداد حنينًا.

وقالت: «صوتك ما زال يرن في أذني تغني لي وتأسر قلبي بالناي -أنا-نفر-حر-نبت-بترى...».

انحنت جبهتها قليلًا تهمس أغنيته وكأنه من ينشدها على أذنيها: «ست-منى-سوبدة،خع أم حات رميت نفرت-شسبت إفرت وخت إنم. عنت إرتى جمح، عنت إرتي جمح...».

نبراتها علت قليلًا ما بين النواح والغناء، وبدأت الأشجار تهتز معها تصدر حفيفًا، حتى الأزهار تحركت متراقصة تشارك المعزوفة، توقفت الطيور فوق سطح المعبد المكشوف وأخذت تتناغم معها، أظلمت السماء درجة وبرقت بالنجوم وكأنها تتواطأ معها، حتى البدر ازداد اتساعًا وقربًا بمظهر عجيب يخطف الأنفاس ويوقِف القلوب، أوبرا إلهية نسجتها الطبيعة متفجعة معها رغم فرحة النغم.

– عنت إرتي جمح، كنت تتعبد بعينيَّ الجميلتين ولكن هل ما زال بهما جمال؟ لقد فقدتُ بريقهما يوم أن غدر الخائن الطامع سيت...

ارتفعت أصابع إيزيس تتلمس شفتيها وكأنها شعرت بروحه تطفو حولها وكلمات غزله الفريد ترن في أذنيها: «بنرت سبت ست مدت... بن إن غس خنو إم حاو، كات نحبت وبخت قابت إر نفر حر نبت بترى ست مى سوبدة عنت إرتي جمح...».

ابتسمت عيناها الحزينتان وقد أزالت كل أقنعة الغموض والجمود ولم يبقَ إلا وجه حبيبة تبكي الأطلال، تنعى قصة عشق لن تُنسى على مر العصور.

وقفت إيزيس من جديد وطفت تطير إلى الأعلى حتى تعدت جدران الأباتون، وفردت ذراعيها على مداهما، رداؤها يتطاير من حولها في مشهد عظيم، صوتها الناعي يصدح في الأجواء الساكنة، النجوم تسطع أكثر فأكثر فوقها والقمر اقترب حتى أصبح فوق رأسها.

قالت: «سأبكيك حتى ينطفئ نور القمر، وتموت الشمس في كبدها، وتنفجر آخر نجمة في السماء بغير ولادة لبديلٍ لها. أحمي حبك كما حميتُ ابنك الذي انتقم لك من القاتل، وأنهى فوضى الشرير، وحقق عدلك ورخاءك من جديد على أرض كيميت».

***

الشمس أشرقت تعلن عن يوم جديد يخفي بين طياته الكثير من الأسرار والمفاجآت لمحب وأوناس، اللذين وصلا أخيرًا إلى ضفاف النهر عبر رحلتهما التي تجنَّبا فيها الظهور العلني بعُمار المدن المُقامة.

تفحص محب المكان من حوله وتوغل عقله كما عيناه في سطح الماء الصافي دون شوائب، قارن بين مياه النهر الصافي الآمن للشرب وبين منظر الكورنيش في عصره! أجداده قدَّسوا النيل وتعبَّدوا بصفائه، فضفتا النهر خضراوان كواحتين في وسط صحراء واسعة.

قال أوناس: «من هنا ستبدأ رحلتنا».

التفت محب لأوناس الذي حمل بعض مستلزمات الرحلة وشق الطريق أمامه بين الأشجار كاشفًا عن سفينة متوسطة الضخامة من الخشب والمعادن تنتهي بما يشبه العمدان على هيئة زهرة اللوتس المقدسة.

تمتم محب بانبهار وعقله يعمل سريعًا: «مركب الشمس!».

أوضح أوناس بهدوء: «لا، مركبة حربية. مراكب الشمس المقدسة تُستخدم لرحلة العبور إلى الحياة الأخرى».

صمت لبرهة يزج المركب إلى النهر الراكد بسلاسة وأكمل: «هذه مركبة قائد الجيوش التي كنت...».

هز محب رأسه مستعيدًا معلوماته، لقد برع القدامى في صنع المراكب وبخاصة مع موقع مصر المميز وشق النهر طول مساحتها ووجود بحرين يحيطان حدودها، وصنفوا المراكب إلى دينية وحربية ودنيوية

لنقل الأحجار والبضائع وغيرها، وبالطبع مراكب الشمس جنائزية.

قال أوناس: «اصعد».

قفز محب سريعًا فوق المركب متناولًا عدة أشياء منه، وحين أخذ أوناس خطوة إلى صعود المركب أخذ الماء الساكن من تحتهما بالاهتزاز بدوامات مهدِّدة، وقع محب من شدة ارتجاج المركب مصدومًا للحظات لا يستوعب ما يحدث من صراع! النيل ذاته يحارب صعود أوناس إلى المركب، لعنة أوناس!

لم يتراخَ أوناس ولم يصدمه الأمر، بل ظل ممسكًا بمقدمة المركب دون حراك، مُحدقًا إلى الدوامة ببأس وكأنه يواجه خصمًا من لحمٍ ودم.

وقال: «كما منحت كيميت الحياة لا تَسلُبني الحياة».

عقد محب جبينه متعجبًا، ولكن هل بقي داخله عجب بعد كل ما حدث؟!

للحظات أراد الضحك ساخرًا من نفسه، يتمنى بكل قوة أن يكون حلمًا سحريًّا مريبًا فرضه عليه هوسه بالموقع الذي ظهر فجأة معتمًا عليهم كل ما عرفوه عن تاريخهم وحضارتهم، مدمرًا كل نظريات الباحثين.

ورغم يقينه الآن أن الذي يعيشه أوناس ومعشوقته واقع، وقطعًا إيزيس ملكة مبجلة حقيقية لم يستوعب سيرتها الغرباء الذين لوَّثوا التاريخ فحولوها إلى أسطورة وغزلوا حولها حكايات ينفيها العقل...

هزة قوية كانت الرد على طلب أوناس دحرجت محب بطول المركب إلى آخره، فاصطدم بغرفة مظللة، قاوم للتمسك والوقوف لمساعدة أوناس وربما إرشاده، إلا أن المحارب الجسور لم يحتج إلى معاونته، أعاد طلبه بخشوع جالسًا على ركبة واحدة ممسكًا بسلاحه خافض الرأس احترامًا.

يقول: «مولاي العظيم، مانح سر أنفاس أبناء كيميت، وحامي أراضيها، أنا أوناس بن إيريس، تعرفني وأعرفك كما عرفت أبي الذي قضى نحبه فداءً للدفاع عنك من الغزاة كما سأفعل من بعده، لا تُخيب رجائي وامنحني فرصة لأحارب العجوز وأكسر لعنتي أو يأخذني إلى أسفل أعماقك».

اشتدت الدوامات بثورة ليُعلن النيل رفض طلبه، ووقع محب من جديد متدحرجًا لأول المركب.

تمتم محب بغضب: «بالطبع، ذكي يحاور الماء، وإيزيس تهاجمني وتكرهني وكأنها تُكِنُّ ضغينة ضدي، البشر يتنقلون برحلة كهذه للتنعُّم وأنا أذوق الأهوال! ما هذا الحظ؟ فقط عندما أرى وجهك يا بهية سأجعله خارطة شوارع، فأنتِ السبب».

لم يهتم أوناس له لبرهة بل أخذ يكرر بخشوع: «أنا محارب ابن محاربين، لا تجعلني أذهب إلى رحلتي الأخرى بخزي، أستحق أن أكرَم بالمحاولة لكسب حربي».

سكت للحظة يستجمع كلماته مصرًّا: «أعلم ما ينتظرني، وأعرف ما أنا مقدم عليه، لا أطلب منك إلا العدل بمنحي نزالًا يشرِّف اسم عائلتي».

هدأ الماء رويدًا وبدأت الدوامات في الاختفاء، ثم سكن المركب أخيرًا.

وقف محب متأوِّهًا يمسك برأسه الذي جُرِح بعدم رضا: «لقد رضيَ عنك ولم تُصَب بالأذى، العنف كان من نصيبي».

انتصب أوناس يواجهه وافتر جانب فمه بابتسامة متهكمة وقال: «تتألم من جرح لا يُذكر، أتساءل كيف تخوض الحروب وأنت رخو الشخصية؟!».

شهق بقوة مصدومًا من وصفه بالرخو، هو رخو؟! لا عاش من يسُّبه بالضعف لدقيقة أخرى، واستعد عقله وجسده للقتال متحفزًا، ولكن نظرة واحدة إلى جذع أوناس الضخم، ووجهه البائس الصارم، وسلاحه المدجج، جعلت كل ثورته الرجولية تتقهقر.

برر لنفسه أنه ليس من اللائق محاربته له، أليس كذلك؟!

ابتلع ريقًا أجوف قبل أن يقول بتخاذل غاضب: «يسعدني أن لديك حس دعابة».

قال أوناس بلا اهتمام: «الدعابة في دمائنا، نحن شعب يصنع المزاح من أحزانه في أحلك المواقف».

وجهة نظره أيضًا.

فكر محب بصمت، ثم سأله: «لقد هدأ «حعب-محيت» ومنحك فرصتك، ألن تصعد؟».

لم يرُد أوناس لبرهة، ثم أوضح: «المشكلة ليست في النهر، لقد كان يمنعني للحماية، لعنتي تتمثل في هجوم وحوشه إن لمست قدماي الماء، سيهاجمني أتباع سوبيك قبل أن أشهر سلاحي».

فكر محب للحظات قبل أن يرشده بهدوء: «سنجرب إذن تجنيبك لمس الماء بأي طريقة حتى نصل إلى غايتنا».

شاهده محب يتراجع إلى الوراء قليلًا قبل أن يشد كل عزمه وينطلق بقوة نحو المركب قافزًا إليه برشاقة دون أن يمس الماء، وحين استقر فوقه هبَّ من فوره يثبِّت عدة مجاديف على جانبَي المركب ببعض الحبال.

أمره قبل أن يجلس: «سنجدف معًا، نبحر إلى الجنوب من فورنا دون ذرة تخاذل».

إن أخبره محب أنه يريد معالجة جرحه قبلًا ربما رماه عن ظهر المركب، لذا سلَّم أمره لله بعد أن مسح الدماء وجلس خلفه بصمت يجدف.

باغته أوناس بالحديث: «الرحلة طويلة، الآن ستخبرني عن عالمك وكيف سمحتم للرعاع بنسب أمجاد أبناء كيميت جنة الصانع على الأرض إليهم!».

أجابه بجمود: «الحكاية طويلة ومطامعهم متراكمة منذ قرون ولا ينفلون بالمحاولة».

- هيا قصها، ليس لدينا إلا الوقت والانتظار.

- انتظار ماذا؟!

الجحيم أطلَّت من عينَي أوناس الصقريتين بينما يقول: «انتظار مرسال عالم الظلال».

- ألست خائفًا من المصير الذي ينتظرك؟!

نار مشتعلة تحت الجليد أكلت قلبه كما زينت نبرته وهو يقول: «لا يمكنهم قتلي إن كنت بالفعل ميتًا بعيدًا عنها».

انتابه فضول نهش فوضى يحاربها بقلبه، وعقله رافض فكرة انجذابه إلى...

تصلب نحره للفكرة، فسأل محب بحيرة يغلبها الفضول: «ألم تخف على نفسك وأنتَ تخاطر بكل شيء من أجل حب محكوم عليه بالإعدام؟ أيستحق الأمر أن تُجرَد وتُنفى ملعونًا؟ ومن أجل ماذا؟!».

تحرك أوناس بسلاسة إلى الأمام والخلف مع حركة المجاديف وأجاب بصوته الخشن: «الخوف لا يولِّد الحب، الحب ما يولِّد الخوف، أنا خائف لخسارتها وأنا من لم يهَب شيئًا قط».

صمت محب وداخله تثور دوامة أقسى من دوامات النيل، متسائلًا إن كان لم يرِد الزواج قط أم لم يرغب في ربط قلبه بامرأة تأخذ من سلامه وتجعله خائفًا ضائعًا قاتلًا لكل طموحاته!

انتبه لأوناس يدعوه من جديد: «ابدأ برواية حكايتك لعلك تكون دليلًا يجعلنا نقيم منذ الآن سدًّا منيعًا لصد الغزاة عن أراضينا».

هل يمكنه بالفعل تغيير مجرى التاريخ والعبث بأركانه؟! لن يستطيع مهما حاول أوناس حثه، لا يمكنه العبث بالأقدار فيدمر واقعهم! هناك حاجز غير قابل للتجاوز بين الماضي والحاضر، ومن المستحيل عليه كسره وإن كان الثمن حياته.

***

القدر محتوم ومكتوب فلا مهرَب منه.

غادر رأسَها القلقُ مما سيحدث عند العودة، هذا إن عادت!

زفرت بهية أنفاسها تذرع الغرفة الواسعة ذهابًا وإيابا، عقلها يشتعل بالأفكار، هل يُعقل أن هذا قدرها المحتوم؟ أن تبقى هنا لأسباب غير مفهومة حتى لحظتها هذه؟!

لطالما شُغفَت بزيارة معبد أبيدوس في محافظتها الأم، وعشقت أسطورة إيزيس المحارِبة الجبارة، لم يكن شغفها بإيزيس لأسباب إخلاصها في العشق، بل لحنكتها وذكائها وقوتها التي أخضعت ملوكًا وكسبت بها قلوب الشعب، وصبرها على تحقيق العدالة وليس الانتقام كما تتداوله الحكايات، لقد أعادت إلى شعبها العدل والرخاء، ملَّكته أمر نفسه ليشيِّد حضارة لن يرى مثلها في العالم.

ولكن تلك الأسطورة بطلتها الجبارة التي تتظاهر بقلب كالحجر من أول لحظة رأتها فيها ما هي إلا امرأة ثكلى تتألم، هل كُتِبَ على النساء المعاناة والوحدة على مر العصور وإن اختلفت الأسباب؟!

- المبالغة في القلق لن تحل الأمور با-هية.

أسبلت بهية جفنيها بتعب وقالت: «وهل سيحلها وجودنا هنا دون أن نفهم ما القادم؟ لقد اختفت مربيتك كما إيزيس».

انقبض قلب آسينيت بين أضلعها ألمًا وقالت: «ليس من السهل على المحبوبة رؤية قبر محبوبها، امنحيها الوقت».

انطلق لسان بهية اللاذع: «لا أعلم من أين تأتين بكل هذا الهدوء! نحن أسيرتان والساحرة التي استدعيتِها غاضبة كالجحيم، وربما الآن تفكر في حرقنا أحياءً لتجرُّئك على كسر خصوصية محرابها، وأنا عالقة في زمن غير زمني ووجودي يهددنا جميعًا بالخطر».

هواء ساخن لف الأجواء حولهما حرَّك كل قطع الأثاث من مكانها وكأن زلزالًا ضربهما قبل أن تبدأ إيزيس في الظهور.

قصفتها بهية: «تحبين الاستعراض؟».

لاح القلق المخلوط بالاستنكار على وجه آسينيت، كيف تتجرأ على إيزيس؟

بينما لم تظهر على وجه إيزيس المشاعر حين قالت بمرح: «الاستعراض والتلاعب بعقول الدواب ما أجيده».

فكرت بهية بصمت: (كما تلاعبتِ بسيت وخدعتِه لمساعدة حورس بالانتصار عليه واسترداد تاج أوزوريس).

تقدمت إيزيس خطوتين نحو بهية تتأملها من جديد، وكأنها لغز معقد يقارب الأعجوبة.

وتساءلت بنبرة رخيمة: «لم تسألي ولو لمرة واحدة إلى أين ذهب معشوقكِ، وكأن الأمر لا يهمك!».

كزَّت على أسنانها بغيظ وأجابت: «أخبرتكِ بأنه ليس عشيقي ولا أهتم إن كنتِ بخرتِه في الهواء، كل ما أريده هو طريق إلى العودة».

سارعت آسينيت للقول المستنكر: «حتى وإن كان صحيحًا، في النهاية هو رفيق رحلتكِ، ومن الواضح اهتمامه بأمركِ! كيف لا تبالين بمصيره؟».

انقض لسان بهية: «العجيب عدم مبالاتكِ أنتِ بمصير عاشقكِ صاحب اللعنة! لم تحاولي التوسل إليها لمساعدتكِ من جديد».

وضَّحت آسينيت بهدوء محدقة إلى وجه إيزيس بإجلال: «إيزيس طاقة الفكر والعاطفة لن تؤذيه. أوناس الشجاع في أمان الآن أكثر من أي وقت مضى».

حدقت بهية إلى الأرض بتعب، هذا كله ليس عالمها، ربما شغفت بوجودها هنا لمعرفة الأجداد عن قرب، ولكن كل هذا الإيمان بالعشق يخنقها، كل هذه الحروب وجسارة آسينيت وتصميمها على ما تريده، وقوفها في وجه الجميع يذكِّرها بضعفها وتخاذلها.

قالت: «الحب أسطورة، ومحاولتكِ لهزيمة قدركِ فعل اليائسين، ولن تصلي إلى شيء في النهاية إلا ما قد خُطط لكِ سابقًا».

سكنت لبرهة تبتلع ريقًا أجوف ثم رفعت عينيها إلى الوجهين الجامدين وأكملت بانكسار: «حياتكِ رحلة، إن ابتعدتِ عن المسار المخطط لكِ تصبحي مهزومة».

هدرت إيزيس بقسوة: «وأنتِ لستِ كذلك، صحيح؟!».

غلبتها العبرة وردت: «لا تعلمين عني شيئًا لتحكمي من أنا».

ابتسمت بوحشية وردت: «النظرة وحدها تكفي لمعرفة أي ضعيفة أنتِ».

ترددت قليلًا في قولها: «ربما، ولكني لم أتأذَّ أو يتأذَّ أحد بسببي، لذا لستُ آسفة على الماضي ولن أقلق من وجع المستقبل».

اقتربت إيزيس منها وملست فوق شعرها بهدوء قبل أن تقول بحنان: «طفلتي الجاهلة، إذا استرجعتِ أحداث حياتكِ ستجدين أن أكثر شخص مدينة له بالاعتذار هو نفسكِ، لقد تأذيتِ يا صغيرتي بسلبكِ أقل حقوقكِ».

بهتت ملامح بهية والخوف اعتراها، ماذا تعرف عنها؟! ماذا كشفت من حزن قلبها؟!

تمتمت مكررة: «أنتِ لا تعرفين شيئًا عني».

توسعت ابتسامة الغموض على وجه إيزيس ولم ترد لبرهة.

سألتها بمكر: «ألن تسألي عن مصير محب؟».

تقلصت معدتها باضطراب وهتفت في النهاية: «هذا مصيره، لقد اختار القدوم إلى هنا بينما أنا تصادف وجودي».

تفحصتها إيزيس باهتمام وأخذت تقلِّبها بين يديها كأنها حيوان تجارب، بينما قاومت بهية بجسدها الضئيل أمام عظمة بنيان إيزيس.

قالت بهية: «ماذا تفعلين؟».

ردت إيزيس بتركيز شديد: «أحاول أن أعرف إلى أي حد تقدم فن الطب لديكم لينزع من نساء عصركم المشاعر، أنتِ كلَيلةِ طوبة «تاعبت» باردة يا طفلتي».

انفجرت آسينيت بضحكة رائقة ساحرة لتعليق إيزيس، حتى إن بهية نسيت معها كيف ترد، بل حدقت إلى ضحكتها الاستثنائية بانبهار ذكَّرها بقول أحد المطربين: (لها ضحكة يا ويلي بلون السهر لما الورد بيملا شفايف القمر).

ذُعرت بهية وتراجعت تبعد عينيها عنهما وهمست بصدمة: «أفيقي يا مجذوبة، أصبح جمالهما وقوتهما خطرًا محقَّقًا عليكِ».

ولكن أليس لديها حق في الفتنة بهما؟ أيُعقل أن هاتين جدَّتان لها هي؟!

النقاش اللطيف انتهى عهده بغير رجعة حين التفتت إيزيس نحو آسينيت بغضب وقالت: «ماذا فعلتم بمحراب حزني؟».

ابتلعت آسينيت ريقًا جافًا وردت: «لم نفعل إلا تقديره وتقديسه».

هدرت إيزيس: «لم أطلب من أحد بعدي أن يمس مكان تَفَجُّعي، أن يدنس بيت ولادة طفلي أو يدب بقدمه أباتون زوجي».

وقفت مقابل إيزيس وعينَي بهية المراقبتين، لم تكن آسينيت بطول إيزيس، بل أقصر قليلًا، أرجعت هذا إلى نظرية تقزُّم الإنسان عبر الأزمان.

ردت آسينيت بهدوء واحترام: «لم يُسمح لأحد بتدنيس الأباتون، ولم يُسمح بزيارته إلا للكهنة».

رددت بتشدد: «لم أطلب منكم تقديسًا، عندما شيَّدتُ قبره أردت منحه ما طلب، ألا يزعجه أحد في العالم الآخر، لم تحترموا قدسية الموت».

لوت بهية فمها بحسرة، هل هؤلاء من لا يحترمون قدسية الموت؟! ماذا لو عرفت بما فعلوه في عصرها؟! لا تفكر في السوء حتى لا يطاردك.

فكرت بأسى حين التفتت إليها إيزيس منقضَّة: «وأنتم، إلى أين وصل تقديركم؟ هل دنستم تاريخكم؟».

أرادت أن تضحك حتى تنقلب على ظهرها، ولكنها صمدت حين قالت بسخرية: «نحن نحترم التاريخ فوق تخيُّلك».

طاف اللهب الأزرق في عينيها وهسَّت بشر: «ماذا فعلتم بقبر زوجي؟».

تنهدت بهية ولكنها أجابت بصراحة مطلقة: «الزمان تغير كما تغيرت المعتقدات، لم نؤمن بوجود أوزوريس، أنتِ بذاتكِ حتى ليلة الأمس اعتقدت أنكِ أسطورة».

ارتفع ذقن إيزيس بكبرياء، رأت بهية ما وراءها من الألم الصافي، وقالت: «دنستم سكنه؟».

هزت بهية رأسها بأسى وقالت: «لم يبقَ من الباتون وبيجة إلا أطلال، حتى هذا القصر نُقل إلى جزيرة إجليكيا لإنشاء مشروع قوي».

- عبثتم بماضيكم؟! حولتم تاريخكم إلى مادة أسطورية؟ لم تتخذوا من مسيرتنا حِكمًا ومواعظ تساندكم لبناء مجتمع قوي؟

ردت بهدوء: «القصص المفككة مادة خام للتحوير ولزيادة المفاهيم والرموز الدينية، للأسف لم يصل إلينا أنكم ملوك وُجِدتم بالفعل، لقد حوَّلوكم إلى آلهة تُعبَد».

رفعت إيزيس رأسها وتوسعت عيناها وقالت: «آلهة؟! هل الإنسان يتقدم مع الزمن أم يتراجع إلى عصر الظلمات؟! ظننت أن الأمر منتهٍ بمعرفة الصانع!».

رددت بهية بذهول: «الصانع؟!».

ردت بتلقائية: «مانح الحياة».

تخبطت بهية قليلًا في المعلومات التي تعرفها، وسألت بحذر: «تعنين «حعب-رسيت»؟».

ابتسمت بغموضها الخانق نفسه وقالت: «النهر هبة من الصانع يا طفلتي».

– أنا لا أفهم، غموضكِ يزداد.

نظرت إيزيس إلى آسينيت التي تتابعهما بسكون غامض أيضًا، وكأنها تُقَيِّم حلفاءها قبل أعدائها وترتب خطواتها الجديدة.

قالت إيزيس: «الغموض يلهب حواس البشر ويدفعهم إلى تقديم أفضل ما لديهم».

ضيقت بهية عينيها تسألها بحرص: «أتحاولين دفعي إلى المعرفة؟».

حركت رأسها بلا معنى وقالت: «ربما».

صمتت لبرهة واستدارت لتبتعد ثم أكملت: «ماذا تعرفون عني أيضًا؟ من أنا؟ في أي زمن كنت؟ ومن أي أسرة انحدرت؟».

ابتلعت بهية ريقًا خشنًا من جديد مترددة فيما ستقوله: «ما نعرفه لم يصبح مفيدًا بعد أن رأيتكِ، وإن كانت أكثر النظريات إزعاجًا عنكِ أنكِ لستِ من هذه الأرض في الأساس، بل إلهة من أرض «بونت»».

صاحت آسينيت بغضب مهول: «ماذا؟! هؤلاء الغزاة يتجرؤون على نسب إيزيس العظيمة إليهم؟!».

استطردت بهية بسماجة: «في الحقيقة يدَّعون أن جميعكم انحدرتم من هناك، ونحن أحفادكم الحاليون مجرد غزاة، حتى إنهم اجتمعوا مع رعاع آخرين وتآمروا لسرقة ماء النهر ومنعه عنا، بجانب محاولتهم الدؤوبة وبلا يأس أن ينسبوا تاريخنا إليهم ويقضوا على عِرقنا».

انتصبت آسينيت بصورة مختلفة جعلت بهية تودع صورتها العاشقة الرقيقة في السابق، بل بدت ملكة معَدَّة بالفعل لهدف محدد، محارِبة شرسة غاضبة بأتون الجحيم.

قالت آسينيت: «وماذا فعلتم؟ قاتلتموهم بالطبع؟ قضيتم على آخر فرد من هؤلاء المشردين؟ أخبريني».

رفعت إيزيس كفها بحزم توقِف هجوم آسينيت ورد بهية وعيناها تدور فيهما نظرة أكثر رعبًا من السابق.

قالت إيزيس: «هذا يكفي، لن تقول شيئًا آخر».

استدارت نحو الباب محكم الإغلاق وبإشارة واحدة فتحته، ثم قالت: «أعتقد أني فهمت الآن سبب وجودكم في هذا الزمان».

تبادلت آسينيت وبهية النظرات بعدم فهم، واستدارت إيزيس من فوق كتفها تنظر إلى بهية بأسى.

وقالت: «لقد تخاذلتم وتركتم تعاليمنا ومبادئنا، أهملتم إرثكم وضعفتم فتكالب عليكم الأعداء، باهية».

أطرقت بهية أرضًا بخزي، ماذا تقول؟ فهذه هي الحقيقة!

ختمت إيزيس قولها قبل أن تختفي عن الأنظار: «لا تعبث بالماضي حتى لا ينقلب عليك الحاضر فيشوِّه المستقبل».

***

هرولت آسري نارتي خلف السيدة تشبك كفيها على صدرها، رأسها منخفض احترامًا بينما إيزيس تمشي بهدوء وعظمة تغادر القصر في وضح النهار بين الجنود الذين انحنوا جميعًا على ساق واحدة محتفظين بصدمتهم لأنفسهم.

صوت حفيف الأشجار التي تمايلت لتمنحها الظل عزفَ موسيقى عظيمة زلزلت الصدور، دنت عين الشمس مقتربة من سطح النهر بلا صهد، بل بردًا وسلامًا، صوت الناي صدح من اللامكان يحيط جسد إيزيس التي بدأت ملابسها تتغير إلى ثوب فضفاض بالأزرق الصافي كلون النهر، شعرها استقر فوقه شعر مستعار جديد أحاط كتفيها العاريتين بخيوط من الذهب، ورأسها اعتلاه تاج جديد على هيئة عرش ذي درجتين.

همست بهية التي تبعتها مع آسينيت: ««المقر»، تاج المقر الذي يجسِّد اسمها بذاته».

أطلت نظرة المعرفة من وجه آسينيت قبل أن تقول بنبرة صلبة: «نعم هو المقر، وارتداؤها له الآن يعني أمرًا واحدًا».

صمتت لبرهة قبل أن تواجه بهية وتكمل ببأس: «إيست لم تلبِّ ندائي، إيزيس هنا من أجل خطر أكبر يحيط بكيميت».

راقبت الفتاتان إيزيس بانبهار حين فتحت جناحيها باللونين الأحمر والأخضر حين ظهرا فجأة، ترفرف بهما على طول ذراعيها، طارت إلى الأعلى قليلًا ثم سقطت داخل ماء النهر الذي ارتفع من الجانبين، وكأنه حبيب اشتاق إلى محبوبته. غطست داخله واختفت تمامًا لدقائق طويلة.

ثارت وحوش النهر وبدأت في التدفق، يقودهم سوبيك الذي سبح نحوهم بسرعة جنونية، عيناه المخيفتان الشريرتان لا ترى إلا وجه آسينيت، التي رغم صمودها وبأسها ضربَها الخوف إلى الأعماق، وفي لحظة وقفت آسري أمام آسينيت تحميها بكل كيانها، ورأسها يشمخ بتحدٍّ في وجه سوبيك اللئيم الذي تحرك فكه بوعيد.

همست آسينيت: «الساحرة الأم هنا، آسري، لا تخافي، فلم يعد يشكِّل تهديدًا لنا».

أومأت آسري بثقلها المميز رغم قولها الحاسم: «وإن اجتمع كل السحرة لن يحميكِ أحد غيري مولاتي».

دمعت عينا آسينيت تأثرًا ورغبت في هذه اللحظة لو استطاعت كسر القواعد واحتضانها بكل قوتها، فآسري مربيتها وخادمتها، لكنها لم تعرف يومًا أمًّا سواها.

وكما اختفت إيزيس في عمق الماء، اندفعت بسرعة إلى الأعلى مبتلة بالمياه المبارَكة مغسولة من كل الآلام، لطالما كان في النهر سر الشفاء من كل الأسقام.

تجمد تقدُّم سوبيك وارتفع رأسه ينظر إلى إيزيس التي تطفو على سطح الماء متفاجئًا قليلًا لكن دون صدمة، وكأن وجودها في هذا الزمن أمر طبيعي!

صوته الخشن خرخر بثقل: «إيست حنوت وعت، «إيزيس السيدة الفريدة»».

نظرت إليه إيزيس بعينين تشعِلان المياه الراكدة.

وقالت وكأنها تبصق الحروف من فمها: «العجوز الخبيث، ما زلت هنا؟».

هز سوبيك رأسه بهدوء وصوته الخشن لم تتغير نبرته: «مرت دهور على لقائنا الأخير يا والدة النهار «إست چت إف»».

انخفضت إيزيس إلى الأسفل حتى غطس نصف جسدها في الماء من جديد، وبقيت مرفوعة الرأس في مواجهته تحدق إليه بنظرة خطِرة يعرفها.

قالت: «أنا أمُّ كل الملوك».

ابتسم فك سوبيك وعيناه تعكسان بغض السنين بينهما، ولكنه مقيَّد باحترام السيدة الفريدة.

رد: «إيست الصولجان التي تهيمن على السلطة في كل زمان ومكان».

زمَّت فمها بحنق أشد وكلها ترتفع تضرب الماء بثورة غضب، فارتفع كجدارين يحيطان جسدها الشامخ.

قالت: «حامية أرض الغافلين، موقظة الوحوش النائمين، لقد ضعفتَ يا سوبيك وانتهى عصرك».

سيطر على وحشيته التي تصرخ فيه بالاشتباك وقال: «ماذا تعنين؟».

أشارت إيزيس نحو جزيرة بيجة محراب الحبيب وقالت: «هناك خطر يهدِّد ماء النهر وفيضانه آتٍ من الجنوب».

تجمد سوبيك تمامًا وتسببت في إرباكه، لم تمنحه فرصة للتفكير.

استدارت بمظهرها الملكي وهدرت: «لقد تركتَ حماية الجوهر وركزتَ على الفروع بدلًا من أن تحمي مصدر وجودنا، لاحقتَ عاشقَين لم يرغبا في سلب الحياة وهدم كيميت كالغزاة القادمين».

أعقبت قولها بهدير الغضب كأمٍّ مصرية اكتشفت إخفاق أولادها بعد أن سهرت ليالي طويلة تعدُّهم لامتحانهم الأكبر.

نادت: «آسري نارتي».

هرولت آسري برعب ووقفت كتلميذ مذنب بين يديها.

فقالت لها: «سوبيك تنعشه دماء الأبرياء؛ لم ينتبه إلى الحدث الجلل، ولكن أنتِ ما حجتكِ؟».

فغرت آسري المسكينة فمها بعجز عن الإجابة.

قالت إيزيس: «أرسلي إلى جنود الملك الشجعان؛ أريدهم في التو والحال، وأخبريهم في مكتوب أن القادم مظلم إن لم يتحرك كل جندي مخلِص لصد العدوان وتحرير مصدر مجرى «حعب-رسي»».

***

الوهج الثالث

عندما تغلق الحياة في وجهك الأبواب تفتح لك نافذة، فتمسَّك بالأمل وحارب من أجل قضيتك، يومًا ما كل الآلام ستمضي، تشبَّث بالأمل، حارب الحزن!

***

لم يتوقفا عن التجديف طمعًا في الوصول السريع رغم معرفتهما بطول الطريق، سمح محب لنفسه أن يتأمل ضفاف النيل العامرة بأشجار الفاكهة على الجانبين مختلِطة بروائح الورود المزهِرة، القرى متناثرة بشكل منظم، الحيوانات تمرح في البرية دون خوف أو قلق من مهاجم، تتعايش مع البشر بسلام ووئام، لا البشر يهاجمونهم ولا هم يخرِّبون.

عندما يحل العدل على الأرض تُبنى الحضارات القوية كحضارة بلده، أخذه عقله مرغَمًا للمقارنة بين الآن والمستقبل: لا أبواق سيارات، لا موسيقى مزعجة، لا مترنِّحين على مراكب عشوائية يجوبون النيل، ولا ملوِّثات تغطي ضفتَي النهر، ولا صراعات بين طوائف الشعب.

صدح تساؤل ساخر: (كيف للماضي أن يكون أكثر تقدمًا ورخاءً بسحره عن المستقبل؟!).

قال أوناس: «أخبرني شيئًا حقيقيًّا عن المكان الذي أتيتَ منه».

زفر محب وأجاب بظُلمة: «الناس لم تعد تتذكر من هم ومن أي عرق قد انحدروا، لقد سقطت إنسانيتهم على جنبات الطرق تائهين».

أطرق أوناس لبرهة وعواصف من الفكر تضرب رأسه، تقبُّله لوجود محب وتصديق قصته عن المستقبل شيء سهل، فهو يؤمن بالسحر الذي سخَّره القدماء الذين سكنوا أرضه منذ زمن بعيد، ويصدِّق المعجزات رغم أن عقله لا يقبل ببساطة تيه أحفادهم عن ماهيتهم، الولاء والانتماء إلى الوطن كلمة السر التي تفسِّر كل تضارُب عالم محب الذي لا ينفك فيه الشاب عن إظهار غضبه من شعبه.

قال أوناس بحزم رغم هدوء نبرته: «الإيمان بأهمية أعمال الفرد في الدنيا توصله إلى نهاية طيبة، وهذا كافٍ لبناء مجتمع قوي لا يرضخ وينتمي إلى وطن ولا يبرحه، ينفي دخوله في الصراعات ويفني حياته في الدفاع عن وطنه وإنسانيته».

صمت لبرهة ثم استطرد: «من الواضح أنكم نسيتم سبب وجودكم في الحياة، سمحتم لها أن تسوقكم لا أن تتركوا أثركم فيها».

ضرب محب بالمجداف بجهد أكبر مفكرًا: «المشكلة أن الشعب انقسم بين صراع الانتماء إلى الأديان والهوية، وتناسوا أن الانتماء إلى الوطن وانتماء الشعب بجميع أطيافه وانتماءاته الدينية إلى تاريخ هذا البلد، قاعدة ثابتة إن أدركوها ستُشفى فوضاه، وهي أن الانتماء إلى دينك لا يتعارض مع انتمائك إلى وطنك».

التفت أوناس من فوق كتفه يتفحصه بهدوء وكأنه لغز عظيم يرغب بكل كيانه في فكه، ولكن الهزة العنيفة تحت خشب المركب أوقفت أفكارهما، ففي لحظة ثارت المياه التي تقبلت حملهما سابقًا وارتفعت دوامتان عظيمتان كجدار عازل بينهما وبين الضفاف، لقد كان النيل يحميهما دون أن تسقط مياهه على المركب.

تركا المجاديف وتوازنا واقفين يرهفان السمع إلى أصوات الوحوش المتداخلة، شخير وصرير وهمهمة تتوالى.

كلل الجمود وجه أوناس وأشرع سلاحه في الحال وهتف بتحفُّز: «أعوان سوبيك».

شد فم محب بخط مستقيم، لا وقت للتفكير ولا للندم أو الخوف، لا وقت حتى للموت، فهو في وسط معركة مصيرية.

أجاب وعقله يستجلب كل ما يعرفه عن تاريخ زُرِعَ داخل قلبه قبل رأسه: «سوبيك عون الظلال».

صارع المركب للبقاء طافيًا على السطح، وانشق النهر عن أعوان الجحيم، العشرات منهم يهاجمون وهدفهم واحد لا يرون غيره (أوناس الملعون سارق قلب جوهرة الملوك).

اشتدت يد أوناس على سلاحه ورفعه عاليًا ضاربًا رأس أول تمساح غرس أنيابه في جدار المركب، انقشع الجدار المائي أمام تكتلات جنود وأعوان سوبيك المتدفِّقين، ومن خلفهم دوامة أخرى عميقة تتوسع بغير حد، ظهر منها كيان عظيم مرتديًا تنورة حربية من اللونين الأبيض والأصفر، معلَّقة حول خصره بحبل عريض تداخل فيه اللونان الأزرق والأحمر، جذعه عارٍ وحول معصميه إسواران ذهبيان، ممسكًا بيد مفتاح عنخ وبيده الأخرى خطاف طويل.

تدلى فك محب وتبين وجه «ابن آوى» فوق جسد الإنسان الضخم، فوجد صوته يخرج من آخر حلقه: «أنوبيس».

صارع أوناس للبقاء فوق المركب يضرب بسيفه بكل مهارة وإقدام، ولم تهتز فيه شعرة لظهور الكيان المطالب به.

صاح مصححًا في أثناء صراعه: «بل الساحر وسيد العالم السفلي وسيد الأسرار أتى ليطالب بحقه!».

تراجع محب للحظة، محاولًا استيعاب ما لم يؤمن به قط من الأساطير!

وكأن أوناس فهم ما يدور بعقله فهدر بقوة: «لا تجعل قناعه يخدعك، إنه مجرد بشر سُخِّرتْ له عناصر الحياة».

دق قلبه بمعدل غير مسبوق، وتخلص من صدمته ليساعد أوناس الذي استطاعت التماسيح تقييده وإسقاطه داخل النهر.

بحث بعينيه حتى وجد غايته، سلاح حاد يشبه منجل المزارعين ولكنه أضخم ويصلح لاستخدامه، ودون تفكير قفز في الماء لمساعدة أوناس.

اشتدت المعركة واحتدم الصراع، وكلاهما يضرب المعتدين الذين بدا أن هدفهم سحب أوناس إلى تحت الماء متجاهلين محب في الأصل، ونجحوا حين كبَّلوا ذراعيه بين أنيابهم وسحبوه إلى الأسفل وقد سقط سيفه.

اكتفى الكيان بوجوده المهيب يخلِّف في القلوب رجفة الخوف والاحترام متضامنَين دون أن يكلِّف نفسه بالتدخل.

لم يستسلم محب، بل غطس سريعًا وأخذ يضرب بالمنجل الحربي رؤوس التماسيح المجنَّدة، حتى حرَّر إحدى ذراعَي أوناس الذي استدار بشجاعة مكوِّرًا قبضته وهوى على فك التمساح الآخر مرتين، حتى حرر ذراعه الأخرى، تحرك كقرش نهري بسرعة هائلة ملتقطًا سيفه وغاص في القاع وعاد ليحرِّر محب الذي هيَّجت دماؤه جنون التماسيح وهاجمته.

لاهثًا غير مستسلم ضرب بسيفه مرسلًا أحدهم إلى العالم الآخر، وقبض على ذراع محب وسحبه وراءه بهدف الوصول إلى المركب.

لم ينتهِ الصراع، بل بدأت غربان تنعق فوق رأسيهما تهاجمهما، وسر الحياة عاد إلى مساعدتهما بدوامته المحمَّلة بالطين الأسود لتبتلع أعوان سوبيك.

وصل محب وأوناس إلى المركب وقفزا فوقه.

انقضَّ أوناس بيديه على صدر محب هادرًا: «هذه ليست معركتك، لا تهلك نفسك بالتدخُّل».

هس محب بغضب ساخر: «لا داعي للشكر لإنقاذ حياتك».

ابتسم أوناس بلا ملامح للمرح وقال: «حياتي لن تُنقَذ يا فتى».

استنكر وسخر: «أصبحتُ فتى أيضًا!».

على كل حال هذا مقبول من رجل قد يكبره عمرًا بستة آلاف سنة أو أقل قليلًا.

تسمَّر يراقب للحظة أحد التماسيح يقفز في الهواء قبل أن يهبط بمخالبه خلف ظهر أوناس يمسك كتفيه ويسحبه من جديد.

همَّ محب بالقفز، ولكن الصوت الخشن الذي أتى من أعماق الجحيم أوقفه: «أنتَ لا تنتمي إلى هنا. نفِّذ أمره ولا تتدخل».

رفع محب ذقنه مسيطرًا على هزة خوف عصفت بصدره وقال: «وأنتَ تنتمي إلى هنا وهدفك أخذ روحه، فماذا تنتظر؟».

أسبل سيد الأسرار جفنيه وأومأ في وجهه مفصحًا بهدوء: «ساعته لم تحِن، أنا لا أتدخل في خطط القدر».

فتح فمه على متسعه باستنكار لاهثًا وهتف غاضبًا: «ساعته لم تحن ولكن لا بأس من إطلاق هؤلاء الوحوش لإنهائها!».

أومأ بصوته الثقيل: «اتفاقه واضح، ألا يقترب من سر الحياة ولا يسعى إلى جوهرة الملك مقابل حياتها أو حياته، واختار حياته ثمنًا».

خفق قلب محب بين أضلعه ونظر إلى أوناس الذي نجح في القفز فوق ظهر التمساح، وشقَّه من المنتصف بسيفه قبل أن يتحرك إلى الآخر مطلِقًا صيحة نصر لا يشوبها انهزام.

قال محب: «أي ملك؟ وأي والد هذا الذي يضع ابنته وسط اتفاق ظالم؟!».

قطب حاجبيه وتحول استنكاره إلى غضب أشد وتابع: «آمن الناس بكم وبحمايتكم، صدَّقوا أنكم تحمونهم بالحب، كيف قبلتم أخذ حياة إنسان خطيئته الحب؟».

أومأ بهدوء ولم يزعجه الاتهام، وقال: «المحارب تنكَّر لروحه واعتنى بروح محبوبته، قبِل باتفاق لم أُجرِه».

إذن لم يكن طرفًا فيه كما فهم.

قال محب: «لماذا أنت هنا؟».

وازن سيد الأسرار وضع الخطاف والعنخ وقال بصوت عميق أجش: «منذ خلق الصانع جوهرة الأرض نحن نحمي سر الحياة، أحمي النهر من المتطفلين والملعونين».

هدر بيأس قافزًا ضاربًا بمنجله تمساحًا آخر سينال من أوناس، ثم قال: «ساعده».

أجاب سيد الأسرار: «أنا أرشد الأرواح وأؤلف القلوب، مساعدتي تعني موته».

يئس وسلَّم أمره وانخرط من جديد في حرب لم يعرفها يومًا، لم يتمرس فيها عكس أوناس الذي وإن كان قد أنقذ ظهره مرتين فهو أنقذ مؤخرته عشرات المرات، ولكنه لن يستسلم لليأس، سيموت برضا محاوِلًا طرق أبواب الأمل.

وجاء الأمل عبر نعيق متفجع، نحيب شجي وأغنية تُعزَف بموسيقى الصدور، تلف الجميع، وجمَّدت الطرفين، وحوشًا وبشرًا!

دمدم أوناس بخشونة واحترام: «سنچ-إن-إيست...».

والتفت إلى محب الحائر وقال: «نطقتَ الحق، الآن صدقتُك ومحوتُ لحظات الشك».

حائرًا مستنزَفًا وخائفًا حدق محب إلى الجميع بعدم فهم، والجهل يتعاظم داخله دون عدل لعاشق المعرفة!

التف كيان سيد الأسرار في دوائر ودوائر حتى غطتْه مياه النهر تمامًا دون ثورة، وقبل اختفائه صوته هز الأبدان مختلطًا مع التفجع الشجي لصوت المرأة المهيب: «أمُّ الملوك أطلقت استغاثتها».

سكت قبل أن تتوهج عيناه نحو أوناس هادرًا بخشونة: «سر الحياة ينادي، الحياة ترغب في هزيمة الموت، الماء لا يريد أن يتخضب بدماء أبنائه، بل يرغب في دماء أعدائه».

اختفى سيد الأسرار كما انسحبت كل التماسيح منظِّمة نفسها داخل فِرق حربية كجيوش منظَّمة تمامًا، وأوناس الذي سحبه وقفزا فوق ظهر المركب بوجه مغلق وملامح بائسة وأنفاس لم تهدأ رغم الجروح التي نالت منه، والدماء التي انفجرت من كل جزء في جسده!

وكأن صراعه منحه وقودًا وعزيمة أكبر، رآه يسحب حبالًا طويلة قوية ويلفها في دوائر قبل أن يلقي بها حول عنق تمساح ضخم، ثم أمسك حبالًا أخرى وكرر فعلته، ورغم المهادنة التي لم يفهم محب المشوَّش أسبابها، فإن التماسيح جرَّتهم إلى الأمام قليلًا ثم رفضت القيد، فقطعت الحبال المعلَّقة في أعناقها تراقب أوناس لفترة وجيزة بعداء، ثم انسحبت تمامًا وغطست تسبح في الاتجاه الآخر!

وليزيد تخبُّط محب وعدم استيعابه لما يجري، حط طائر ضخم بساقين طويلتين وريش أبيض ناصع على مقدمة المركب.

وتحدَّث بلسان عاقل حكيم: «هل اعتقدتَ أن أعوان سوبيك سيساعدونك للوصول إلى مبتغاك؟!».

قال أوناس بنبرة كالخرير: «تحدث بما تعرف».

أحنى الطائر عنقه الطويل احترامًا وقال: «سأفعل أكثر من الحديث سيدي المحارب».

***

لا بد من الفوضى كي يستفيق السَّاهي من شروده.

أخذت بهية نفسًا مؤلمًا من أنفها تحدق إلى وجه آسينيت الشاحب، وقالت: «في أي عهد نحن يا آسينيت؟!».

رفعت عينيها الغائرتين المشتَّتتين بالفكر الخطِر وهست: «أنتِ المسافرة الباحثة عبر الزمن، فأخبريني بمستقبلي وماضيكِ».

رفعت بهية كفيها تحرِّكهما بقلة حيلة تهز رأسها بجهل وقالت: «لم يخبرنا التاريخ عنكم بعد، فرغم تقدمنا وبحثنا الدؤوب عن حكايا القدماء، لم نكتشف منها سوى أربعين بالمئة».

قصف صوت إيزيس من خلفها ببساطة: «لهذا ضعفتم، غرقتم لإثبات الماضي ففقدتم حاضركم».

بهتت ولعقت شفتيها مدمدمة: «تلاهينا بالتفاخر بحضارة قد كانت فغرقنا. ما أجمل الماضي وما أقبح الحاضر!».

اشتد الصراع على ملامح آسينيت ما بين الحدة والاختناق وقالت: «أخبريني بما اكتشفتِ، لستُ جاهلة، أكره الجهل».

اندفعت إيزيس نحو آسينيت وأحاطت وجهها بكفيها بحنان.

وبصوتها العميق الذي يعزف لحنًا من الحسرة والرأفة قالت: «جوهرة خُبئت داخل جوهرة، أي ملك هذا من يستطيع مقاومة إغراء امتلاكها!».

رفعت عينيها الواسعتين ببطء تحدق إلى وجهها بحيرة، وقالت: «لم أفهم، أجهل وأنا من تربيت على المعرفة «إيست»».

انعقد حاجباها قليلًا وقست عيناها تبادلها النظر، ودمدمت بغضب: «يريدون الأرض ويرغبون في حفيدة الملوك فوقها».

هزت رأسها بالرفض تقول بثقة: «هجمات الرعاع ليست جديدة علينا، ولكن... أنا؟!».

ابتسمت إيزيس بسخرية وأصابعها تشتد على وجه آسينيت وقالت: «طفلتي الغالية، أنتِ كنز تركه والدكِ مهمَلًا، فلماذا لا يفكر اللصوص في التسلل وخطفه؟».

دافعت بقوة وإيمان: «لم يهملني الملك، أبي تركني بدافع الحب وبقوة الخوف».

ربتت إيزيس على وجهها وتركتها تتحرك خطوة، ملابسها تتغير من جديد أمام أعينهما بالتدريج إلى رداء باهر من اللون الأسود، بينما رأسها تخلى عن تيجانه واكتفت بتزيينه بسلسال بسيط تدلى منه صقر رمز حورس.

ردت إيزيس: «والدك تلهى بغضبه وكل هذا ذنبه، فكر بعقل الملك وواجباته وما جهَّزك لأجله، ونسيَ أنكِ إنسانة، كيف ستمنحين الحب والعدل لشعبكِ وأنتِ تعيسة؟».

صمتت تحدق إلى بهية التي أجفلت حين اقتربت إيزيس من آسينيت تفرد كفها على صدرها.

رددت إيزيس بخشونة: «كيف لقلب متناهي الصغر أن يحمل كل هذا الألم وتطالبونه بمنح السعادة للناس؟».

انخفض رأس آسينيت بخذلان وهمست: «لقد خيَّرني وأخفقت في الاختيار، ربما لو اخترت واجبي ما كان هددنا الخطر».

ابتسمت إيزيس بلا مشاعر وقالت: «أبشع أنواع الكذب هو الكذب على النفس، فيرميك في متاهة لا خلاص منها ويأخذ معكِ الأبرياء».

ابتلعت آسينيت ريقها بصمت، وعلا صوت إيزيس بسؤال الحسم: «إن حدثت معجزتك وأعدتكِ إلى الماضي، ستختارين أوناس أم...».

تركتها معلَّقة، إذ قاطعتها آسينيت تهدر بقوة: «لو مُنحتُ الاختيار ألف مرة لن أختار سواه».

جاءت ابتسامة إيزيس هذه المرة حقيقية محمَّلة بالرضا وهي تقول: «لا تُبدي ندمًا بعد فوات الأوان لأنه لن يصلِح حياتك».

سألت بملامح قاتمة: «لماذا أنا من يريدونني؟».

فتحت إيزيس فمها المتصلب ببطء وقالت: «منذ فجر الزمان ويرغب الرعاع في زرع أشواكهم على وهج شمسنا، حاولوا التسلُّل والتعايش بيننا فنفرتهم الأرض السوداء الطيبة، جربوا السيوف فكان جنودنا البواسل لهم بالمرصاد».

صمتت لبرهة ثم أكملت بهدوء: «اختلاط النسب يا طفلتي لطالما أرسى ممالك وأوقف حروبًا، ويبدو أن هذا المعتدي توصَّل إلى حل أخير لخلط عِرقه بدمائنا الحرة».

شعرت آسينيت في هذه اللحظة بالحقد والقرف والغضب القادر على حرق بلاد بأكملها.

هست وقد فهمت الصورة كاملة: «يريدون ابنة الملك المنفية، الأميرة التي سترث العرش ليضع يده المعتدية على وطني».

أشارت إيزيس بسبابتها إلى الأسفل وعصفت تردد: «يريدون زرع أشواكهم على ضفتَي النهر، فإن سيطروا عليه ملكونا وأضعفونا ثم أهلكونا».

ظلت آسينيت صامتة تتنفس بسرعة وألم، إلا أنها تمكنت من النظر إلى وجه بهية الشاحب بضياع.

ثم قالت: «لن أكون مفتاحهم لتحقيق غايتهم، بحياتي إن سمحتُ لهم».

مالت إيزيس إلى الأمام فجأة تقترب من وجه آسينيت تسألها بتشدد: «إن وصلوا إليكِ ستكونين أسيرة خاضعة لسيطرتهم».

شمخت آسينيت برأسها الحر وارتفع أنفها الأبيُّ كما تشدد فمها، عيناها تضرمان بنار ضارية مشتعلة.

خلعت ثوب المُحبة وارتدت ثوب محاربة عاتية وقالت: «لم يُخلق بعد من يضع مصرية في الأسر، سأحارب ولن أستسلم للهزيمة».

رفعت إيزيس حاجبًا واحدًا معتدلة في وقفتها ومنحتها ابتسامة جانبية بطيئة.

ونظرت إلى وجه بهية وقالت: «الآن أنتِ حفيدة أمِّ الملوك يا آسينيت».

التفتت إيزيس مغادرة حين سمعت بهية تهتف بلهفة: «لمَ أنتِ موقنة بما تقولين؟ ومن هؤلاء المعتدين؟!».

تأملتها إيزيس لبرهة بوجهها الغامض ثم قالت: «لا تستعجلي المعرفة ولا تنبشي بما أتيتِ به محمَّلة، هذا حاضركِ فعيشيه، وانتظري أخذ الحكمة إلى مستقبلكِ... با-هية».

***

وقفت آسري نارتي تمسك بيدها بردية الاستدعاء المختومة بالشمع الأحمر ببصمتها الخاصة، وغلَّفت البردية بصولجان من لون الشمس نُقش فوقه مجرى مدينة أون.

أمرت أحد جنودها الموثوقين بحزم: «احرص على المخطوطة بحياتك وسلِّمها للملك أوسركان يدًا بيد، لا أحد أعوانه».

قفز الجندي فوق ظهر حصانه ناصبًا ظهره وشد أزره ثم قال: «سأسابق الريح سيدتي، أمرًا وطاعة».

سلَّمتها تضرب ظهر الحصان تحثه على الركض قائلة: «اختر طرقنا الآمنة، اتبع جريان النهر؛ سيحميك من كل الشرور».

انحنى فوق صهوة حصانه باحترام وشد لجام الفرس الذي صهل، ثم اختفى من أمامها تاركًا صوت الحوافر خلفه على الطرق المرصوفة ككل طرق مدن كيميت المتقدمة.

التفتت آسري-نارتي إلى كبير الجند المدجج بالسلاح المتحفز لحماية الأرض وأمرت: «اجمع الجنود المنتشرين والقريبين، استدعِ كل شاب قادر على استخدام السلاح من القرى القريبة».

رفع كبير الحرس ذقنه بثقة وقال: «تعلمين أننا جيش نظامي سيدتي ولا نقبل بغير الجند المَهرة، نحن قوة حماية الأرض السوداء وشعبها، وقادرون على صد الأعداء».

ابتعدت نظرة آسري-نارتي نحو جزيرة بيجة مصدر فيضان النهر وقالت بإقناع: «وقت العدوان يجب أن يتكاتف جميع الأطياف لحماية أراضينا، اطلب شباب القرى ستجد كل فرد فيهم يملك بداخله قوة جنديٍّ وحامٍ ستدهشك».

صمتت صمتًا مهيبًا وتابعت: «في أوقات الحروب تنصهر كل الحدود بين ما يجب وما يمكن، ولن يبقى إلا شعب يهرع لتلبية نداء حق الأرض التي منحتْه الحياة والهوية».

أومأ رئيس الحرس وإن كان بداخله غير مقتنع.

ظلت آسري-نارتي تنظر طويلًا نحو سطح النهر قبل أن تلتفت إليه.

قالت بصوت خافت هادئ: «امنح الجميع الحق لإثبات حبه وانتمائه، دعهم يحاربون العدو ليجددوا إيمانهم وليتذكروا من كانوا ومن يجب عليهم أن يكونوا».

قبض رئيس الحرس على سلاحه بقوة وزال تردده وقال: «كيميت تنادي وواجب على كلِّ كيميتي أن يلبي النداء».

ابتسم وجه آسري العابس بالحزم والقسوة دائمًا، وقالت: «الدرة المصونة المكنونة تحتاج إلى كل روح شجاعة تسكن أرضها لتحمي مصدر حياتنا جميعًا».

رد مستلًّا سيفه: «ونحن لروح كيميت فداء».

التفت كبير الحرس يحث جنوده المصطفين خلفه ملقيًا عليهم أوامره، واختار أفرادًا كمراسيل لدق طبول الحرب مستدعيًا الشباب الشجاع القادر، والجنود الحماة النظاميين إلى أرض مدينة «سونو» وكل مدينة قريبة مفكرًا: (سيعدُّون أنفسهم بكل ما هو متاح لمواجهة العدو، ولن ينتظروا قدوم المدد من جُند الملك بعد فوات الأوان. لن أغمض عيني لأصحو على أطلال).

***

ولكنه أغمض عينيه متغافلًا للحظات، فهدده الخطر على الجوهرة المكنونة.

إيست السيدة الفريدة محقة، لقد نسي الأصل وركز على الفروع.

فكر سوبيك وقد زال عنه قناع الثقة والتجبر وبقيت الذكرى الأسوأ على الإطلاق بينما يجلد نفسه، إنه هنا منذ بزوغ الفجر الأول لمهمة محددة أسندها إليه السحرة لحماية «حعب-رسيت» والوافي بحاجة «حعب- محيت»، أي حامي مياه النهر كلها.

وأتم مهمته لآلاف السنين على أكمل وجه، كان المستشعر الأول بالخطر، المدافع الشرس، ناصر ملوك كيميت على كل المتطفلين الغزاة الذين أتوا من خلف بوابة الحد والنهاية.

ترددت الكلمات في عقله صاخبة: وجَّه انتقامه ودفاعه إلى صغائر الأمور ونسيَ الأصل، كل الأصل وكل المبتغى والقضية في كيميت النهر، والنهر مصدر حياة كيميت، دونه ستنتهي حضارة شعبه، سيُقيَّدون عبيدًا أذلاء لمعتدٍ متبجح منذ الأزل، كل هدفه زرع جذوره الغريبة في جوهرة الصانع على الأرض.

نظَّم أولاده وأحفاده وأعوانه في صفوف طويلة سدت الضفتين المطلتين على جزيرة بيلاخ، وبدأ بإصدار أوامره بجسارة دون أن يزوره اهتزاز.

الثقة تُستمد منه، إنه ملك النهر، وإن استشعر جنوده وشعبه لحظة ضعفه لضاعت قضيته الأسمى.

خرج صوته يربض بقوة لا تُستهان: «فرقة الاستكشاف ستذهب على طول الطريق، تسبح بكل همة دون إبطاء وتأتي بأي أخبار عن العدو، أعرف من هم ولكن أريد عدد جندهم، وأسلحتهم وعتادهم، ومخططاتهم، وطرق حربهم، مَن أعوانهم، نقاط قوتهم قبل ثغرات ضعفهم، ما السبب الذي جرَّأهم بعد صدنا لهم آخر مرة ورددناهم إلى جحورهم بذيول الخيبة».

أومأت الفرقة التي اختارها بطاعة وانسحبت من فورها متجهة إلى هدف واحد نحو الرعاع.

وصاح من جديد آمرًا ناصحًا: «لا تهاجموا وحدكم، فالكثرة تغلب الشجاعة. تذكَّروا مهما تعرضتم للاستفزاز أنتم في مهمة خاصة لا تحيدوا عنها».

التفت من جديد ملقيًا أوامره بتشكيل بما بقي معه ليحيطوا جزيرة بيجة والقناتين المعاكستين من كل جانب بحالة تأهب قصوى، لقد دقت طبول الحرب، وهم سيحاربون من أجل أرضهم ومصدر حياتهم.

المعتدي يأتي حاملًا رايات الكره والعدوان، وأبناء كيميت كما كانوا دائمًا لهم بالمرصاد، مدافعين عن أرضهم، وسيردُّون كيدهم بكل وسيلة تغلب وسوسة الشيطان.

ظل سوبيك لدقائق وحيدًا بعينيه القاسيتين ذاتَي الدمعة الوحيدة الخادعة المعلَّقة بأجفانه تتجه نحو المجرى الذي يروي الوجه البحري.

نخر بشرٍّ متوعدًا: «كلاهما يريد ما ليس له، يرغب في نيل جوهرة الملوك، وأنا لا أتهاون في إنزال العقاب بالسارقين، أستشعر قدومك وأعلم باقترابك، أنا سوبيك حارس الحياة، عون الظلام، لك بالمرصاد يا صاحب اللعنة، بانتظارك يا أوناس، ولن أنسى هذه المرة، سأبقي عينَي ساهرتين لحماية الأصل والفرع».

***

أسدل الليل بستائره فوق القلوب الضائعة مرتين، مرة من وطن يقيم بينهما حواجزه وهما الغارقان في عشقه المتفانيان للدفاع عنه، ومرة بعيدًا عن المعشوقة التي تسري في دمائه وتسكن داخل الشريان، ومرة أخرى تُضاف ليندمج فيها مع أنفاس الغرام والوله في كليهما. ما الوطن إلا معشوقة مُزينة بضوء الشمس ووهج النجوم.

ما زالا يصغيان للطائر المقدس باهتمام ساردًا عليهما ما تناقلتْه الرياح من أخبار فور النداء المتفجع لإيزيس أمِّ الملوك وسيدة عوالم الإنس والوحوش.

أنهى طائر أبو منجل حديثه أخيرًا: «وهكذا سيدي المحارب الهجوم سيأتي من الجنوب، وغايتهم سفك الدماء».

أظلم وجه أوناس بطريقة مخيفة وهس بعد حدة الصمت: «لم يتعلموا درسهم الأخير، خيالهم المريض صوَّر لهم أنهم قادرون على استغلال الفُرقة بيني وبين الملك».

نقر الطائر بساقه الطويلة قبل أن يفرد جناحًا واحدًا ويحني رأسه بغرض الاحترام، رغم قوله اللائم: «الانقسام انهزام والفُرقة تجلب المطامع وتضعِف الصفوف».

تحركت تفاحة آدم في حلق أوناس هامسًا بندم: «انشغلتُ بهوى قلبي وحاربتُ لمطمع الفؤاد، ونسيتُ أن واجبي يحتم عليَّ محو سعادتي، لقد نذرت نفسي للدفاع عن الأرض وسعيت لأكون القائد الشجاع المخلِص بلا مطامع وهوى».

تردد محب قبل أن يضع يده على ساعده مؤازِرًا، فالتفت أوناس نحوه بهدوء.

قال له محب: «الندم لن ينفع ولن يغيِّر الصور المعتمة».

حدق إليه أوناس بنظرات ميتة شاعرًا بصرخة محتجَزة في صدره، يحتاج إلى أن يملأ الدنيا بها قبل أن تقضي عليه، صرخة محارب يريد الانقضاض على إله النماء الذي سبر أقدارهم.

عقد أوناس حاجبيه قبل أن يتحرك يعيد حزم أسلحته محاوِلًا تجاوز مشاعره، وسلَّح نفسه بالشيء الوحيد الذي يجيده، قسوة ووحشية المحارب لصد أعدائه، رغم قوله بخشونة: «ليتنا نملك مفتاحًا سحريًّا يعيد الماضي لنصحِّح حياتنا وقراراتنا بعد كشفنا للمستقبل المهدِّد بالهلاك، ربما لتغيير المصير».

رفع محب كتفيه بهزلية مرحه وقال: «أنا من المستقبل، وأنظر إلى الماضي عاجزًا عن النصيحة أو التغيير، كما أخبرتك، الندم لن يفيد، ولكن السعي إلى الإصلاح كل مطلبك».

التفت نحو الطائر الصديق ودمدم أوناس بنبرة خشنة مبهَمة: «أريد أن أعلم بما يجري في معسكراتهم».

انحنى الطائر وكأنه إنسان يرضخ لملكه رغم قوله الحكيم: «الأمر لا يدور حول ما تريده، بل ما يجب علينا فعله».

اتسعت عينا محب متسائلًا، بينما أوناس ساكن تمامًا رغم صراخ الوحشية على ملامحه، وأجاب الطائر من جديد حين نقر على المركب ثم ارتفع إلى الأعلى مطلِقًا صيحات استدعاء آمرًا بطلب أُجيب في الحال، وانطلقت أفراس النهر من كل مكان يحيطون بالمركب دون عدوان.

انخفض أبو منجل «البشاروش» مرفرفًا بجناحيه وقال: «أعوان سوبيك لن يوصِلوك إلى مبتغاك، لكن هؤلاء سيفعلون، فالساحرة «تاورت» أمرتهم بحمايتك كما يحمون صغارها من هجمات أعوان سوبيك».

ما زال المنطق يخون محب بعدم تقبله لما يحدث.

فردَّد بذهول: «تاورت!».

سمع صوت أوناس الخشن يهدر مقدِّسًا وكأن هذا سيوضِّح كل شيء: «آيست أطلقت تفجُّعها والكل يجيب».

والتفت نحو أبي منجل يشكره بإيماءة ويقول: «عد سريعًا بالأخبار واحرص على ألا تقع في أيديهم يا طائر النور».

نقر بمنقاره المقوَّس قبل أن يطير إلى الأعلى يتبعه سرب من الطيور، ميَّز محب أهمها وأضحها، طائر «الأبيس».

سمعوا البشاروش يقول: «لديَّ أعواني المخلصون أيضًا».

راقبت عينا أوناس السماء متذكرًا الطيور التي خضعت لغنائه وشجنت لألحانه على الناي لفقد محبوبته، كانت نفسها من تتبع طائر النور، ما زالت على العهد تساعده للوصول إلى مبتغاه.

التفت أوناس نحو أفراس النهر التي أطلت برأسها من الماء تستعد لأمره.

تحرك هادرًا: «يا فتى، ساعدني لأثبِّت عليهم حبال السحب».

ضاق محب مشذبًا، يرغي ويزبد وصاح غير عابئ: «اسمع، أحترمك لأنك في مقام جدي، ولكن عند هذا الحد اكتفيت، لا تنادِني بفتى، بحق الله عمري تخطى الخامسة والثلاثين».

ارتسمت ابتسامة سوداء على وجه أوناس رغم الموقف العصيب، قبل أن يقفز فوق ظهر فرس نهر بعد أن طلب منه السماح، وأخذ يربط حول جسده الحبل بهمة.

وأجاب بمزحة ساخرة يجيدها المصريون في أحلك المواقف: «ربما تكبرني عمرًا، ولكن بما أني أحد أجدادك كما تؤكِّد، لن أناديك إلا بالطفل المتقزِّم».

صاح محب بجعورة مزعجة متفحصًا طوله الذي يُعد ضخمًا بمقاييس عالمه: «لطالما كرهتُ تنمر المصريين الذي يجري في دمائهم بالفطرة».

نهره أوناس: «هيا أيها الطفل ولا تزعجني، لدينا معركة مصيرية تنتظر».

التفت محب حوله بغيظ سريعًا ما انقشع حين لمح الحيوانات التي شدت الرحيل نحو الجنوب، فصائل مختلفة، وحوش ضارية، أسود وفهود، ذئاب وثعالب، جياد برية، قطط برية مقدسة غير مستأنسة،

وحتى البط والأرانب.

هذه المرة لم يُصدم، فقد مسح من عقله جانب الصدمات بعد كل ما حدث. تأمل مرة أخرى موقفه مع انطلاق الآلاف كأفراس النهر التي أمامه، وبالطبع العشرات منهم كانوا يسحبون مركبهم إلى الأمام وكأنه عجلة حربية تجرها الجياد، وبعضهم دفعوه من الخلف لزيادة السرعة، هكذا رحلتهم لم تستغرق أيامًا، بل يومًا وليلة على أقصى تقدير.

عاد أوناس إلى جواره هادرًا بفخر وامتنان: «لطالما كان لمصر سحر يحميها».

ضحك محب بقلب صاخب فخرًا مزهوًّا حتى شعر أن السلام الوطني يهدر في أذنيه.

وقال: «لا يوجد شيء جديد، المصريون يصنعون التاريخ بكل زمان».

وما إن استقرت أنفاس أوناس قليلًا رغم فؤاده الذي يعصف بغير هدى، حتى تمتم بصوت قاسٍ جامد: «معبدي لن يكون مقبرتي كما رتبتُ، بل سأسجل فيه كيف وأدتُ الرعاع المتطلعين، سأكتب فيه عن معشوقتي آسينيت».

انقبض قلب محب واهتز صدره بشعور مكروه، وتذكر ضحكة بهية الخجِلة، بهاء بهية، وحياء بهية الذي شده، بهية، بهية.

نهر نفسه بقوة مبعِدًا الصوت الغاشم الذي يردد اسمها بصدى مؤلم: «كفى».

وسأل: «لماذا تحب آسينيت؟».

لماذا؟! وهل للعشق أسباب؟ إنه سهم غادر ينفذ دون حساب.

فكر أوناس ولكنه أجاب مترنمًا بنغم العاشقين: «حبيبتي ليس لها ثانٍ، أجمل الجميع، تشبه نجمة الصباح عند شروقها مع مطلع عام سعيد، ساحرة نبيلة في مظهرها، عندما تسير على الأرض تأسر قلبي بجمالها».

تلونت عينا محب بالغيرة المحمودة واسم بهية يطوف في عقله من جديد، نافيًا بقوة أنه يُكِنُّ لها أي نوع من المشاعر، ربما تأثر فقط بالعاشق الولهان!

انقض عليه محب باستهجان يقول: «احصل على نصرك أولًا وبعدها لا يهم ما يحدث، ركز على النصر وحماية النهر».

قال أوناس بنبرة تمس القلب: «كلتاهما محبوبتاي، وما الأرض إلا معشوقة كبرى تجسدت فيها المعشوقة المرأة. النصر يُنسى مع الهزائم إن لم نخلِّده على جدران المعابد. سأترك قصتي هناك إن نجوت، وإن تشرفت بالرحيل فهذه وصيتي، ستسجِّل كل ما حدث عند «روتي» حتى يأخذ التابعون لنا الحِكم والمواعظ».

ثم صمت لبرهة مغلِقًا عينيه بقوة وقال بنبرة خشنة: «يجب أن تخلد قصة عشقي مع آسينيت فوق الجدران».

عمل عقل محب سريعًا للحظات محاوِلًا ربط أبي الهول والمقبرة التي ينوي تحويلها إلى معبد نصر!

توسعت عينا محب بقوة معيدًا موقع المعبد الذي وجد أوناس فيه أول مرة، والموقع الذي عملوا فيه لأشهر دون الوصول إلى شيء حاسم، ثم...

قرقر صوت محب بينما عيناه تجحظان على متسعهما، وذكرى سخريته من مذكرات بهية تضربه إلى الأعماق.

قال: «يا الله! أظن أنني بدأت أستوعب لماذا نحن هنا».

***

اختفت إيزيس بعادة أصبحت لا تزعج بهية وتتقبلها آسينيت باحترام، السيدة الفريدة، تظهر وقتما تريد وتختفي حين تقرر، ويبقى السؤال الخطِر يجوب عقل بهية: (لقد حذرتْها أكثر من مرة ألا تسرد من عالمها شيئًا حتى لا تشوِّه الماضي العظيم وتُغيِّر المستقبل بشكل غير محمود العواقب، لذا هل يا تُرى ستتدخل إيزيس التي أتت من زمان آخر وإن كان للوطن نفسه؟).

الراحة شيء خيالي لا يدركها عقل المفكر!

اتقد عقلها وخلعت رداء الوهن والجهل، ثم اندفعت بقوة نحو النافذة عيناها تتطلعان بين جزيرة بيجة والمعبد تبحث عن موقع بعينه، أرض خالية بينهما تتيح تشييد مقبرة!

(لا)، صححت لنفسها وهي ترفع رأسها نحو السماء تحملق في النجوم اللامعة وقد حل الليل، ليست عالمة فلك، ولكن دراستها للتاريخ وربط الحضارة المصرية بمواقع النجوم والأبراج جعلاها تتعرف عليها بغير صعوبة، السماء غير السماء، وتراص النجوم مختلف، وبالتفسير العلمي تعرف أن تراص النجوم من العهد الذي قدمت منه تشكَّل بنجوم برج الحوت، بينما الآن الأبراج المرصوفة التي تتوهج أخذت شكل برج الأسد.

انتقل بصرها نحو آسري نارتي التي تُلقي أوامرها على الجنود، وأضاء عقلها بمفرقعات العيد ما بين الانبهار والعجب حين التقطت مهابة سوبيك وتنظيم التماسيح الذي يشبه جيشًا نظاميًّا يلقي عليهم أوامره، وكلٌّ منها يتحرك آخذًا موقعه مناضلًا!

ضخ كل عصب في جسدها وقفزت من فوق المصطبة ونصيحة إيزيس تهدر بعقلها من جديد: لا تنبشي فيما أتيتِ به.

قالت: «أين ملابسي؟».

وهرعت سريعًا إلى مكانها متجاهلة صوت آسينيت المتسائل بقلق.

سحبت بهية بنطالها وفتشت سريعًا في كتابها، مررت أصابعها على الأوراق تقلبها بلا هوادة، تحدق إلى الخرائط التي رسمتها بيدها لموقع أسوان الذي عملت به والموقع الممتد من أبي الهول، محاوِلة الربط بينهما، بينما عقلها اشتعل وتذكرت ربط محب الساخر بتمثال تلك المرأة والشبه بينهما.

امرأة تحمل كتابًا حجريًّا...

رطمت بهية نفسها على الأرض، ساقاها لم تحملاها من هول الصدمة، يداها أسقطتا مذكرتها في حجرها، نظرها شاخص إلى البعيد.

لسانها يردد بذهول: «يا إلهي أعنِّي على الاستيعاب! لقد كنا هنا، فكيف يتحول الحاضر إلى ماضٍ ويبقى المستقبلان مجهولين على حد سواء؟!».

هدرت آسينيت آمرة: «با-هية ماذا وجدتِ؟ تحدثي».

فتحت فمها بعجز ثم أغلقته، وبيد مرتعشة التقطت مذكرتها تفتحها على آخر صفحة دونت فيها ما وجدوه آخر مرة، لوحة اكتشفوها مختبئة وراء تمثالَي الرجل والمرأة، تلك اللوحة سردت قصة كاملة بلغة مختلطة بين الهيروغليفي المعروف، ولغة أخرى لم يفضِّل المصري القديم استخدامها في تدوين أسراره، لغة تعرفها وترجمتْها، لم يأخذها أحد على محمل الجد بسبب الغرائب التي ذُكرت هناك، فما يعتقدونه في العصر الحديث أن المصري القديم بطبعه كان ميالًا لسرد القصص ومزجها بأساطير تُخلَّد، ولكنها الآن تعرف أنها لم تكن أساطير، بل واقعًا باهرًا يلجِم العقل البسيط.

الوقت لم يمهلها ومحب للاستكشاف الأكبر!

وبالطبع لن يقروا ترجمة مجرد باحثة آثار منتدبة ويأخذوا برأيها على وجه السرعة، بل يجب أن يخضع الجدار إلى ترجمة كبار علماء الآثار، وبالتالي سيستغرق شهورًا وربما أعوامًا قبل أن يخرج إلى النور ويثبت في الحقيقة!

- با-هية!

ما بين التردد والدهشة حدقت إلى وجه آسينيت الحاد، ليست أميرة مسجونة أو ملكة تحارب قدرًا معدًّا، بل بطلة المعركة، المحاربة التي دُوِّن انتصارها العظيم.

همست بهية: «أعتقد... أعتقد أني أعرف ما يجري وسبب قدومنا إلى هنا وما يربط كل واحد فينا بالآخر».

ندمت بهية، فكيف ستصرِّح بما تعرفه دون يقين؟! كيف ستكسر آسينيت الوردة الجميلة بالقسوة التي أعدَّها لها قدرها؟!

تمالكت نفسها تكمل بوجل حذِر: «أوناس ليس قائد الشجعان ولا المحارب الجسور، بل ستثبتين أنتِ أنكِ العين الحارسة والمضحية بكل شيء لنزع الشوك من وهج الشمس مولاتي».

تراجعت آسينيت خطوات بقلب تزلزل وصدر طُعن بالخناجر دون عدل، حركت رأسها برفض قاطع لخطر باتت تعرفه قبل أن تطلق صرخة قسوة مجنونة.

قالت: «لا، لا، لن أكون إيزيس أخرى، لن أسمح لعشقي أن يرحل وأبقى وحيدة للألم».

وقفت بهية متوجهة إليها، ملامحها تتلبس لأول مرة الشجاعة وصوتها يتشح بالقوة القاطعة.

قالت: «من ينسَ الماضي يُلعن بتكراره، ووالدك نسي ماضيه، لقد أثبت الملك أنه مصريٌّ حقًّا، فنحن ملعونون بنسيان هزائمنا وتكرارها».

***

وكأن محب وبهية اختارا الاتحاد بتفكيرهما في هذا الوقت متحاورين، مترابطين رغم المسافات، ورغم المشاعر المبهمة التي يحملها كلٌّ منهما للآخر.

تذكَّر محب منذ مدة قليلة عندما اكتشفا ذلك الجدار الذي اختبأ خلف تمثال الرجل والمرأة الغريبين وأخذ عقل بهية، تسمرتْ أمامه ليلَ نهار، تخط على أوراق العمل تارة وتدوِّن بمذكراتها تارات، تهرع نحو بعض المراجِع الخاصة بهم ثم تعود حبوًا مكلَّلة بالهزيمة، فالتاريخ المكتشَف حتى عصره لم يتحدث عن هذه المعركة.

لقد أخبرتهم بتردد عن حلها لألغاز الجدار، معركة دارت في أرض النيل الجنوبية عند الموقع الذي كانوا فيه لثلاثة أشهر، أي تحت جزيرة فيلة، عند ملتقى القناتين المتفرِّعتين، الذي حدَّته جزيرة بيجة.

معركة قادتها أميرة قوية، فُجعت وقد رأت محبوبها يُقتَل أمام عينيها ممزَّقًا بين فكَّي الشرير سوبيك، أميرة كانت الهدف والمسعى للعدو في المقام الأول، أرادوا أسرها بغرض الزواج حتى يتولوا حكم كيميت بصورة شرعية، ويضعوا أيديهم عليها أخيرًا.

عصرَ عينيه وفرك جبهته بقوة مستدعيًا حجة الأفروسنتريك، أن بعض ملوك وملكات مصر كانوا من أصحاب ملامح الزنوج!

يعرف بالطبع أن هذا غير حقيقي ولم يرِد في بردية واحدة مكتشَفة، ولم يدوِّنه المصري على جدران المعابد قط، ولكن عقله عقد المقارنة، فربما حجتهم أتت من مطامعهم القديمة في النسب، لطالما كان النسب أقوى وأضمن سلاح لإحلال السلام، وتقبُّل الغريب لهدم ممالك، وبذرِه لبذرة غريبة لممالك أخرى.

إذن الحرب كانت حقيقية، والغارة التي قادتها الأميرة يتبعها فيها جنود من البشر ومن الأسود والذئاب، وخضع لها أسياد النهر وخدامه من تماسيح وأفراس النهر، وساندها فيها أسياد السحر- كانت واقعًا.

بالطبع شكَّكوا في ترجمة بهية، وبخاصة مع اللغة التي لم يستخدمها المصري القديم، وهو بطبيعة مسؤوليته أخذ منها ما وصلت إليه لينظر فيه ويعرِضه على المسؤولين مرجِّحًا -إن صدقت بهية بترجمتها- أن المعركة المدوَّنة ما هي إلا أسطورة أخرى دوَّنها القدماء المصريون كالكثير من الأساطير التي تعبَّدوا بها.

عقله أعاد بتركيز أول لحظة عبرا فيها الجدار واصطدامه بإيزيس الغاضبة، مطالِبة بالسبب الملِح لاستدعائها، مصرَّة أنه يجب أن يكون خطرًا محيطًا بمصر، ثم زجها به نحو منفى أوناس!

الآن الصورة المظللة اتضحت، لقد كان أول هبوط له في حجرة المامیسي، أي معبد فيلة قبل نقله في عصره طبعًا، إذن الموقع الأول كان هناك، والموقع الذي وجد فيه أوناس المكان نفسه المحير الذي علموا أنه يرتبط بموقع أسوان لسبب مجهول.

ولكن المجهول أصبح معلومًا، وها قد فكَّ أحجية الحكاية، فهل يتجرأ ويترجم؟

رفع محب رأسه نحو أوناس الذي يحدق إليه بدوره محاوِلًا أن يستشف ما يفكر فيه!

صخب مزعج بات ثقيلًا على قلب محب، فقد أحب الشاب الشجاع والرجل الذي رقت له الطيور وخضعت له الوحوش، أحبه كأنه صديق عزيز يعرفه منذ الطفولة، ولكن عقله الواعي يرفض التدخل لتحذيره من مصيره المحتوم، ولن يجرؤ على تغيير مجريات القدر.

إن تغيَّر تفصيل واحد في التاريخ ما كنا وجِدنا قط، هذا ما يؤمن به محب، ولكن ضميره يقف حائلًا بينه وبين إيمانه، دارت الأفكار المضطربة في رأسه إلى أن بزغت إلى عقله فكرة أخرى: بهية على حق.

الفتاة تلمع كالذهب، وانجذابه إليها أصبح الآن مفهومًا، أنثى يتفتح عقلها تشاركه أفكاره وإيمانه، امرأة ستفهم سر شغفه وما دفعه لينذر حياته لصفحات تاريخ أجداده. هز رأسه بقوة قافزًا من مكانه ضاربًا سطح المركب بعنف.

قال: «ركِّز كيف ستخرج من هذه الورطة، كيف ستساعد إنسانًا بريئًا دون التدخل في الأقدار؟».

صوت أوناس الثقيل أمره بنبرة باترة: «لديك شيء تعرفه، أفصح».

هدر محب مندفعًا: «لستَ ذاهبًا لهزيمة لعنتِك، بل إلى قدر محتوم وفقدِ حياتك».

لم تتغير ملامح أوناس القاسية الباسلة، وإن اختفى منها المرح الأسود، ظل يحرك دفة السفينة المندفعة بسرعة نفاثة تشق المياه.

وقال: «أعرف قدري، لكن هي ماذا تعرف عن مصيرها؟!».

التف محب حول نفسه بعصبية يهتف بصوت أجوف خشن: «إنها هدفهم، هذه حربها التي ستنجو منها، بينما أنتَ لن تشارك حتى في زهو النصر. عُد يا أوناس فهذه ليست معركتك».

عبس أوناس وقال: «أذكِّرك بأنك من أخبرتني أن شرف الموت ونحن نحارب أهون من حياة الهزيمة والخذلان».

اقترب محب منه وشمخ برأسه معترفًا: «أيُّ شرف سينفعك وينفعها بموتك؟ أخبرك الصدق، كلامي وقتها كان خبيثًا أنانيًّا، لم أفكر في مصيرك لحظة، بل في وصولي إلى حجرة العودة إلى أرضي».

ابتسم أوناس بغموض وقال: «أحترم صدقك، ولكني لن أخضع لتلاعبك من جديد، آسينيت في خطر وسأحرق العالم من أجلها قبل خنوعي المقيت من أجل بضع سنوات في الحياة».

- لن تنفعها ميتًا.

- ستعرف أني حاولت وهذا كافٍ.

حاول محب بقوة: «سأذهب إليها بنفسي وأحذِّرها، فلا خطر عليَّ».

صدره أفرج عن غضبه يقاطعه: «أتريد مني التراجع وأنا أعرف أن شعاع شمسي في خطر؟ أميرتي مولاتي وحفيدة العرش، آسينيت ليست معشوقة سأقدم حياتي من أجلها بطيب خاطر، بل مسؤولية محارب، القائد الذي كنته وما زلت تعهَّد بحمايتها لآخر قطرة من دمائه».

كرر محب بإصرار: «لن تنال الفرصة العادلة للدفاع عنها».

أسبل جفنيه على عينَي صقر مفحمتين بالإصرار ونار الغضب وقال: «سأحرقهم جميعًا من أجلها، وسأقضي على آخر معتدٍ فيهم قبل أن يسقط سلاحي».

أُسقط بيد محب ولم يجد حجة أخرى يدفعه بها للتراجع.

حينها قال أوناس بصوت أجش خشن متفهمًا صراعه: «الحياة فانية والموت أبدي، نحن نقدس الموت ونبني من أجله كل جميل يا محب، لا تغفل عن إيمان أجدادك».

تراجع محب يمسك بحافة مركب الشمس الحربية، وحدق إلى لون النهر المتوهج بالأزرق الصافي وأفراس النهر تقطع بهم الأميال في ثوانٍ معدودة.

همس بصوت مظلم: «الواقع يهدم الأسطورة، والعلم يمحو الجهل، والوفاء يهزم السحر».

ومع الواقع والإيمان والسحر الذي يحيطهم، هل يتعشم أن يتغير مصيره بمعجزة؟! هل لديه أمل أن يهزم خادم الظلال بقوة عشقه لمحبوبتيه؟!

***

دقت طبول الحرب ونُفخ في أبواق تمني النصر، موسيقى أطربت الفضاء الفسيح وآلات إيقاعية ووترية ونفخ، تحرك هواء الأرض بالغبار الذي ارتفع رغم الطرق المرصوفة تحت أقدام الخيل والجيش النظامي المهيب، تزاحم الممشى ما بين جنود محترفين مدججين بأسلحتهم، وشباب بواسل انضموا من مدينة أون وكل المدن المجاورة دون ذرة تردد أو حتى انتظار استدعاء من جند الملك.

مصر نادت والجميع هبَّ مُلبيًا النداء متحدين، ومبعِدين سخطهم وفرقة أفكارهم وطوائفهم، تجمعوا على قلب رجل واحد وهدف واحد، حماية كيميت من كل عدو متربص والدفاع عن مجرى مانح الحياة.

الموت الموعود ثمن بخس أمام رفع رايات النصر، الحياة منسية والموت شرف، الدفاع خالد وإن كانوا مجرد أرقام منسية، ليسوا ملوكًا ولا وزراء ولا قادة ستُخلَّد أسماؤهم على جدران المعابد، ولكنهم ونسلهم سيعرفون أي تضحية وشجاعة وإقدام تحلوا بها.

- لقد بلغنا نصف الطريق.

قالها قائد الملك الشجاع والأعلى رتبة «إيزي»، مستشاره الأمين الجديد لوضع خطط حربه وتنظيم هجومه الدفاعي.

تأمل الملك أوسركان مليًّا وجه قائده المخلص «إيزي»، الذي لم يخيب ظنه منذ أن أسند له قيادة الجيش منذ لُعن أوناس ونُفي. كل جندي في جيشه يقدِّسه ويثق فيه وفي شجاعته، ولكن رغم قلبه العجوز ما زالت غصة مريرة تنغِّصه لفقد أوناس الشجاع، وفكر في أنه لا أحد مهما بلغت بسالته وذكاؤه، قوته وقسوته، رأفته ورعايته، يشبه أبدًا قائده الهمام، قائد ينحدر من أصل رفيع صغير تربى في جنبات سكنات الجيش، مخلِص لسلاحه ووطنه وبيت الملك الحاكم كما كان والده وأجداده من قبله.

بُعد أوناس يفطر قلبه ويوجِعه بشبح الخيانة، أوناس خان عهدًا بالحماية، خان قواعد ملكية وبروتوكولات أُسر الحكام، عندما سمح لفؤاده أن يتورط ويطاوع ابنته العاشقة المخلِصة، أميرته الجميلة، حبيبته وهج الشمس ونور القمر، ابنة دللها سرًّا وأصقلها علنًا، جهَّزها لواجبها الذي وُلدت من أجله لتعتلي العرش بعد أن تختار من داخل أسرته الملكية زوجًا كما ينص العهد، ليبقى نسله صافيًا ويظل حاكمًا.

اسودَّ وجهه الحكيم بغضب، طعنته ابنته في الصميم، فقد اختارت الحب وتنصلت من مسؤولية وُلدت لأجلها وفقط، كيف تجرأت؟ وأيُّ عشق أغواها؟!

قال القائد: «سيدي، هل تأمر براحة الجنود؟».

هدر الملك بسلطة: «لا، لن ننال الراحة حتى نرد هؤلاء الرعاع إلى جحورهم».

جادل القائد ولكن بأدب ناصحًا: «ولكن يا مولاي الجنود تحتاج إلى الراحة كما عظمتك».

أومأ برأسه بهدوء وقال: «راحتي سأنالها عند بيلاخ. والآن أخبرني، هل لديك جديد؟».

الملك وحامي الكهف المقدس أوسركان يعتلي صهوة حصانه مرتديًا ملابسه الحربية كباقي الجيش، وإن تميَّز بتاج العرش الذي زُين بجلوس حورس فوقه.

هبط احترامًا عندما شرع في التحدث مع الملك المعظَّم، وأخفض رأسه قليلًا بانحناء احترامًا قبل أن يشمخ من جديد وهو يشد بسلاحه.

وقال: «آخر ما وصل إليَّ من المستطلِعين أن ملكهم الأهوج وصل بهم إلى حدود مملكتنا المحفوظة».

أظلمت عينا الملك والأفكار تتقلب في رأسه بانفعال ظاهر على ملامحه.

إلا أن صوته كقاع المحيط هادئ عندما سأل: «هل وصل المرسال إلى سكان بيلاخ؟!».

مَلِكه يتآكله القلق على ابنته يعلم هذا، فمنذ أتاهم مرسال حراس الحدود الذين عينهم على جميع أطراف البلاد بالخبر اليقين عن عودة المشرَّدين للتوغل ومهاجمة منبع النهر وهدفهم الأوحد أسر ملكة المستقبل، لم يهدأ بال الملك الحكيم الهادئ في العادة، بل لم يرَه يذوق رأفة الموت القصير «النوم»، وهبَّ عن عرشه آمرًا بتحرك الجيش من فوره، حتى إنه رفض نصيحة الحكماء بعدم قيادته للجيش في هذه الحرب.

أوسركان «روتي»، أسد محارب لم يتوان يومًا عن قيادة حرب، ولكنه منذ اعتلاء العرش تخلَّف عن بعض المعارك مكتفيًا بإرسال القائد أوناس، الداهية الشجاع، وهو قائد جديد للجيش لم يشعر ولو لمرة واحدة أن الملك أصر على المشاركة لعدم ثقته به، وإنما هلعًا على ابنته.

الملك يشعر بالذنب وكل انفعالاته رغم سيطرته عليها تحت قناع الحكمة والجمود تخبره بهذا.

لم يسعد إيزي كما يُفترض عندما أُسند إليه منصبه الجديد بديلًا لأوناس، الذي خدم تحت سلطته لسنوات، لم يشعر يومًا بالحقد أو الحسد تجاهه، بل مثل جميع الجنود وطوائف الشعب يثق في معلمه وقائده، يبجِّله ويتمنى إن سمح الملك بمشاركة أوناس ليدخلوا المعركة تحت رايته، أوناس لم يخسر معركة قبلًا ولن يفعل الآن، وبخاصة أن محبوبته في خطر.

أجاب باحترام قاطعًا أفكاره حتى لا يطيل انتظار الملك: «في الواقع سبب طلبي للراحة أن هناك مرسالًا قطع الطريق بإعجاز حاملًا لنا رسالة من المحترمة آسري-نارتي، يبدو أنهم علموا بطريقة ما قبل وصول مرسالنا».

هتف الملك بخشونة مجلجلًا بصوته الجامح: «مُر بنصب خيام الراحة وأحضر مرسالها في الحال».

دب إيزي قدمه باحترام ورفع يده نحو جبهته إشارة عسكرية قبل أن يستدير بمشية منظَّمة شاقًّا الصفوف مناديًا بالمرسال، في حين أوقف الملك جواده الأسمر من سلالة أسياد الجياد، جواد قوي شامخ وضخم كملكه، كم تشبه الجياد أصحابها!

فكر الجندي المسكين مقتربًا لاهثًا من الملك منتصبًا في لباسه العسكري، وسلاحه المربوط على خصره كما قوسه الشهير المعلَّق على ظهره، تقدَّم منه الملك بلهفة واضحة رغم اتزانه، فهرول الفارس الشجاع راكعًا تحت قدميه رافعًا ذراعيه بالرسالة إلى الأعلى.

تحدث بإجلال: «المحترمة آسري-نارتي أمرت بتسليمها لجلالتك يدًا بيد، ولم أفرِّط في الأمانة، قطعتُ الطريق بأقصى سرعة، لم أتوقف لبرهة، وعلمت أن عظمتك في طريقك إلينا بالفعل، لذا غيَّرتُ اتجاهي».

ربت الملك على رأس جنديه بحنو، فالملك على عرش كيميت أب لجميع الرعية.

وقال: «أحسنت صنعًا. ستُكافأ».

سمح الجندي لنفسه برفع رأسه هادرًا دون تكلف وقال: «المكافأة التي ترضيني رؤية رأس ملكهم معلَّقًا على أسوار بيلاخ، ليس عقابًا على تجرئه على مهاجمتنا، وإنما لمجرد تفكيره في جوهرة الملوك أميرتنا».

ازداد بريق الغضب في عينَي الملك وقال: «أمنيتك مجابة».

أخذ الرسالة وفضَّ ختمها المعروف وأخذ في قراءتها، تغيرت ملامح الملك ما بين الحيرة والعجب، والإصرار!

استدار أوسركان ينظر إلى جيشه، جند مستعد يرتدون وجوهًا لأسود وذئاب تعكس أرواحهم، بعتاد متقدم وأسلحة متنوعة برع مهندسوهم في اختراعها وحداثتها، عجلات حربية، مجانيق لقذف الأحجار وحمم الغضب، نظرته الممتدة لم تحصر حتى ربع عدد جيشه المكدَّس، ربما لو كان ملكًا أهوج ومغرورًا لوثق في نصره، وبخاصة بعد ما قرأه في رسالة مربية ابنته الموثوقة التي تحوز مكانة عنده لم يصل إليها أحد من قبل، ولكنه مؤكد لم يفعل، فالغرور آفة للهزيمة.

التفت يطوي الرسالة بحرص ناويًا ألا يطلِع عليها أحدًا، سيكتفي بسرد بعض المعلومات ويخفي الجزء الخاص بظهور الأم المقدسة إيست، لن يرمي في قلب جنوده الاطمئنان لأنها بجانبهم حتى لا يتقاعسوا، يجب أن يبقوا مشتعلين غاضبين، فبعض القلق لن يضر، التكاسل والاتكال يجلبان دمار الممالك واجتياح الرعاع.

التفت من جديد نحو إيزي وقال: «نصف يوم يلتقط الجنود أنفاسهم ثم نعد الرحال دون تباطؤ، يجب أن نسابق الرياح سعيًا إلى الوصول».

نفذ القائد قوله دون جدال، وشرع في شق صفوفه يطمئن على جنوده ويتفقد حالهم من أصغر رتبة حتى أكبرها، مبدأ آخر تعلَّمه من أوناس: لا تهمل جندك، فقد يأتيك النصر المحقَّق محمولًا من أضعفهم، وأضعفهم روحه تآخت مع شراسة الأسود.

وقف الملك يطل عبر الطريق المترامي نحو المدينة البعيدة باتجاه الجنوب، يرى بقلبه معبد التفجع الذي احتوى ابنته.

همس قلبه بألم: «ترينني وحشًا قاسيًا، قد تكرهينني يا وهج شمسي، ولكنك يومًا ما ستعلمين أن واجب الملك هزم قلب الأب وأجبره على ما لا يطيق، ضحيت بكِ لأنقذ أبنائي من الشعب الذين ينتظرون ملكة مستقبلهم دون ذيول خيبة، تحيط عزمهم وثقتهم برجاحة عقل من ستحكمهم، إن لم تقدِّمي تضحيتكِ من أجلهم ومن أجل رخاء وزهو مملكتهم فكيف سيمنحونكِ مباركتهم؟!».

أغلق الملك عينيه لبرهة يتذكر اكتشافه لحكاية العشق التي دارت في جنبات قصره، همسًا واشيًا يدور بين الخدم والحراس، القائد الموثوق الذي أسند إليه مهمة تدريب الأميرة وصقل قدرتها الحربية سمح لنفسه بالوقوع في عشقها وسرد الشعر في حبها، وجوهرة القصر سلَّمته فؤادها، وغرقت في محبته، وأخلَّت بعهدها للمعبد، وتناست وعدها لأمير من نسل الأسرة يمكِّنها من الحكم من بعده.

ثقل صدر الملك بجمر أنفاسه، لقد وقع في فخ الغضب، وخيانته الوحيدة لنفسه أنه لم يتحكم في سخطه، ولم يحل الأمر بحكمته المعتادة برفق وتمهل، بل وضع ابنته في فخ الاختيار معتمدًا على رجاحة عقلها أمام كهنة العرش، وهكذا وصل بهم الحال إلى هنا، كان يعتمد على اختيار آسينيت لشعبها وعرشها، ولكنها اختارت لعنتها، وبقوة صرخت بعشقها وأعلنت تنازلها عن كل شيء من أجل حب كوى قلبها، فلم يجد خيارًا إلا القسوة.

لكل إنسان زلة، أليس كذلك؟! لديه جرائمه، خان أبوَّته مخلِصًا لمُلكِه وأسرته.

همس الملك بصوت خشن غلبته عاطفة الأبوة المتخاذلة: «آفة النساء الحب، بلاؤهن في قلوبهن، وأنتِ يا صغيرتي لم تختلفي كثيرًا عن جداتكِ، لعنة إيزيس منذ آلاف السنين خيَّمت فوق رأسكِ، لن أسمح لكِ بالتفجع يا آسينيت، لن تحيي بجسد ميت وقلب مريض بمعشوق قد فارق الحياة».

***

(الحكماء يخدمون نزوات الملوك).

هكذا فكر الحكيم المسكين «هيمانوت» وهو ينقِّل بصره في مجلس الملك «جان تتديم».

جلس الملك صغير السن متهور الفكر فوق فراش غُزل من صوف النعاج، وحوله مجلس حربه والمتنطعون تحت شعار حكماء عرشه، الذين شجعوا أطماعه بالاعتداء على الأرض السمراء حلمهم القديم، أطماع تشكَّلت على هيئة هجوم متكرر على الأرض المتقدمة «كيميت»، أرض الإله في معتقد أبناء الأدغال المجهولة، حروب لم ينالوا منها إلا الموت والفقر، وقد كانت الهزيمة رفيقتهم ولم تكلَّل بالنصر قط!

في الواقع ليست المرة الأولى التي يقررون فيها الهجوم على أرض العجائب والعجب، في تلك الأرض التي تسلل إليها متخفيًا في رحلات مجهولة، فأُغرم بها وتمنى العيش تحت سمائها متمشيًا بين ربوع حضارتها وعدلها، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه.

لن ينكر هيمانوت بعمره الطويل وجسده الأسود العجوز الهزيل حلمه القديم، ولكن بعد أن شهد حروبًا طويلة لأجداد الملك المتهور، آمن أن دخول هذه البلاد عصي، بل مستحيل، ما دام هناك شعبٌ أبيٌّ يحرسها.

لقد حاول أن يقنع الملك بالحجة والمنطق بالعدول عن عدوانه، وبدلًا من سلب حضارة بلد ونزع عرشه، يلتفت إلى بلاده علَّه يُعلي من شأنها، ولكن جان-تتديم يظن أن خطته الحربية ونياته في أسر الأميرة ومصاهرة أسرة ملك كيميت قد تحقِّق مبتغاه ومطامع شعبه!

سمع أخيرًا الملك الصغير يسأله بغرور: «هل ما زلت عند رأيك يا هيمانوت حتى بعد أن رأيت عظمة جيشي؟».

انحنى الحكيم بجسده العظمي الضئيل مفكرًا قبل رده، لا يرغب في الخداع وتشجيعه مثل أعوانه، ولا يملك أمر نفسه ليصر على رفضه خوفًا من بطشه.

ولكن في النهاية أجاب بتروٍّ: «ملكي، النصيحة واجب عليَّ، لقد حاربت ضد جيوشهم ونجوت بأعجوبة، إنهم منظَّمون معتادون، يعرفون فنون الحرب وبارعون في الدفاع، مؤمنون أنهم أصحاب الأرض والنهر».

دب قدم جان في الأرض الصحراوية واقفًا يثير زوبعة التهور كما سحاب الأتربة الصفراء.

زنهر بحقد: «أرض أبناء الإله للإله، والإله وُلد في أرضنا نحن، ونحن من نرويهم بدمائنا. كيميت لنا وأنا من سأعيد مُلكنا إلى أيدينا».

هز الحكيم رأسه بالأسى الرافض.

ورغم عدم إيمانه بمعتقدات يعتنقها جميع أفراد شعبه وضَّح: «لن يسمحوا لنا بالدخول أو العيش بينهم، الحرب خاسرة، نصيحتي أعِد خططك قبل أن يُكتب تاريخ حكمك بالسواد». (كالملوك من قبلك) أسرَّها في نفسه.

ولكن الشاب المتهور أخذ منه الغرور مأخذه، ورتع إيمانه بأحقية الأرض في صدره باليقين الخادع.

ضرب الأرض بحربته المصنوعة من شجر الغابات بفخر وقال: «لقد وحدتُ القبائل المترامية بعد أن هزمتُهم، ولم أخسر حربًا ولن أفعل، الأرض السوداء لي، سأرثها بما عليها وأورِّثها لأبنائي من بعدي، وستذكر الحكايات أني أعدت أرض أبناء الإله إلى حكامها الأصليين».

قال الحكيم: «ولكننا لم نحكمها قط».

اقترب جان بغضب أسود نحو الحكيم المسكين يضربه برمحه ويقول: «سنفعل، سنعيد ما لنا، شيَّدوا حضارتهم بمياهنا وأنا سأعيد ما أُخذ منا».

تألم العجوز إثر الضربة الغاشمة، لم يحترم مكانته أو عمره.

ورغم اختفاء القوة من صوته الذي تحشرج واختنق أضاف دون تفكير: «ستُسال دماء المساكين الذين وعدتَهم بالجنان ورسمتَ لهم أحلامًا لن ينالوها، فهذه الأرض ستجلب علينا الوبال، آخر مرة اكتفوا بدحرنا وهذه المرة أنا أحذِّرك أنهم لن يكتفوا بالدفاع، بل سيجتاحون إلى أرضك ليضمنوا سلامتهم إلى الأبد».

احترق وجه جان وكوِّرت شفتاه الغليظتان بالجنون صارخًا: «خائن جبان، خذوه من أمامي واحبسوه في أحد الأقفاص ليكون عبرة لمن يشكِّك في حكمتي حين ندخل الأرض منتصرين».

همهم بعض الحكماء بالرفض، وحاول الأكثر الدفاع عن الحكيم العجوز الذي لم ينطق إلا بالحق، ولكن الطامعين كان لهم الوقع النهائي مصدِّقين على قرار الملك.

بينما العجوز هيمانوت اكتفى بالابتسام وقال: «الانحدار إلى قاع الجبل أسرع من الوصول إلى القمة، وأنتَ تحفر قبرك وقبر جنودك أسفل جبالهم».

زفر بهوجاء مجنونة وتنقلت عيناه بين جنوده الكُثر، قبائل قد وحَّدها في سنوات قصيرة، جنود لا يفقهون إلا القتل الوحشي، رجال لا يعرفون إلا طعم ولون الدم. وماذا يريد أكثر ليهزم هؤلاء المتخايلين في ردائهم المتدثرين بدروع حديدية حامية؟! بينما هو وجنده عراة الصدور السوداء، وحوش بأقدام حافية، لا يستر عوراتهم إلا غطاء من جلد الماعز، وأسلحة حربية موجَّهة إلى قلوب أعدائهم.

خطته غلت في رأسه، ربما ذلك المتواطئ مع الكيميتيين لديه حق من ناحية، ولكنه مؤمن أن مهما بلغ عتادهم لن يستطيعوا أبدًا منافسة الجيش الجرار للقبائل التي توحدت لأول مرة على يده، أعداد كالجراد، وجوه كالحة من لفحات الشمس، وبطون توحشت جوعًا وقادرة على أكلهم أحياءً، أما عقولهم المحدودة التي لا تفكر إلا في البقاء، فهو وحده القادر على السيطرة عليهم وإقناعهم بما يريد.

امتدت شفته الغليظة وانتفخت أكثر كما انتفخ أنفه المسطح، وتوجهت عيناه الحادتان نحو بلاد العجائب، بلاد زُرع فيه حلم امتلاكها منذ أن كان مجرد صبي يلعب في نصاب خيام والده الملك، ربما والده هُزِم كجده من قبله، ولكن أحدهم لم يملك ذكاءه وقوته، ولم تتطرق إلى عقله خطته شديدة الدقة!

لن ينتظر الهجوم كما يعتقدون ليحصل على أميرة بلاد أبناء الإله بعد أن عرف بنفيها بأمر والدها ولعنته لقائده الباسل، لا، لن ينتظر الحرب ليحسم الأمر، بل سيرسل فرقة من أمهر وأشرس جنوده المتوحشين ليأسروا أميرة كيميت ويأتوا بها، سيتمم زواجه بها أولًا قبل دخوله وإخضاع أبيها ليسلمه حكم البلاد كما تنص عهود مملكتهم.

توسعت ابتسامة جان وتعالت أكثر بصوت ضحكة خشنة مجلجلة وهو يقول: «أميرة كيميت لي كما الأرض والعرش والنهر، حتى يصبح النهر من منبعه إلى نهايته عائدًا إلى مالكه الأصلي، لي وحدي».

وجمالها الذي يتحدثون عنه سيكون جائزة إضافية قد ترضيه لتنازله وقبوله الزواج بأسيرته وتشريفها بحمل أبنائه، سبع إشراقات للشمس وستكون الجوهرة المكنونة ملكه، تسكن العراء بدلًا من القصور!

***

الوهج الرابع

مذكرتي العزيزة، هل ما زلتِ تذكرينني؟!

أنا العانس الفخورة بهية، العانس المضرِبة عن الزواج بحجج وهمية، من برعتْ في إطلاق الحجج لتوقِف حال نفسها، أنا بنفسي، ولكن... هناك نبضة جدَّت وخانت العهد، خالفتُ قراري الحاسم بعدم توريط قلبي مع رجل أبدًا!

لكن ذلك اللعين الساكن بين أضلعي تورط ودق قليلًا، ولِمن؟! رجل مستفز، ساخر غير مبالٍ، يصيبني بالحنق ويشعل في عقلي كل التصورات الإجرامية للفتك به عندما يطوف وجهه في أفكاري، فما بالك

عندما يتجسد أمام عينَي بتلك الضحكة البغيضة، وطابع الحسن في طرف ذقنه، وعينيه المضيئتين بنجوم الليل؟!

تبًّا! تطرفتُ من جديد بأفكاري، ما لي وما لمصيره؟ فليحترق ولن أبالي.

أهذا إعجاب أم بداية لتوالي خفقات القلب؟ وكيف يتطور الغل والبغض إلى الحب؟! أيُعقل أن يكون الحب هو الرغبة الإجرامية في قتل المحبوب؟!

مهلًا عزيزتي، سؤالي من باب الفضول، إياكِ وأن تظني بي الظنون، فأنا على عهدي لن أكسره، وقلب حواء الموصَد لن يُفتح لجنس آدم، لن أغويه بالتفاحة ولن أهبط معه من جنة راحة البال إلى أرض شقاء العاشقين.

مذكرتي، أظنني أهذي وقد علِقتُ بين عَظمة الماضي وازدهاره، وتدنِّي الحاضر بخيباته.

***

في هويد الليل وجنحه تحركت الأشباح تعتدي على خلفاء الأرض، ظلال تسللت تنشر رائحة عفنة تزكم الأنوف بخبث النيات، ستة من ذوي الأجسام الضخمة تسللوا ببراعة إلى داخل المعبد المهيب، مستغلين انشغال الجميع بتجهيزات الحرب القادمة، غافلين أن الحروب لا ترفع شعار وضوح النيات، بل اللعب بلا شرف، فالبارع في فن الخديعة منتصر دائمًا.

تحركوا في الظلام الدامس الذي لم يبيِّن من ملامحهم إلا بياض أعين كبيرة، وكأنها أعين جن يترصد للانقضاض على الإنس وسحبهم معه إلى باطن الأرض في جحيمه.

بعضٌ منهم بقيَ في الخارج على بعد آمن حتى لا يقبض عليهم جنود كيميت المنتشرون في الأرجاء، والباقي أشاروا إلى بعضهم قبل أن يصعدوا الدرجات واحدًا تلو الآخر بخفة حيث غرفة الأميرة الموصدة، ولم يصعب الوصول إليها، بل كانت واضحة وضوح النهار وقد نُقش وزُين الطريق الموصِل إلى مخدعها بالذهب.

للحظات أصابهم الذهول المرافِق للغل والحسد من عظمة البنيان المشيَّد، وحداثة البيوت، وعظمة الحضارة، مقارنةً بين ما هم في حضرته وبين خيام صوف الحيوانات التي يعيشون فيها، حتى الرائحة الزكية التي تفوح من أرجاء القصر تشل الحواس وتلهب الصدور وتُثير الغبطة والسرور بالمقارنة برائحة القبور التي ترعرعوا فيها.

لم يُعجبوا برائحة النظافة، ولم تألف أعينهم الأثاث المنظم، من يعِش في العفن والجهل عمرًا ينفُر المعرفة، تساءلوا ساخرين كيف لهؤلاء المدلَّلين أن ينتصروا على قبائل ألفت وحشية قطعان الحيوانات!

عند وصولهم إلى الباب الموصد تأكدوا أن الأميرة بالفعل محبوسة كما أكد جواسيس ملكهم، إذًا سيكون من السهل القبض عليها واصطحابها إلى الملك جان-تتديم، كسروا قفله بمؤخرة حربة أحدهم بسهولة ليتقدم كبيرهم الذي أُخِذَ من جديد للحظات بروعة معمار وأثاث الغرفة الملَكية، شيء لم يألفه!

فراش مُعد بالحرير الملوَّن، قطع من الأثاث لم يعرف حتى ما الغرض منها، شموع مشتعلة في كؤوس الذهب، مائدة رُصت عليها أنواع متعددة من الطعام لم يذُقها من قبل.

بنهم لم يغادره الحنق تسلل واقترب ينهل من الطعام بجشع علَّه يسد جوعه.

– قائد «سينغو»، هل نقبض عليها الآن؟

مسح سينغو شفاهه الغليظة الممتدة إلى الأسفل وقد عُلق عليها حلق ضخم قبل أن يلتفت نحو الجسد الراقد وسط الفراش يغط في النوم العميق مرتاحًا.

تحدث بلغة قبائلية غريبة «الجعزية»، بصوت خشن يغرغر وعيناه تشعان بنظرة حقيرة: «لم يسبق لي لمس أميرة».

توتر التابع قليلًا من انعكاس الجشع في عينَي قائده، أمر ليس أخلاقي.

ذكَّره بالقواعد: «الغنيمة ليست للجنود، إنها مِلك لجان-تنديم، وقريبًا ستكون مِلكتنا».

هز كتفيه العريضتين بلا معنى راميًا ثمرة مانجو بعد قضمها بقشرها.

تشدق بصلافة وقال: «لم تصبح بعد، سيكون شرفًا لي تدنيس جوهرة هؤلاء المتخاذلين الأوغاد، أليس كذلك؟».

احتار التابع في أمره، ولكنه صرَّح بخفوت خاضع: «أكَّد الملك على وصولها سالمة إليه، فما له محرم مسُّه».

توسعت الابتسامة على الشفاه المتدلية، وركن حربته جانبًا متسللًا بخفة أفعى نحو الفراش.

قال: «بل ستُمس بكل الصور حتى تصل إليه».

رفع كفه الضخمة وحطت أصابعه الغليظة على وجه الضحية النائمة بصفاء وخلو بال، وكأنه لا حروب تدق على الأبواب وهي شعلتها الأولى التي أضرمت نيرانها بفعلتها مع قائد والدها لتؤجج أطماعهم، لقد كسرت قواعد مملكتها، فلمَ النواح الآن لتجديد نياتهم بتحطيم دولتها واسترداد مُلكِها لصالح أرض الإله؟

فُتحت عينان واسعتان واهتزت أهداب الجمال النائم، وعلَقتْ صرخة مجنونة في حنجرتها كما جنون عينيها المرتعبتين، صدمة هزت جسد الأميرة إلى الأعماق وصراع للنجاة مقاوِمة.

جسد ضئيل صغير جدًّا، عكس ما تغنى الجواسيس بجمالها وعظمة بنيانها الأنثوي، والقائد سينغو لم يهتم، لقد أراد الملك الأميرة وها هم أولاء سيحصلون عليها. مال وقبض بيده الأخرى على جسدها مسيطرًا عليه بكل سهولة رغم شراسة المقاومة.

تحدث بلسانه الغريب: «ستأتين طوعًا أو مرغَمة، الاستسلام حل سهل «بايب»».

لم تفهم شيئًا! بأي لغة يتحدث هذا المتخلف؟

فكرت بصمت والرؤيا تتضح شيئًا فشيئًا وقد ذهب النوم وانقشع تاركًا الذعر الصافي بداخلها، حركت عينيها على أجساد كالطود، ضخام بشكل مفزع، وجوه سوداء قاحلة من أثر شمس حارقة عاشوا فيها عمرًا في العراء دون غطاء، أجساد عارية تمامًا عدا أحبال من الخوص والقش سترت عوراتهم.

ابتلعت ريقًا جف مفكِّرة بذعر أنهم مؤكد لا ينتمون إلى سكان كيميت، وقد رأت جميع طبقات الشعب وعرفت ملبسهم ومظهرهم.

فكرت بنواح: (يا نهار أسود! يا ليلة طين، هؤلاء من الأعداء، لقد وقعتُ في أيدي متوحشين)، من يظنونها؟!

توسعت الشفاه المتدلية البغيضة معيدًا بلسانه: «ستمشين معي بايب أم أحملكِ؟ شخصيًّا أفضِّل حملكِ على أكتافي».

خبط بيده على كتفه العريضة المخضبة بالعرق، فاشمأزت وتجمدت مكانها وعقلها كالعادة يتطرف ويعمل سريعًا باحثًا في أصل اللغة محاوِلة ترجمة ما يقوله.

تمتمت أخيرًا من تحت كفه بصوت مكتوم وعيناها تتوسعان بإدراك: «بايب، تعني فاتنة، هل دعوتني فاتنة؟! الله يسترك يا أخويا».

عقد حاجبيه الموشومين بلون أبيض يناقض صبغة وجهه محاوِلًا هو الآخر الفهم، ولكنه يعلم أنه لا طريق للفهم بينهما، فهي العدو، تنحدر من سلالة العدو الذي سطا على الأرض السوداء المزدهرة المذهلة التي يجب أن تكون من حقهم، هكذا يعرف، هكذا ترعرع على الحلم والتمني.

همس أحدهم محذرًا بغضب، متلفتًا حوله بخوف من كشفهم: «استغرقنا وقتًا، احملها ودعنا نغادر قبل كشفهم أمرنا».

هدر صوت أنثوي مميز بلغتهم رغم ثباته وبرودته من خلفهم: «لا أظنك ستفعل، ليس على قدميك على الأقل».

التفت الخمسة نحو الجسد الفارع الواقف بباب الجناح، وقد قبعت تحت قدميها جثة سادسهم منحور العنق متوسع العينين.

تجدد الغضب بحقد أسود، كيف فعلتها؟ حتى إنهم لم يسمعوا صراعًا أو ارتطام الجسد بالأرض.

بغلٍّ كبَّل سينغو جسد الأميرة سريعًا بالحبال مكمِّمًا فمها بقطعة من القماش.

علا صوت سينغو ساخرًا: «لم نعرف أنهم يائسون حد تسليح النساء».

تصلبت عيناها كعينَي الفهود في قوتها تحرك سيفيها إلى الأعلى في الهواء، تتلاعب بهما قبل أن تطرقهما ببعضهما بعضًا مصدرين صليلًا كصليل صوتها.

وقالت: «جاهل، عدم المعرفة يوحي بأنك عارف، وهذا خطأ كما هو واضح، وإلا ما أغراك جهلك لتطأ مملكة الملوك».

التفَّت حول نفسها بدوائر مرتفعة عن الأرض عدة سنتيمترات قبل أن يهبط سيفاها بمهارة على رمح وجَّهه إليها، فقسمته.

ونبرتها تصهل بالوعيد: «جاهل، إن كان الجندي المصري هز الأقطار فنساؤنا أعدن تشكيل الأرض».

وفي ثوانٍ لم تفهم بهية المقيَّدة فوق الفراش ما يحدث، جفناها المتوسعان حد أن جرحهما الهواء دون أن تشعر يحدقان إلى الشراسة المرسومة على وجه آسينيت بانبهار، بالفعل آسينيت لغز، مهما استغرقت في دراسته لا تظن أنها ستفهم أبعاده يومًا، كتاريخ أجدادها القدماء!

كيف لامرأة أضعفها الحب كما رأت، وكسرها العشق تتغنى في وصف المحبوب، وتناهض للعودة إليه، تقدِّم تنازلًا وتنبش الأرض عن حلول فقط لتنتمي إلى كنف رجل -أن تكون بكل هذه البراعة الموصومة بالوحشية؟ بل كيف للكيان الضعيف أن يحمل كل هذه القوة والجحود؟!

عيناها المسبلتان المغويتان بدلال حب كرهته بهية الآن تشتعلان بالجحيم محتقنتَين رغبة في الدم الخالص، فتحت صورة الاستسلام الخادعة، كانت آسينيت محاربة بارعة، وبسيفيها نحرت عنق أحد المعتدين.

انقلب المكان في لحظة هوجاء، رأت آسينيت تحارب وحدها أمام خمسة من الجنود الأوغاد الضخام، تلتف ببراعة وتصد بمهارة، أصوات اللهاث تعالت وعرق الأجساد سال، وبدت المفاجأة على وجوههم مأخوذين بالمحارِبة الجسورة.

راقبت برعب كيف استطاع قائدهم إسقاط سيفَي آسينيت ورفع رمحه يوجِّهه نحو صدرها، ولكنها مالت على يديها تستند على الأرض لتلتقط الرمح بساقيها، ثم رمته إلى الوراء قبل أن تستوي وتلتقطه بيديها منتصبة.

سخرت بخفة: «أوه، أخطأتَ الهدف، هل أرسلوك حقًّا لأسر الأميرة؟! أمر لطيف، هذا يعني أن أمهر جندهم فاشل!».

اشتعلت عينا سينغو بالجنون مصدِرًا أمرًا للبقية بالهجوم، ولكن آسينيت في لمح البصر ألقت بالرمح في صدر أحدهم بدقة فأردته قتيلًا، وعلق جسده بين الرمح وأحد الحوائط، قفزت من جديد تنحني دون ركوع لتلتقط سيفها الملكي المزين برمز إيزيس وحورس.

سخرت بأسف كاذب: «لقد حذرني أوناس مرارًا من أن ضربتي غشيمة لا تفرِّق، آسفة، لقد قصدتُ تعطيله لا قتله».

احتد الدم في عينَي سينغو، وطاف جنون الحقد من تلك المحارِبة الماهرة، وما يقهره براعتها في استخدام لغتهم وهم يجهلون لغة هؤلاء المحتلين لأرض أبناء الإله، فكيف تتحدث بلغته؟

وهذا السؤال كان يطوف في ذهن بهية أيضًا، ولكنها لم تستعجبه، لطالما احتوى الإرث المصري على عجب العجاب تاركًا العالم في الحيرة، كما أنها تعلم جيدًا أن المصريين القدماء أحبوا الاطلاع والبحث

والتقصي عن العالم الذي يحيط بهم، لم يكونوا جهلة، بل جذوة العلم بدأت عندهم وانتشرت في بقاع الأرض.

ورغم ذعر بهية فإنها بطريقة ما اطمأنت لوجود آسينيت، مؤكد ستخلِّصها منهم، كما أنها على يقين أن إيزيس والبقية سيظهرون في أي لحظة، ستعيش إلى يوم آخر حتى تصب لعنتها فوق رأس محب سبب المصائب والذي ألقى بها في أرض العجائب!

صاح سينغو بما يشبه عواء حيوان وقع في أسر صياد ماهر على غفلة: «سأقتلكِ».

استقامت آسينيت تمسح سيفها من الدم بكف يدها بعد أن أخرجته من قلب جندي ثالث سقط تحت قدميها بضجيج مدوٍّ.

غمزت بعبث مناقِض لمظهرها الغاضب كالجحيم وقالت: «رجل؟ تعالَ وافعلها».

جالت عينا سينغو بنظرة مخيفة على الجثث المُلقاة في أرجاء الغرفة.

رفعت آسينيت كفها تدعوه إلى الاقتراب رافعة حاجبًا واحدًا، بينما انحنت كتفاها إلى الأمام وأخذ جسدها وضع الهجوم.

قالت: «تعالَ لا تخف، سيفي رحيم لن يعذِّبك، سأرسلك إلى العالم الآخر سريعًا، فغرضي ليس التمثيل بالقتلى، إنما الدفاع».

اندفع بحقد نحوها رافعًا خنجرًا بيد ورمحه باليد الأخرى يناوشها، فبرعت في الاشتباك مع كل ضربة منه تفلت منها بمهارة، تلتف وتطير في الهواء وفي لحظة يجدها خلفه فيقفز على عقبيه موجِّهًا لها ضربة، فتميل إلى الأسفل تتفاداها.

لن ينكر إعجابه، فلم يسبق لأحد أن وقف أمامه وصمد كل هذه المدة!

لوَّحت بسيفها ثم انقضَّت واستطاعت أن تجرح ركبته كما ترك علامته على ذراعها، لم تهتز للجرح وحاولت الانقضاض، لم يتحرك، بل قفز مستغلًّا حركتها الملتوية وقد فهم أخيرًا تحركاتها، قبض عليها وثبَّت ساعده على نحرها ووضع خنجره على قلبها.

قال: «باهرة ولكنكِ لستِ ماهرة، حركة أخرى وسأقتلكِ».

بينما صدرها يهبط ويعلو سخرت: «أتمنى قول ذلك عنك، ولكنك أخرق عديم الإحساس».

اشتعلت عيناه وهمَّ أن يغمد خنجره في قلبها، لكن الألم في باطن فخذه جعله يتركها بعنف، وقعت آسينيت أرضًا، لكنها وقفت من جديد تغمز بعينها باستهزاء ملوِّحة بسيفها، ربما كبَّلها في حركته تلك وكان قريبًا من النصر، ولكنه غفل عن سيفها المزروع في جسده.

أمرته بصلف: «حاول من جديد، ربما ستنجح».

لا، لن يفعل، لم يرَ من قبل جنديًّا بهذه المهارة، وهذه أنثى لعينة، فكيف الحال بذلك «الروتي أوناس» عاشق الأميرة الذي يتحدثون عنه وقد صرَّحتْ قبلًا أنه من دربها؟ أترى الحكيم هيمانوت على حق في

التخوف من هؤلاء الجنود؟!

تابعت: «للربح أحيانًا عليك التنازل واستخدام عقلك».

قرر سينغو التراجع مرسلًا إشارة إلى جنوده المتبقين بعدم الانصياع لاستفزازها، وفي لحظة كبَّل جسد بهية الساكن ووضع خنجره على نحرها.

سكنت بهية بذعر كما تجمدت آسينيت وتراجع الاستخفاف عن ملامحها.

قال: «ستلقين سلاحكِ وتقيِّدين قدميكِ ويديكِ بنفسكِ وإلا نحرتُ أميرتكِ».

اتسعت عينا آسينيت بالإدراك، يظن با-هية الأميرة، فمن يظنونها؟!

هدر صوته لبهية التي ارتعدت أوصالها: «مُري جاريتكِ بالاستسلام وإلا قتلتكِ».

ضاقت نظرات آسينيت ورغمًا عنها جلجلت ضحكتها. هي جارية! جَهَلة، ألا يعرفون أن أرضهم لم تعرف يومًا قانون الجواري وأن نساءهن ملكات وأميرات مكرَّمات بمكانتهن في العائلة الحاكمة أو من عامة الشعب؟

لم تنفِ ما فهمه ولم تهتم بالتوضيح حين قالت بهدوء بارد: «لن تجرؤ على أذيتها إن كان ملكك المختل يرغب فيها بكل هذا الجنون، إنها خلاصُه وفرصته للسيطرة على ما هو بعيد عن مناله».

لاح التشفِّي على وجهه حين رد بعنف: «العالق بين حياته ومماته لا يُلقي بالًا لرغبات الملوك، هي أو حياتي ومن معي، في كل الأحوال ستقتليننا، أليس كذلك؟».

الغضب الوحشي كلَّل ملامح آسينيت وأجابته بابتسامة ملتوية: «ما أستطيع وعدك به أن الوحل سيمتزج بدمك، قتلتَها أم لا».

أخيرًا استطاعت بهية فهم فحوى الحديث الذي لم يكن صعبًا، والخنجر موضوع على عنقها.

صاحت بجنون من تحت الخرقة البالية: «قتل؟! تقولون قتلًا؟ سيقتلني، يا مُرك يا بهية، يا خسارة شبابك يا بهية، منك لله يا محب، منك لله يا مجنون الحضارة أنت السبب، آه يا أمي، كلامك كله صحيح، فالتمسك بأحلامي المعتوهة هو ما أوصلني إلى هنا، ليتني بقيت في بلدتي لكنت الآن في بيت زوجي حبيبي أرعى أطفاله وأزغِّط البط لأذبحه لعشائه بدلًا من ذبحي على يد هؤلاء المعاتيه».

لم تفهم آسينيت كلمة مما تقوله بهية بلسان عالمها، ولكنها تحب ولولة بهية وعلى وجهها علامات العته، مؤكد قالت شيئًا طريفًا، لذا ضحكت.

قال: «امحي هذه الابتسامة عن وجهكِ، إن كنت بهذه المهارة هذا يعني أنكِ تحت إمرتها، لذا كلانا جندي يهمه سلامة هؤلاء الأوغاد المرفَّهين من الطبقة المالكة، دعينا نتعاون وسنجد طريقًا للتحالف».

رفعت كتفيها بلا اهتمام وأجابته ببرود: «لم أعانِ من الطبقية حدَّ الحقد على الحكام من قبل؛ عرضك غير مغرٍ، لن أتحالف مع العدو».

مرر سينغو خنجره بخفة شديدة مخلِّفًا جرحًا خفيفًا على نحر بهية التي انتفض جسدها بقوة، جرح كافيًا لاندفاع الدماء لكنه ليس كافٍ لقتلها.

رفعت بهية يديها تحاول كتم الدماء، وعيناها المذهولتان المغشيتان بالدموع فعلتا بقلب آسينيت الأفاعيل، تهتم ببهية اهتمام الأم بوليدها، حتى وإن لم تتجاوز مدة معرفتهما الأسابيع، ومع أنين بهية المكتوم ظهر ما جلجلهم حين انبثق من موقع قلبها نور ضعيف تجسَّد في طائر عُقاب يهاجم وجه سينغو وكأنه يحميها، ولكن مع هزال بهية لم يكن بالقوة الكافية للصمود والفتك بالعدو.

صرخ سينغو: «ساحرة».

ورفع خنجره بنية قتلها مرتعدًا.

اهتزت آسينيت قليلًا بعدم فهم ولكن عقلها اليقظ تحرك، رمت سيفيها مع رفع راية الاستسلام.

ثم هدرت: «لا، لا، لا تؤذها».

كلل الانتصار الوجه البشع وقال: «ساحرة وجب قتلها».

جادلت بغية النجاة: «لقد سخَّرتم السحر أيضًا، لا أظنك تهابه».

التوى فمه بالبغض وقال: «لم نسخِّره لصالحنا مثلكم».

لم ترُد آسينيت، بل بقي بصرها معلَّقًا على وجه بهية الشاحب كالأموات تصارع لإيقاف دمائها، وتضع يدها على قلبها غير مستوعبة ما حدث، أو ربما تنكره، أو ربما لم تعرف بسحرها وتميمتها الحامية قبلًا!

ستحميها ولن تقبل بظلمها نتيجة لوقوعها في عالم غير عالمها، في حرب لا تخصها معتقدين أنها هي هدفهم، بينما آسينيت المقصودة، نظرة الاعتذار مع الخوف ملأت آسينيت.

بينما تابع القميء سينغو بتشفٍّ: «لا أراها مهمة بهذا القدر، نحن هنا منذ زمن ولم يظهر أحد الحماة، أظنهم زاهدين فيها، ألا تتفقين؟».

سؤال منطقي جرى في رأس آسينيت، ولكنها الآن أكثر انشغالًا لتفسيره مع قلقها على باهية، ولكن الخوف لم يزُرها ولو على استحياء، فماذا قد يحدث أكثر مما هم فيه؟

الموت! لم تهَب الموت يومًا، لم تهَبه وقد انحدرت من نسل شعب يقدِّس الموت ويقيم له الاحتفالات الجنائزية أكثر مما يقيمون احتفالات الأفراح.

قال: «ستأتين معي، لن أتركك، هي للملك وأنتِ لي، أحب الشرِسات في فراشي».

هبت العاصفة بعينيها ممزوجة بالاشمئزاز، عاصفة هوجاء ستطيح بالوغد منحورًا تحت قدميها لمجرد التفكير في إهانتها.

همست بصوت قاسٍ كالحجر: «دعني أطبِّب جرحها وسآتي معك عن رضا».

توسعت شفته المتدلية بابتسامة جشعة وقال: «أرى أنكِ متلهفة لي أيضًا، أعجبتك؟».

أشار برأسه إلى جنده كي يلتفوا مكبِّلين آسينيت المستسلمة، بينما مزَّق أغطية الفراش ولفَّ جرح بهية التي لم يتوقف صراخها وأنينها المكتوم.

رفعت آسينيت رأسها ثم قصفته ساخرة: «متلهفة؟! ألم يخبرك أحد من قبل أنك تملك وجهًا لم تحبه حتى أمك؟».

اتقدت النار في عينيه مع توعُّد أن أول شيء سيفعله هو قص لسان تلك المحاربة الفاتنة، أنثى باهرة، ساحرة تغوي القديس وتعيد إلى المجنون عقله، ولكن لديها لسانًا وحسًّا ساخرًا يذهِب بعقل الحكيم، خسارة، لا يكتمل الجمال، لسان طويل رُكِّب عليه جسد أكثر النساء إثارة وفتنة قد رآها في حياته.

دفع الجندي آسينيت بغلٍّ لتركع على الأرض وكبَّلها ولم تحاول منعه، بينما حمل سينغو الغنيمة المقاوِمة على كتفه.

سمعت أحدهم يقول من بين أسنانه بلهاث: «جان-تنديم سيُجن لهذا الجرح، لقد أمرك أن تأتي بها سالمة».

ضحك بقماءة وعيناه تشملان آسينيت بنظرة جشعة وقال: «عليه أن يواجه النتائج حين يرسل مجنونًا متعطشًا للدم ليأتي بعروسِه».

صمت لبرهة ثم أمرهم بالتحرك بعد تكميم فم آسينيت ويديها، لكنها بقيت شامخة تمشي معهم بعد أن صارعت باستماتة رافضة أن يحملها أحدهم وعجزوا عن السيطرة عليها.

أشار سينغو إلى بهية القابعة على ذراعه تحارب أيضًا بكل قوتها رافضة تعديه.

قال: «جان أهوج متسرع، لقد أغروه الحمقى بجمال هذه القنفذ، لكن الجمال الحقيقي في هذه».

ضحك ضحكة مفعمة بالحقد مزهوًّا: «سيُصاب بالجنون حين يرى هذه في فراشي بينما حصل هو على حيوان هزيل».

ورغم جرح بهية النافذ فكرتْ بحقد حين فهمت بعضًا من كلماته: هي قنفذ وهزيل؟ ألم تكن بايب في البداية؟! الآن تعاظم حقدها وأقسمت إنها لن تجعل الأمر سهلًا، سيدفع ثمن سبه أنوثتها، ستضربه، ستقتله، ســـــ...

لم تكمل أفكارها الدموية، ببساطة قلب خنجره وهوى على مؤخرة رأسها وأرسلها إلى إغماء فوري.

تصلبت ملامح آسينيت وعيناها الشرستان ذاتا قتامة وقول واضح، وإن لم ينطقه فمها المكمَّم: (سأقتلك، سأوزِّع أوصالك على جميع قبائلك الهمجية، ثق بوعد الملكات يا همجي).

لم يهتم وخرج متسللًا من المكان الذي أتى منه دون أن يوقِفه أحد، ونفى خوفه من أفكار الحكيم هيمانوت، من الواضح أن حكاياته عن أمجاد وقوة ساكني هذه البلاد أصبحت ماضيًا، والآن لم يبقَ فيها إلا الغافلون المستضعفون، ها هو ذا قد دخل أرضهم وقبض على ملكتهم ومحارِبتها دون أن يقف في وجهه جندي واحد، وقريبًا الأرض لهم، إرث الإله لهم كما نهر النيل، وفي النهاية وعد المحاربة سيتحقق،

سيمتزج الوحل بالدماء، دماء شعب كيميت، وستُزرع نُطفهم في أرحام نسائهم لتنصهر دماؤهم وعِرقهم الصافي مع عِرقهم، ومع مرور الأزمان ستنسى الأرض أن الكيميتي عاش هنا، ولن تتذكر الحضارة إلا عرقَهم، عرقَ أرض الإله البعيد في أدغال منبع النهر!

***

قبل سويعات...

في داخله بحر عميق لا قرار له، لم يسبق لأحدهم أن بلغ عمقه إلا هي، آسينيت، أرضه الجميلة برائحة عطره، طيبة كأرض طيبة، هدية إيست والشجرة التي حوت الشوك، ربما هذا معنى اسمها، ولكنه أيضًا الوحيد الذي توغل بين الأشواك وكشف حقيقة العطية التي مُنحت للملك، مُنحت للشعب!

كان يؤمن ككهنة المعبد يومًا أنه لا يصلح للتتويج على عرش كيميت إلا رجل بعقل حكيم وروح محارب، لكنه عندما اقترب منها تسللت إلى قلبه وتغلغل إلى روحها، عرف أن بعض الفتيات الصغيرات ولِدن ليصبحن ملكات كمعشوقته.

بداخله نار حارقة مستعرة، غيرة على المحبوبة، غيرة على أميرة وطنه التي طمع فيها متنطع جاهل، ورغم عدم تعجبه من الأمر، فاسم آسينيت وسيرة آسينيت والحكايات عن حبيبته تدفع أذكى الرجال قبل أغباهم إلى أن يطمع في امتلاكها.

مُغوية كإغواء الأرض الحبيبة التي توجَّه إليها كل طامع منذ بزوغ أول إشراقة للشمس على الأرض السوداء الطيبة، التي حمت الأبناء وأنتجت رجالًا أشداء منحتهم من خيرها واحتوتهم في رحمها لتعطيهم كل الحياة، نهر وزرع، جبال وصحراء، خير وذهب، علم ودين، من مشرقها حتى مغربها تحلت كيميت بأحلى الأثواب البراقة.

هدأت حركة أفراس النهر أخيرًا، حلت القيود وتنحت عن طريق الميلاد أم طريق الهلاك؟

- وصلنا؟

أطلق محب سؤاله بضحكة ارتعشت قليلًا بالقلق، ولن يلومه بعد ما أخبره به عن مستقبله، ولكنه سيخوض المغامرة.

حرك رأسه بالإيجاب وعلَّق سلاحه خلف ظهره ينحني قليلًا إلى الأمام بجزئه العلوي مستعدًّا لظهور عدوه اللدود فور دخول المركب حدود ماء المعبد.

سمع محب يقول بصوت غريب: «ما زال لديك فرصة للنجاة!».

التفت إليه أوناس مبتسمًا بهدوء وقال: «لو كانت كل طرق الحياة سهلة ما وُجدَت العقبات يا فتى».

في العادة يُجن من لفظ فتى، ولكنه منشغل الآن بنجاة هذا المنتحر العاشق المعتوه، عاشق بلد وعاشق محبوبة مهدَّدة بالسبي.

سخر: «وحكيم أيضًا! تُرى ما العيب الذي تخفيه؟ أم أنك عاشق مخلص ومحارب ونزيه كامل مكمَّل كما تتطلع كل فتاة أن تجد في حبيبها قبل أن تصيبها الخيبة؟».

عيناه لم تحيدا عن الطريق الذي يشقه المركب بهوادة رغم سؤاله الفضولي: «ولماذا الخيبة؟ أليست هذه صفات كل رجل يحمل ذرة رجولة داخله في عالمكم؟».

ضحك محب بجلجلة مدوية فاتحًا كفيه بعجز عن الإجابة رغم أنه من جنس آدم، ولم يعلِّق أوناس على تلك الضحكة التي أوضحت الكثير.

لكنه ركز فيما هو آتٍ مُصدِرًا أمره بحزم لا يقبل المراجعة: «حسنًا يا فتى، انتهى العبث كما ستفترق رحلتنا من هنا. أيًّا كان القادم لا أريدك أن تشارك فيه، ستسبح حتى تصل إلى أرض المعبد وتقف متفرجًا».

انتفض جسد محب متشددًا بالرفض: «لن أتركك لمصير أسود أعرفه، أنا معك، لن أترك رفيق سلاح».

قال أوناس بهدوء: «نحن لسنا رفقاء طريق أو سلاح، أنت استغللتني لتصل إلى هنا وتعود إلى زمنك، هل تتذكر؟».

رد محب بقوة هجومية مدافعًا: «كنت أستغلك، ولكن الآن بعد أن عرفتك وبعد أن خضنا معركة معًا من المستحيل أن أتخلى عنك، فقد أصبحتَ من فريقي ورفيقي».

ضاقت عينا أوناس عليه وإن لم يتخلَّ عن إعجاب لحظي بشجاعته وإخلاصه.

ارتفع حاجبا محب مضيفًا: «لم أكن فاشلًا مرفَّهًا، لقد دخلت الجيش أيضًا وآمنت أن رفيق السلاح أهم من السلاح ومن حياتك ذاتها، نحن نحمي ظهور بعضنا بعضًا، أخوة في الشرف وحب الأرض».

زفر أوناس نفسًا خشنًا وقال بصرامة غامضة: «لا تتدخل يا محب، لديك رسالة أعظم من إنقاذ حياة إنسان لا يرغب في إنقاذه، عد إلى زمنك واحمل معك بعض الأسرار عنا، أخبر العالم من نحن دون معلومات مغلوطة، صحِّح التاريخ يا فتى ودافع عن إرث أجدادك ضد الغوغاء التي يريدون نسبها إلى أنفسهم، دافع عن هويتك وكينونتك وأعد إلى جميع أحفادنا إيمانهم بالإرث».

شدد محب على المنجل الحاد الذي اتخذه سلاحًا وهدر بصوت صارم منهيًا: «لن أتخلى عنك حتى وإن مت هنا».

توسعت ابتسامة أوناس أكثر ثم اعتدل وأنزل قدمه من فوق المركب متقدمًا نحوه، نفخ محب صدره بفخر معتقدًا أنه سيربت عليه ممتنًّا ويمنحه وسامًا حربيًّا من قائد إلى بطل الأبطال النزيه الشجاع، ولكنه لم يتوقع قط أن يمسكه أوناس من خصره ويلقيه في الماء، وكأنه يهش بعوضة مزعجة.

وقال: «للأسف ليس لديك اختيار».

سارع محب للطفو على سطح الماء يهدر غاضبًا: «يا أحمق، هل هذا جزائي؟».

رفع أوناس قدمه على مقدمة المركب من جديد وانحنى نحو محب بمرح وقال: «سأمرِّر لك قلة تهذيبك مع أحد أجدادك مُعزيًا الأمر إلى الصدمة. احذر يا فتى المرة القادمة، لن أتحلى بالصبر أو التفهم لعصيانك أمري. لم أعتد عصيان الأوامر من أكبر قادتي، فما بالك بجندي صغير؟!».

إن نجا هذا الأوناس بمعجزة من فك سوبيك سيتسلل ويقتله، يقولون إنه مستفز، ضيعت الآثار عقله، أين هم ليروا جنون الجينات على عينها؟ يبدو أن الأمر وراثة!

وأخيرًا ظهرت العينان ذاتا الأحراش بالدمعة العالقة، فك علوي يفتح بتوعد والفك السفلي مغمور بالماء كما عُمِّق التوحش في نفس سوبيك.

قال سوبيك: «وصلت؟! جيد، أفضِّل القضاء على الأنذال واحدًا واحدًا».

استقام أوناس وتبدد كل مرحه، تصلب جسده وانغلقت ملامحه وإن انصهرت الحمم بعينيه.

قال أوناس: «انجُ بحياتك يا محب».

هز محب رأسه برفض، فهدر أوناس: «تحرك ولا تنسَ أن توصل رسالتي إلى آسينيت، أخبرها أني أحببتها في هذه الحياة وسأحبها في الحياة الأخرى، وسأبحث عنها في كل حياة تعيدني إلى الأرض».

تحركت عينا سوبيك نحو محب السابح، ورغم الرهبة التي يعكسها التمساح الناطق، لم يتعجب محب، فقد رأى في رحلته العجب وآمن أن السحر رغم عدم تشييده لبناء، فإنه كان موجودًا جنبًا إلى جنب مع عمل المصريين لحماية الأرض والنهر.

أعلن سوبيك ببرود: «ليس مهدَّدًا، ليس ملعونًا طامعًا ولا من الرعاع الراغبين، والدليل أنه وُلد بدمٍ منتمٍ إلى الأرض».

أطلق أوناس زفرة ارتياح وبصبر أشار إلى محب أن وقت الجدال انتهى، وسيخوض حربه وحده!

شحذ أوناس سلاحه الحبيب ثم احتضنه على صدره وكأنه رفيقه العزيز، ولده، يهادنه، يمنحه من قوته ويأخذ منه عهدًا بعدم التخلي عنه برحلته بين الحياة والموت.

وهتف: «محب، أخبِرني من جديد، ماذا قال ذلك الشاعر؟».

وفهم محب ما أراد سماعه بالضبط من بين كل الأحاديث التي خاضوها، فرفع أهدابه المبتلة بالماء وابتسامة تمنٍّ هادئة ترتسم فوق الشفاه.

وقال: «وإذا كان من الموت بدٌّ فمن العار أن تموت جبانًا».

برقت عينا أوناس بوهج لم يلبث أن انفجر، قبل أن يلقي بجسده داخل ماء النهر الذي ثار لمساندته رافضًا أن يهدر دماء ابنه الشجاع وأحد أبناء شعبه الذي حفظ وسيحفظ عهده وأمانه.

وقال بصوت قوي لا يحمل تعبيرًا واضحًا: «ودمائي ودماء أجدادي لم تحمل يومًا ذرة جُبن يا رفيق السلاح والسفر».

شدد سوبيك على فكيه قبل أن يندفع بهوجاء الغضب والحماية لكنزه الموكَّل إليه حمايته تجاه أوناس، وفي لمح البصر اشتبك الاثنان.

قال أوناس: «اخرج يا محب، اخرج ولا تتدخل في سير التاريخ، لا تتجرأ وتعبث بالقدر حتى لا ينقلب ماضيك وحاضرك على مستقبلك».

صوت هادر بتفجُّع جامد زلزل كل خلية في جسده ووجد نفسه طوعًا يسبح نحو شاطئ النجاة، وكأنه مقيَّد بالصوت، مسحور مطيع آخر لإيزيس.

لم تهاجمه التماسيح المصطفة كأنها جنود تنتظر الأوامر، تنصاع إلى قوانين سوبيك الذي صرَّح بأنه آمن.

فور وصوله امتدت يد عجوز طيبة لانتشاله، قفز بصدر يهبط ويعلو بتسارع لم يحدد أهو بسبب جهد السباحة أم القلق الذي يأكله لحرب الإرادة الوحشية التي تحدث أمامه بين أوناس وسوبيك.

ازدرد ريقه وتمتم: «لماذا لم يهاجمني؟ كيف يرغب في قتل رجل كأوناس ويترك من رافقه؟!».

ربتت العجوز على كتفه بحنوٍّ والدة ورِفقِ جدة، ذكَّرته بجمال الجدات ورأفتهن وقولهن الحكيم الواثق.

إذ قالت: «نهرنا لا يحمل الشرور يا ولدي، مصدر الحياة يبغض الموت».

اهتزت عضلة بجانب فمه ونظراته تتابع المشهد المحتدم، وقال: «تقولين هذا وكأنكِ لا ترين ما يحدث، وكأنكِ لا تقبلين بسلب حياة إنسان كانت جريمته الوحيدة الوفاء بالعهد!».

أسبلت آسري-نارتي عينيها تحجب دموعًا أبية وهمست بألم: «نار تشتعل في صدري، ووجع ينتشر فيقصمني، هذا ولدي، ولدي الطيب ومحاربنا الباسل، معشوق ربيبتي، ولكني لا أملك كسر عهد الملوك».

اندفع محب على قدميه يصرخ في وجه إيزيس الجامد غير مبالٍ بغضبها الذي جرَّبه.

قال: «افعلي شيئًا وتدخَّلي، ألستِ هازمة الموت؟ ألستِ ساحرة العجائب؟ أسطورة تناقلناها، أسطورة وأمٌّ حامية عاشقة منتقمة، ما زال أبناؤنا وبناتنا يتخذونك قدوتهم، ملهِمة وملهِبة قوتهم».

لم ترُد إيزيس رغم مشاهدتها الجنود الذين اندفعوا يحاولون إبعاده وعقابه لتجرئه عليها، بقيت صامتة وإن رفعت أصابعها بحزم لمنعهم وبقيت في عينيها نظرة ساكنة بوجع لا يختفي.

ثم قالت بصوت خافت صلب: «عزيزي الجاهل، صغيري الذي موَّهوا في عقله بين الواقع والأسطورة حتى فقد حكايا أجداده وحِكَمهم، لا أحد قادر على هزيمة الموت، لا أحد يملك سلطان الحياة إلا صانعها ومانحها».

بهت وجه محب بقوة مأخوذًا بالإجابة، والعقل يعمل رغم اشتعاله وذعره على صاحبٍ أحبَّه.

تمتم بعجب: «صانع؟!».

لم يعتقدوا أنهم الآلهة، بل آمنوا بقوة أكبر وخالق جبار للأرض وخليفتها! وهل بقي شيء يصدمه؟ كان يعرف ويؤمن بداخله أن كل محتل جبان سكن مصر تغلغلت أفكاره ودمجها بالحضارة حتى تاهت الحقائق عن القدماء.

جادل: «لقد وعدتِ آسينيت بحمايته، أنقذيه فالجميع يطيعونكِ ويخضعون لأمرك».

رفعت إيزيس ذقنها تحدق بصمت حتى قالت بجمود خافت: «وجودكم معضلة، معرفتي أن هناك حياة أخرى بعد هذا الحاضر أوقعتني في ورطة، أنا هنا مسافرة مثلك يا محب، زائرة من الماضي إلى مستقبل أبنائي، أحارب رغبتين، أتدخل فيما يحدث وأحطِّم مستقبلك وبا-هية؟ أو أستسلم لمجريات القدر الذي كشفتَه وتعرفه؟».

الروح الساخرة السوداء طفت على السطح داخل محب وقال: «صدقيني لن تحطمي مستقبلًا تحطم بيد أبنائه قبل المعتدين».

- لا!

صرخة آسري-نارتي التي ترددت على طول النيل ولم تغفل لحظة واحدة عن الصراع أوقفت سجالهما، والتفت محب بخوف ملأ كل عصب داخل جسده يراقب سوبيك وقد أحدث جرحًا غائرًا بمخالبه في صدر أوناس، ثم كبَّله بفكه وغطس في النهر.

صرخت آسري: «كفى يا سوبيك، أتوسل إليك كفى، لا تهدر دماءنا، لا تلوث الماء المقدس بدم حُمَاته».

فكر محب في اللحاق به وليحدث ما يحدث كما حصل في السابق.

ولكن تحذير إيزيس الصارم منعه: «منحكَ فرصة واحدة للنجاة، فور لمسك للماء سينقضُّ عليك جنوده، لا تثق في عهد مخادع متعطش لدماء المحاربين، سرعان ما سينقضُ عهده».

راقب محب بصمت مشحون لا يعلو عليه إلا صوت أنفاسهم المأخوذة، اندفع جسد أوناس إلى أعلى من جديد وتسلق ظهر سوبيك يضربه فوق رأسه يثيران الماء حولهما بسمفونية بحرية، يقسم إنه سمع دندناته وموسيقاه الجنائزية الناعية رغم فرحتها.

شعر بيد إيزيس على كتفه تأمره بقوة غاشمة صدمته: «فكِّر، هناك حل واحد تملكه أنت. تذكر، لقد أتيت بطوق نجاة، لم ترمِك بوابتي هنا عبثًا».

أغلق عينيه عن رؤية أوناس الذي استطاع سوبيك رميه من جديد ونزع منه سيفه، ولكن نزاعهما استمر حين أغلق سوبيك فكه السفلي يسحبه إلى الأسفل ويشل حركته.

تابعت: «فكِّر، تذكر مؤكد هناك شيء تعرفه، شيء سمعت عنه، تناقلتْه أسطورة ما، ربما معلومة ترجمتْها بهية ولم تؤمن بها».

فكِّر، فكِّر، فكِّر دقائق، سمع صراخًا اختلط بهدير آفاقه ملتفتًا نحو القصر، ربما آسينيت رأت ما يحدث؟

لم يستغرق في تشتته وتوسعت مقلتاه متذكرًا معلومة ربطها بمظهر أوناس حين رآه أول مرة يعزف، وقد خضعت له الطيور ورقَّت لحاله الوحوش.

هتف بفرح: «لديَّ الحل، ولكنه قد يكون تافهًا قليلًا».

في الحروب العالقة بين الحياة والموت لا وقت للتفكير، لا تستخف بصغائر الأمور؛ قد يكون فيها نجاته.

ركض محب من فوره على طول الحاجز الحجري حتى وصل إلى مكان قريب نسبيًّا بين تشابك أوناس وسوبيك، صرخ بكل ما يعتمل في قلبه من قوة مُلقيًا نفسه في النهر يسبح نحوهما وكأنه في مارثون.

قال: «الناي، اعزف على الناي يا أوناس».

لم يسمعه أوناس، ورفعت إيزيس جبينها بتقطيبة قانطة وقالت: «ناي؟! هل هذا كل ما جادت به أفكارك العبقرية؟ ناي؟! لا أصدق أن الحال تدهور بأحفادنا فتحولوا إلى مجاذيب».

لديها كل الحق في عداء هذا المحب، محب الذي لم تحبه.

سمعت صراخ محب بجعورة مزعجة يقول: «الناي فيه خلاصك».

ولكن لمَ العجب وقد كان الناي سلاحًا ورفيقًا لزوجها الحبيب أوزوريس؟!

وصل صوته إلى أوناس أخيرًا، لم يلتفت على الفور، بل ظل ملتهيًا بالدفاع عن نفسه.

وهتف: «حربي لم تعد معكَ يا سوبيك، أنهِ الصراع بيننا ودعنا نوحِّد صفوفنا وننهي الانقسام، فرقة الشعب تجلب الهزائم».

خرخر سوبيك مهاجمًا بصوت أسود: «لا تحالف بيني وبينك، موت جندي واحد لن يهزم كيميت».

كبَّل أوناس فكيه متحكمًا فيهما بين ذراعيه للحظات وقال: «لا أهتم بموتي يا سوبيك، نظرة عينيك تعكس معرفتك بمن أنا وما هو الأهم لدي، سأقدِّم حياتي فداءً لأرضنا، تعلم جيدًا أني سأنزف كل قطرة دم في جسدي إلى النهاية؛ لا تستخف بقدري ولا تسلبني موتي الشريف فداءً لنهر الحياة».

حرك سوبيك رأسه بحركة مفاجئة قوية فتحرر منه ورماه أمامه وقال: «لقد لُعنتَ لخيانتك العهد وطمعك فيما ليس لكَ».

انتفخ صدر أوناس بأنفاسه الهادرة معترفًا بكل وضوح ودون تردد أو خجل: «لم أطلب ما لا أستحق، لم أطمع يا سوبيك بل أحببت، ومن يملك أمر قلبه؟ أخبرني يا وحش الظلال، هل ملكت أمر قلبك؟ هل استطعت الإقلاع عن حب توغل تحت جلدك؟ ألم تصبك لعنة العشق قبلي؟».

تجمد سوبيك للحظة فقط، لحظة نظر إليه نظرات فارغة لا تحوي نبض حياة.

تابـع: «أحببـت الجوهرة المكنونة وهــي أحبتني، قاومنــا ذلك العشــق لسنوات طويلة، حاولنا التحلي بالعقل والخضوع للواجب وللقانون، ولكننا لم نملك الامتناع واختارت النفي، واخترتُ أنا الاستسلام والابتعاد عن حياتها ومستقبلها، ولكني عجزت أن أبقى بعيدًا ولا أهبُّ لنجدتها من أيدٍ جبانة تنوي بها السوء».

لم تهتز عينا سوبيك الجامدتان وإن ازدادت دمعته العالقة دائمًا.

غرغر بصوت خشن يثير الأعصاب: «تعرف أكثر مما ينبغي يا محارب، أليس كذلك؟».

رد أوناس بصوت جاف بارد رغم النيران التي تتقد بصدره: «كنتَ عدوًّا، عدوي الذي يأسر حبيبتي ومن واجبي أن أعرف عنك كل ما تخفي، وجودك هنا بالذات لم يكن صدفة، لعنتك لم يصعُب اكتشافها، لقد اخترت من كل طرق موتي إصابتي بلعنة ماء الحياة، رغم إقدامي على عقد صفقة مع الملك أوسركان، كنت قادرًا على قتلي بطرق أخرى».

قال سوبيك بصوت بارد تقشعر له الأبدان: «أوسركان رفض موتك دون جرم حقيقي ارتكبتَه، أما أنا رغبت وما زلت في نحر عنقك وتذوق عظامك قبل لحمك».

لم يفقد أوناس رباطة جأشه وعلَّق بخبث: «أتفهم رغبتك في الفتك بكل عاشق، أعرف أنه يصعب عليك رؤية المحبين يتوحدون وتهدأ قلوبهم الشقية بعد طول تعب وصراع، كما أعلم تمامًا حرمانك من حبيبة لم تصِبك إلا بلعنة لم تُفَك منها لآلاف السنين، حب ليس لك تركَكَ عالقًا بين الحياة والموت».

صرخ محب: «الناي».

بينما قفز على حين غرة ضاربًا أنف سوبيك بقوة كانت كافية لإصابته بالدوار للحظة استعجب منها محب، ربما قوة الأدرينالين الذي يهدر في عروقه!

ورغم هذا أوجعته الضربة أيضًا، فأخذ بالتلويح بيده متأوِّهًا دون صوت، لاعنًا فضوله وتمثال أبي الهول وبهية! لمَ بهية؟ لا يعرف، ولكنها بطريقة ما تُغذي بداخله دوافع القتل عند تذكُّرها.

هدر أخيرًا: «أخرِج الناي واعزف، ثق بي، ألستُ دليلك؟».

ارتفعت شفة أوناس العليا ونظر إليه كمن ينظر إلى معتوه يهذي.

ردد محب: «الناي يا بن المحاربين، لا تذهِب عقلي، اعزف قبل أن ينتبه أو يهجم علينا جنوده».

أخرج أوناس الناي الذي لا يتخلى عنه أبدًا من وراء ظهره وبدأ بالعزف، وعيناه ترصدان بحذر سوبيك الذي بدأ في استعادة صوابه.

تعلَّق محب بفك سوبيك السفلي وسحبه إلى أسفل متمنيًا شلَّ حركته.

وأشار لأوناس برأسه هاتفًا: «اقفز فوق ظهره بسرعة».

وقفز أوناس فوق ظهره كالطود شامخًا، لن يجرؤ الجنود على مهاجمته فوق ظهر سوبيك! وانساب العزف الشجي أخيرًا، عزف حزين دارت له عينا سوبيك، وطرب قلبه القاسي كالحجر، قلب غُلِّف بقسوة الرفض ولعنة الخديعة ونسيه، نسيه لعقود طويلة.

عزف أوناس بشجن مسَّ شغاف القلوب الموصدة، ونشر الطمأنينة المفقودة، زرع المحبة والرحمة، وسحر العقول والوجدان، ينثر في أرجاء الكون الرحب حكاية عاشق لم يطلب ما ليس له، بل طالب

بساكنة قلبه، لم يطمع في حكم ومكانة، لم يرغب في مال ولا مجد، كل ما رغب فيه وصال معشوقته وربط اسمه باسمها وانتماؤها إلى قلبه علَّها تسكِّن علته!

هدأ سوبيك تمامًا رغم قبض محب على فكه، واحتلال أوناس لظهره، مستأنسًا بالعزف، خاضعًا لسحر الحكاية المنسابة لعاشق أخلص للعشق.

لم يتعجب محب من براعة أوناس ومقدرته على إيصال ما لم يستطع بالحديث، ولمَ لا وقد كان قدماء المصريين هم أول من عرفوا فن الموسيقى، أول من أطرب الناس، وأول من وضع السلم الموسيقي، وليس كما هو مشاع أنه «فيثاغورس»، لا عجب من سرقة هذا أيضًا، يعرف محب التاريخ جيدًا، فكما سرق الغرب براعة المسلمين في الطب والجبر والهندسة، ونسبوها إلى أنفسهم، سرقوا أيضًا حضارة المصريين القدماء ودلَّسوها بخرافاتهم.

استمرت معزوفة أوناس إلى وقت طويل جدًّا، وهدأت كل دوافع سوبيك وكأنه وقع تحت سحر بغير ساحر، حتى شعروا بجناحين عظيمين يظلِّلان فوقهما.

وصوت إيزيس الهادئ يخاطب سوبيك بخفوت: «الجميع له هفواته، فاسمح للناس أن تصلح أخطاءها».

أخفض أوناس نايه ولكنه لم يهبط عن ظهر سوبيك، والأخير لم يحاول طرده، ولكنه دفع محب الذي تركه عن طيب خاطر.

قال سوبيك: «هذه ليست هفوة إيست، لقد أجرم».

قالت بجمود: «وأنت أجرمت وأخطأت وانظر إلى النتيجة، ها أنت ذا عالق ولا تقدر على الخلاص، على الأقل أوناس لم يرغب في الفعل بأخذ ما ليس له مجبِرًا الفتاة على حبه».

نظر إليها سوبيك بعينين تبرقان تلتهمان ملامحها بشوق: «وأنتِ لم تحبي قط، أليس كذلك؟».

انحنى رأس إيزيس بغضب رغم نبض النبرة بنعومة الوفاء والحب: «لم أحب إلا واحدًا ولن أحب غيره أبدًا».

ساد الصمت وإن بدت المعرفة في عينَي أوناس والجهل التام في عينَي محب، بينما دارت حرب أخرى صامتة مقيتة بين سوبيك وإيزيس، حرب إن اشتعلت لأحرقت الأرض بما فوقها، صراع خفي يزلزل دون صليل السيوف.

تكلم سوبيك بصوت خشن يغرغر، لم تكن نبرة الوحش ما تحتله بل ندم قلب أُهمَل.

قال: «عندما نصل إلى النهاية دائمًا ما نذكر البدايات».

أخذت إيزيس نفسًا قويًّا صبورًا قبل أن تخفض جناحيها وتقف أمامه تساوي طوله وقد انغمس نصف جسدها بالمياه.

قالت: «كانت بداياتنا نحن وليس نهايتهم هم، دعهم يخطون بدايتهم ويصنعون نهاية بلا نهاية، حله من لعنتك، اكسرها وامنحهم الفرصة، لقد سمعت معاناته ورق قلبك، لا تنكر».

حرك رأسه رافضًا بعناد: «أنا وحش، لا أملك قلبًا».

ابتسمت وكانت هذه البسمة النادرة كافية لسحر الثلاثة: «حتى الوحوش تملك قلوبًا تخضع أمام سطوة العشق».

هدرت منه همهمة ساخرة: «لم أخضع قبلًا لتفجُّعك ولم ألقِ بالًا لعشقك».

ورغم السواد الذي كسا العينين الجميلتين قالت بهدوء: «إذًا أصلح وكفِّر عن الخطأ، اكسر لعنتك علك تنال الراحة أخيرًا، اجعل أوناس وآسينيت أول محبين تساعدهما منذ عهود طويلة».

سأل ببغض لطرقها على أمنيته بالخلاص: «لماذا تهتمين بمصيرهما؟ لقد أوضحتِ أنكِ لن تتدخلي».

همست من بين شفتيها بنبرة بطيئة ملكية: «أنا أمُّ الملوك، ملهِمة العاشقين، أنا أمُّ الجميع».

صمتت ونظرت إلى محب بتلك البسمة والعينين اللتين أذهبتا عقله لثوانٍ.

قالت: «أنا إيست، إيزيس التي ما زالت الفتيات الصغيرات يتغنين بها ويتخذنها قدوة، ما حدث في الماضي لن ينصلح، ولكني قادرة على إنقاذ قلب إحدى بناتي».

ما يعلِّق سوبيك بشيء وظل صامتًا جامدًا مترددًا!

تابعت إيزيس: «النهر نادى، جلبنا إلى هنا ووحدنا جميعًا، أنا، أوناس، با-هية، وذلك، ذلك المحب».

وانمحت نظرة محب المأخوذة بها واحتله السخط متسائلًا: (ما مشكلة هذه الإيزيس معه؟! والدة محبة للجميع، تتعامل معهم بحنان وكياسة، بينما تعامله وكأنه ابن الشغالة!).

سمعها تتابع بلا اهتمام بصدمته: «دع المحارب يوحِّد صفوفه، لا تجعلنا ونحن في خضم تهديد حفنة الرعاع نفقد رجلًا مهم سيخضع تحت إمرته البشر والحيوانات وحتى الجن إن أردنا».

دمدم مستاءً: «ألا تبالغين؟».

قالت بهدوء: «لقد تغلغل إلى حراشف قلبك القاسي وهذه وحدها معجزة تُحسَب له، لمرة أخيرة دعنا نوحِّد صفوفنا وأنهِ النزاع فيما بيننا، نحتاج جميعًا إلى رمي خلافاتنا لحماية أرضنا وحضارتنا وسلالتنا ومائنا للأحفاد من بعدنا».

قلَّب سوبيك أفكاره ما بين القبول والرفض، تحرك جسده نحو آسري-نارتي التي وقفت هناك تضع يدها على قلبها بقلق وترقُّب بحت وكأنه يرغب في أخذ الإشارة منها، من حارسة كنز الملك الحقيقية.

أومأت آسري بسرعة برأسها هامسة: «لا تفجِع قلب صغيرتي، لا تحوِّلها إلى كيان أسود، شبح يتحرك بين الأحياء بلا قلب وبلا حياة».

صمت همسها قبل أن تصيح بنبرة مختنقة: «منح الفرصة الثانية ليس ضعفًا، وإنما قوة كبيرة يا سوبيك».

أغلق أحراش عينيه والدمعة تزداد اتساعًا حين قال: «قد أمنحك الفرصة يا أوناس، ولكن يجب أن تعرف أنه لا توجد نهاية سعيدة».

صمت من جديد ورفع رأسه حين تدلى أوناس من فوق ظهره مغمورًا بالمياه مواجهًا بارتياح لاكتسابه حليفًا مخلصًا.

تكلم سوبيك من جديد بنبرته الخشنة التي شابهت هدير الشلالات: «أردتُ أم لا، سيستمر العالم في طغيانه سارقًا منك سعادتك، محارِبًا انتصاراتك ليصيبك بالهزائم».

قال أوناس بقوة: «دعني أكسب ودك، نتحالف ونتعاهد لنحاربهم معًا، ندافع جنبًا إلى جنب وبعد أن نحصد شرورهم ونظفر بنصرنا ونحمي أرضنا، بعدها لا يهم كيف ستهزمنا الحياة لأني سأظل أحارب».

رفع سوبيك نظره نحو إيزيس التي أومأت له بكل هدوء مشجِّعة، كانت قادرة على إنهاء صراعهما منذ البداية، لكنها كما أخبرت محب لم ترغب في العبث بالقدر، كما أنها أرادت لو انتهت حربهما القصيرة وكسر سوبيك اللعنة وكلاهما متحالفان، لأنها لن تقبل أن يكون بين صفوف جندها من يكنُّون لبعضهم بغضًا، إذا أرادوا الانتصار وإن رغبوا حقًّا في الدفاع عن الأرض يجب أن تكون كل أطياف شعبها على قلب رجلٍ واحد.

«آسري-نارتي، لقد اختُطفت الملكة وحاملة الكتاب».

دار الطنين بين الجميع مشعِلًا نارًا بين الرماد، فكرت إيزيس: (النهاية السعيدة هي نهاية القصص التي لم تنتهِ بعد، وماذا اعتقدت؟ أن كل شيء سيصبح ورديًّا واعدًا فجأة ويلتقي الأحبة ظافرين بالنصر؟!).

جن جنون سوبيك يعيد بقهر جملة إيزيس: «ركزت على الفروع ونسيت الأصل».

وها هو ذا أعمته رغبته في الدماء والحقد حتى فقد الفرع، وهدد بالسطو على الأصل.

هدر صوت أوناس: «آسينيت!».

وقد فقد عقله يسبح بجنون باتجاه القصر.

تمتم محب بسخرية: «روميو وجولييت العصر القديم، ها هو ذا العاشق البغيض يطفو من جديد».

ولكن في لحظة شُل عقل محب كما انمحت روحه الساخرة (حاملة الكتاب)!

بهية؟! بهية أُسرت معها! فتح فمه عاجزًا حتى عن أخذ أنفاسه، بينما آسري-نارتي انهارت تمامًا عاجزة عن التصديق، مطعونة حتى الصميم.

تردد كلمات رثاء: «طفلتي، أخذوا أميرتي، عرفوا كيف يهزموننا».

***

عجبًا لما يفعله القدر! فيقلب كل شيء رأسًا على عقب في لحظة، يبدِّد كل الثوابت، فيخرِج كل الأمور عن إرادتنا ليسيِّرها ويطوِّعها بمجرياته التي خططها لنا مسبقًا.

أمسك بيده ثوبها الكتاني الناعم يتلمَّسه بين أصابعه، والقلب ينعى حسرته، وعيناه ترفضان ذرف دموع الفقد والحسرة، تصاعد الغل والغضب متناحرًا مع العقل، مظهر الغرفة التي قُلبت رأسًا على عقب يحكي بصمت عن معركة حامية دارت.

ما يعزيه في هذه اللحظة معرفته أن محارِبته الجبارة القوية لم تستسلم، لآخر رمق حاربت وهزمت وقتلت قبل أن تُؤسَر.

هدر محب حتى بحَّ صوته: «ماذا أفعل؟ اللعنة! لقد ضاعت بسببي، مكاننا ليس هنا، هذه ليست حربنا».

ثم انهار مستسلمًا، يسند حمله على أحد الأعمدة دافنًا وجهه بين كفيه والندم يعتصره.

تمتم بصوت مكتوم لا حياة فيه: «خطئي، أنا السبب، أغويتها لتتبعني، أخذتها إلى قدر لم تسعَ إليه، استغللت ضعفها وتلاعبت بأحلامها المبتورة علِّي أفهم سر انجذابي إليها».

الروح عالقة والخطوات التي ظن أنها كُللت بالنجاح والانتصار وكسر اللعنة غدت مهزومة، عاد مهزوم الوجدان يجر ذيول الخيبة والألم بفقدها، هكذا شعر أوناس.

وقال: «سنجدهم يا فتى».

رفع محب عينيه المشتعلتين بالنار قاصفًا: «كُف عن التباهي بثقتك اللعينة، اعترف، لقد فشلنا وتغلبوا علينا».

قذف بجسده نحو أوناس يمسكه من كتفيه بعنف وحالة هجومية غير مبالٍ بمصيره.

قال: «أين كانوا جنودك اللعينون الذين أوجعت رأسي بالتباهي بقوتهم؟ أين هؤلاء الحراس الذين يقفون كالصقور يفتكون بكل متسلل؟ أجب، أم لا تملك الإجابة؟».

نقَّل أوناس عينيه بين يد محب ووجهه بنظرة غريبة صامتة، ولم يحاول دفعه وقد أوصله إلى الجنون البحت عندما حل الغضب عن عقاله.

أكمل محب بوقاحة: «أتعرف؟ لم أُصدم وقد وجدت قائدهم الباسل مستسلمًا لعينًا، ضعيفًا يعزف الناي بين الأطلال».

ضربه أوناس على صدره بكفه ضربة خفيفة، ولكنها كانت كفيلة أن تدحرج محب خطوات للوراء.

ثم قال: «هل تظن أن حُرقتك تتغلب على وجعي؟ ألم الفقد واحد».

– ليس واحدًا أبدًا، لا أرى فيك وجع الندم، وإحساسك المؤلم بأنك كنت سبب ضعف إنسان رأى فيك طوق نجاة.

تحركت عضلات على طول نحر أوناس يرمقه بنظرة مظلمة ويقول: «بل لم أرَ قبل الآن كم أنا وأنت متشابهان، الحكماء كانوا على حق، الكبار دائمًا يفهمون الحقيقة، يعرفون المستقبل، وقد مروا بويلات التجارب، ولكننا الصغار لا نسمع أبدًا مأخوذين بقوتنا، نصدق بغرور ذكاءنا ونجزم أننا لن نقع في

الأخطاء أبدًا. هناك ندم لأني لو كنت استمعت لهم ما جررتُها للوقوع في عشقي. هم محقون، لقد طالبتُ بأكثر مما أستحق».

ابتسم محب بسخرية وفتح يديه بعجز وقال: «فشلنا إذن بكل بساطة وسنبقى هنا ننعى الأطلال وننتظر أن ينفِّذ ذلك الحقير مخططه؟!».

– إن استمر تناحركما وزايد كل واحد فيكما من يشعر بالألم والندم أكثر، سنفعل.

نظر كلاهما نحو إيزيس التي دخلت، يتبعها جندي يرتجف خوفًا من بطش أوناس ونزل على ركبته تحية لقائده.

تراجع محب من جديد وجلس في المكان نفسه متعَبًا مجهَدًا، بخفوت مستهزئًا: «المزيد من الحِكم تُطلقها الأم العظيمة دون مساعدة حقيقية تُذكر».

سوت إيزيس نفسها على ركبتيها أمامه بهدوء وقالت: «كنت أريد أن أرى شعبي يحرز نصره بنفسه».

تمتم بصوت قاتم شابه سماء ليلة ظلماء: «شعب بلا قائد شجاع يواجه شعبًا دون راية توحِّده، أبناء دون مرشد قوي محنَّك يُقَوِّم تشتتهم شعب مهزوم يا إيزيس».

بالهدوء نفسه قالت: «أفهم أن الدليل المسافر الذي كان يشع بالفضول والحيوية لتخطي كل العقبات باحثًا عن الحقيقة استسلم ببساطة؟!».

حك جبينه بيأس وقال: «وماذا أفعل؟ لقد فشلتُ حتى في إعادة الإنسانة التي جررتُها معي إلى موطنها».

ابتسمت بثقة صارمة وقالت: «هنا موطنها، لقد أعدتَها سابقًا إلى أرضها لتعيد اكتشاف نفسها».

ابتسم بسخرية ولم يعلِّق، فتنهدت تضيف بحكمة: «الحياة يا ولدي مجموعة من الهزائم، ستحاول وتفشل وتحاول وتفشل وتقاوم من جديد لتنتصر وربما ستفشل، ولكن يومًا ما ستنتصر، فالفشل الحقيقي عندما تتوقف عن المقاومة».

أغمض عينيه بقوة وكلماتها تتسلل إليه تُطفئ نارًا وتشعل أخرى محمَّلة بالعزيمة. نقل عينيه نحو أوناس الذي بدا متماسكًا خارجيًّا، ولكن الله وحده يعلم ما يدور بداخله، رآه يأذن للجندي بالاقتراب.

أمره بكلمة واحدة معتادة: «أفصح».

بان بعض الهدوء على الجندي مهدِّئًا من غضبه: «لم نترك حراسة القصر حتى وإن كانت معظم قواتنا تنظم صفوفها، ولكن الخطأ الوحيد أننا انشغلنا بمراقبة معركتك وسوبيك».

همهم أوناس عاجزًا عن تهدئة صخب قلبه وعنف أنفاسه: «بعض الأخطاء لا تُغتفَر، مهمتكم واحدة، هكذا تعودتم وهذه قوانين جيشنا، لا أتذكر قانونًا يجبركم على القلق على مصير القائد وإن مات».

ابتلع الجندي ريقًا جافًّا واعترف: «لقد رأيتهم، وكنا على وشك البطش بهم مستغلين عنصر المفاجأة واطمئنانهم لعدم إمساكنا بهم، ولكن تراجعنا».

اقترب أوناس وبيد باطشة أمسك عنقه وقد أعماه الغضب وقال: «لماذا؟».

ما أثار عجب محب عدم خوف الجندي أو اهتزازه رغم مواجهته للموت!

أجاب مختنقًا: «أمرتنا الأميرة بالتواري، حذَّرتنا من الاقتراب، أرادت الذهاب معهم دون تدخُّلنا».

قفز محب هاتفًا: «وما الذي يدفعها إلى هذا؟».

ترك أوناس جنديه بكل هدوء ينقل عينيه نحو إيزيس متبادلين نظرة فهم حيرت محب.

فسأل بنفاد صبر: «هل يمكن لأحدكم أن يشرح لماذا قد تُقْدِم الأميرة على فعل متهور كهذا؟».

ابتسم أوناس بصفاء وثقة، وكانت أكثر ابتسامة مستفزة رآها محب في حياته.

وبخاصة عندما صرح الأول بفخر: «محارِبتي لم تنسَ قواعد اللعبة».

هزت إيزيس رأسها موافقة وقالت: «لا أظنها قد فعلت».

قال محب: «ما الذي تتحدثان عنه بحق الله؟! سأُجن».

أسبلت إيزيس عينيها المكحلتين بالرضا الصامت، ورفعت كفها تديرها وتديرها تهمس بتعويذة غيَّرت مظهرها في لحظة، لتضحى كما رآها محب أول مرة، بالثوب الأزرق كمياه النيل الصافي وتاج القرنين المحيط بالشمس.

تعالى صوتها بتلك النبرة التي تخز الأبدان وتوحشت ملامحها رغم القول الصادق: «المرأة الحقيقية تعرف ما تقاتل لأجله، فما بالك إن كانت ملكة وإحدى حفيداتي؟!».

تغيرت كل أركان الغرفة في لحظة حتى كاد يقسم إن الأحجار العتيقة الضخمة تحركت من مكانها وانسابت الرمال من بينها، رمال تماوجت ودارت في دوائر حتى كوَّنت عاصفة قوية بينما فم إيزيس يتمتم بتعاويذ السحر، موجِّهة مفتاح عنخ لتسيطر على الإعصار المدمِّر، ويداها تفتشان هنا وهناك داخل الرمال تبحث عن شيء تعرف أنها ستجده.

رأى محب على مرمى بصره جيشًا جرارًا، لم تهتم به إيزيس وقلَبته وكأنها تقلِب صفحة كتاب للأساطير، وأخيرًا توقفت يدها تشير بالصولجان.

وقالت: «وجدتهم».

اقترب أوناس ومحب بلهفة ينظران إلى الفتاتين المقيدتين في ظهرَي بعضهما بعضًا داخل صحراء مترامية الأطراف، وعلى بعد منهما رجال كُثر يخيمون في العراء، عيناه البنيتان اتسعتا بذعر ولاح الغضب المتهور، تسارعت دقات فؤاده وتعالى لهاثه، انتفض أوناس عندما شعر بيد آسري-نارتي تمسك ذراعه فأدرك أنه يرتجف.

توسلت إليه: «لا تندفع، أعد جوهرتنا دون أن تسمح لهم بإفقادها بريقها، أنا لم أكفر في إيماني بك قط يا أوناس».

حرك رأسه فيما يشبه إجابة قائلًا بصوتٍ واعد: «سأفعل، سأعيدها ولن أسمح بفقدانها أو تعريضها للخطر حتى وإن كان هذا الخطر أنا».

سخر محب: «ألا تبالغون؟ يعيد من؟! المتوحشة قتلت ثلاثة أوغاد وحوش وحدها، وذهبت معهم برضاها إلى مخطط في رأسها».

زفرت إيزيس بحنق ترمق محب بنظرات سامة، وكأنها تمسك نفسها بأعجوبة عن الفتك به.

أكمل تعنيفها: «وأنتِ إن كان الحل في يدكِ طوال الوقت لماذا صمتِّ؟».

قالت إيزيس ببرود ساخر مثله: «أحب العروض الدرامية، وبخاصة إن قدَّمها بهلوان مثلك».

كزَّ على أسنانه بغضب: «أنا بهلوان؟! صدقًا يا إيزيس، ما مشكلتكِ معي بالذات؟».

لم تفقد إيزيس السيطرة على بوابة الرؤيا المفتوحة وإن أخذت تزيد في التعاويذ.

وبعد لحظات أولته الاهتمام حين قالت وهي تمد صولجانها ليمسك بطرف كلٍّ من محب وأوناس: «هكذا بلا سبب، لا أحبك، لا تعجبني، يكفي أنك رجل».

اتسعت عينا محب بتوجس.

هتف بصوت وكأنه عثر على كنز حقيقي لم يكتشفه أحد قط: «رجل؟! تقولين رجلًا؟ الآن عرفت سر الحركة النسائية «فيمينست»، أقسم إنكِ أول من أسسها، حتى هذه لم تتركوها!».

جذبته بعنف وضجر لتبتلعهما الرمال تمامًا، وعادت الغرفة كما كانت وكأن شيئًا لم يحدث أمام عينَي آسري-نارتي والجندي.

ركعت آسري بإجهاد تأخذ أنفاسها لعدة دقائق، تتضرع أن يعودوا سالمين، ثم أعادت وجهها الجامد الحازم بكل بساطة حين نظرت إلى الجندي.

قالت: «اسحبوا جثث الرعاع وادفنوهم في قبر بلا ملامح أو اسم يرشد إلى أرواحهم، لا تمثِّلوا بهم، فنحن نحترم الموت».

أومأ الجندي بطاعة واحترام.

وقفت آسري تتمتم: «أريد أن تكون الغرفة بكامل أناقتها ونظافتها قبل أن تعود أميرتنا من رحلتها».

***

تأوهت بهية بصوت منخفض حين استفاقت أخيرًا من إغمائها الذي طال، وكل إنش من جسدها يئن بالألم، لم تستغرق في تذمرها كثيرًا عندما تنبهت أنها مقيَّدة تمامًا إلى جسد طري!

أتاها صوت آسينيت القلق بلهفة من موقع قريب: «با-هية، استفقتِ؟ هل أنتِ بخير؟ حدثيني، بماذا تشعرين؟ أجيبي يا با-هية، لماذا لا تردين؟».

همست بصوت متحشرج بأنين جرحها النابض: «ربما لأنكِ تمطرينني بالأسئلة دون إتاحة فرصة للرد».

أطلقت آسينيت ضحكة ارتياح وقالت: «حسكِ الساخر ما زال يعمل، إذن أنتِ بخير».

فتحت بهية جفنيها المثقَلين أخيرًا تتأمل الصحراء الخالية المظلمة دون قمر ينيرها، فتعاظم الذعر داخلها على الفور.

قالت: «أيُّ خير بحق الله ونحن ملقاتان في العراء مع حفنة من الرعاع؟».

ردت آسينيت بثقة: «لا بأس، سأخلِّصنا من الورطة».

هاجمتها: «ولماذا لم تفعلي حتى الآن؟ هل تنتظرين إذني؟».

ردت آسينيت ببداهة: «بل كنت أنتظركِ لتستفيقي، لا تتوقعي أن أحملكِ كل هذه المسافة كما فعل العدو».

اقشعرَّ جسدها بالاشمئزاز والرفض الفطري وقالت بحنق: «لا تذكِّريني بالله عليكِ، هذا الجزء بالذات أسوأ ما حدث لي يومًا».

ثم صمتت مجبَرة ودموع خائنة تنهمر من عينيها وهي تتابع: «لم يسبق في عمري كله أن تعرضت للانتهاك بهذا الشكل البشع، لم يجرؤ رجل أن يضع إصبعًا عليَّ».

شعرت بتلوي آسينيت محاوِلة فك الحبال قائلة بتلاعب خبيث: «وماذا عن محب؟ ألم يخاطر لفعلها قط؟».

شهقت بهية بصوت عالٍ مستنكرة وقالت: «كيف تجرئين؟! أنا عانس طاهرة وسأعيش عمري كله عانسًا طاهرة إن شاء الله».

ضحكت آسينيت بصوت خافت وقالت: «حسنًا سيدة عانس الطاهرة، هل يمكنكِ الهدوء حتى أفك قيدنا قبل أن يلوِّث عنوستكِ حفنة من عديمي الأصل العراة؟».

غضبت وردت: «ولمَ يلوثونني؟ بل لماذا أخذوني معهم؟ فأنتِ المستهدفة في الأصل!».

عضت آسينيت طرف فمها بقوة، يبدو أن بهية لم تعرف حتى الآن سوء الفهم الذي حدث.

ترددت وأجابتها: «لأنهم يظنون أنك آسينيت جوهرة الملك، وأنا حارستك».

فتحت بهية فمها على مصراعيه بصدمة قبل أن تسيطر عليه أخيرًا.

بدأت تسب بعنف: «الجهَلة الأغبياء، كيف اختلط عليهم الأمر؟ فكل المؤشرات تؤكد أنك هدفهم».

شعرت بهزة كتفها وأكدت بفخر: «قلتِها، جهَلة، لقد أخذوا بالروايات المتناقلة عني ولم يطرأ لعقلهم الصدئ أن ملكة كيميت المستقبلية أُعدَّت بالعلم والمعرفة بكل الطرق الحربية».

أخذت بهية نفسًا عميقًا وهمست: «لم يُصدموا وحدهم بهيئتك تلك، فأنا أيضًا لم أتوقع أن أرى محاربة بارعة وأيضًا تعرف لغتهم!».

توسعت ابتسامة آسينيت معترفة بفخر وحنان: «أعدَّني والدي على يد أمهر المعلمين المتحدثين بكل الألسنة، لم يبخل عليَّ بشيء من العلوم رغم محاولة مربياتي وبعض كهنة المعبد الاعتراض على تدليله لي،

تعرفين، يجب أن نعلم بلسان عدونا قبل حلفائنا».

ظهر الحنين على وجه بهية وقالت: «عندما تتحدثين عن والدكِ بكل هذا الحب تذكّرينني بوالدي الحبيب، فهو أيضًا لم يبخل عليَّ بشيء رغم قيد العادات».

– نحن متشابهتان إذًا، لدينا أبوان جيدان أجادا الاعتناء بزهرتيهما.

ليتها تشبهها، ليتها تجد قوتها يومًا لتواجه وتصرخ بما تريده، تعارض تسيير حياتها وحصرها بإيجاد ذلك الذَّكر اللقطة الذي سينقذها من شبح العنوسة، وكأن العالم كله والنجاحات والإنجازات اختُصرت للمرأة بالزواج وفقط!

نادتها: «با–هية».

زفرت: «ما زلت معكِ، لم أمت بعد».

– إن لم تساعديني سيحدث قريبًا، أو الأسوأ، سيؤول مصيرك إلى ذلك الملك المتهور الحالم.

تأجج غضب بهية وصرخت بصوت مكتوم رغم صوتها المتحشرج بالألم: «لن يحدث، سأخبرهم أنكِ المطلوبة وسيتركونني لحال سبيلي، وصدقيني، إقناعهم بالحقيقة لن يكون صعبًا».

ضربت ظهرها بقبضة كفها ساخطة وقالت: «أنتِ أنذل إنسان عرفته في حياتي».

تمتمت ببرود: «يا روح ما بعدك روح».

قبل أن تضيف ساخرة: «ظننت أن الأميرات لديهن قواعد ثابتة وبروتوكول في التعامل، منها عدم الضرب كالفتيات السيئات».

– أنا فتاة سيئة وأميرة أسوأ با–هية، وثقي بي، نظرة واحدة مني لذلك القبيح سينغو وسيقنع الملك بنفسه أنكِ كاذبة.

فكرت بهية بغيظ: (أنا النذلة! ماذا عنها وهي تُلقي بي في حرب ليس لي بها ناقة ولا جمل؟!).

أضافت ببرود: «كما أنكِ لا تتحدثين بلسانهم، وفي النهاية الكفة تُرجح لصالح العارف».

تذكرت بهية المثل الشعبي الشهير (الغريب أعمى وإن كان بصيرًا).

ردت بتردد: «أعرف بعض الكلمات، للأسف لم أستغرق في دراسة اللغة الجعزية القديمة».

همست آسينيت: «لا بأس، إن استطعنا الفرار والعودة قبل أن يضع العدو يده علينا سأعلِّمكِ».

سألت بهية بنبرة متوترة محبَطة من محاولات آسينيت لفك قيدهما بلا نجاح: «وماذا إن لم نستطع؟ ماذا سيكون مصيرنا؟».

تكره الإحباط والاستسلام وتبغض لسان المتشائمين.

قالت بجلَد علَّها توقظ فيها روح القتال: «ستُساقين كحيوان أصم إلى ذلك الملك الأجدب وسيتزوجكِ، ليزرع نطفته داخلكِ فتختلط دماؤه بدمائنا كما يخطط».

تأجج غضب بهية كما توقعت وأخذت تقاوم معها بتسارع مجذوب علَّها تفك القيود.

قالت بجزع مخلوط بالقهر: «على جثتي».

ردت آسينيت بإغاظة: «بل على الفراش».

– أنتِ حقنة عضلية مزعجة اليوم آسينيت.

لم تفهم تعبيرها، ولكنها اعتادت ألفاظ بهية المضحكة.

ردت: «اهدئي، سأجرِّب شيئًا آخر ولكني أطلب منكِ ألا تجزعي حتى لا يشعروا بنا».

توجست بهية خيفة، تعرف الآن عن آسينيت الكثير، ولم تعجبها النبرة، إذ تعني أنها ستقوم بمصيبة مخيفة.

فقالت: «ما الذي تنوينه؟».

أطلقت آسينيت نفَسًا طويلًا وأغلقت عينيها وأمالت رأسها على بهية نحو السماء.

وقالت: «شيء أجرِّبه منذ وقت طويل ولم أصدِّق يومًا أني قادرة على فعله، لكن الآن كلِّي إيمان بتحقيقه، وبخاصة بعد أن رأيتُ عُقابكِ».

ارتعشت بهية برعب، فظهور الطائر حقيقي لم يكن من نسج خيالها كما حاولت إقناع نفسها في عمرها كله!

من لا يتحملون الحقيقة يستحقون الأكاذيب! وهي أوهمت نفسها بالأكاذيب طويلًا لتتجنب الحقيقة خشية أن تخرج من فقاعتها الحامية.

صوت صرير غريب ورياح لفَّتهما، وصوت آسينيت تغير تمامًا بنبرة مرعبة شابهت نبرة السحرة، وتمتمت بتعويذات لم تفهمها بهية ولم تدرسها أو تقرأ عنها من قبل!

(سنج- خم- رخ، أفعى، جف أفت،جف،أفت_سنج_خم...).

همست بذعر: «توقفي عن التفوه بالتعاويذ، ستؤذيننا».

ولكنها لم تتوقف، إذ انقلب صوتها إلى الرعب الغاضب واستمرت في طلب العون بكلمات السحر!

تلوت بهية من الفزع الخالص حين شعرت بعد لحظات بتحرُّك قيودهما حول أجسادهما وأيديهما وأرجلهما كالأفاعي تتحرك على جسديهما بحرية، قبل أن تزحف على طول بهية وتتحرك من حولهما.

خرس صوت بهية تمامًا ليس لأمر آسينيت السابق، ولكنه الرعب الذي يشلُّ الأوصال دون قدرة على إيجاد متنفس للدفاع عن النفس أمام خطر محدق.

شعرت بآسينيت بعد لحظات تجذبها بقوة وترميها وراء ظهرها.

وأمرتهم بالنبرة المرعبة نفسها: «أنتم مسخَّرون لخدمتي وليس لأذيتنا، ليس بيننا إلا السلام».

راقبت بذهول زحف الأفاعي بعيدًا، وتحرُّكها إلى العراء لتختفي تمامًا في رمال الصحراء!

التفتت إلى بهية المرتعشة وأحاطت وجهها الصغير بكفيها تنحني بقامتها المديدة بحنوٍّ.

وسألتها: «أنتِ بخير؟ كنت مجبَرة، ولم يكن لدي حل آخر».

فتحت بهية فمها، حاولت إيجاد صوتها عدة مرات.

عندما وجدته قالت بالذهول نفسه: «أنتِ تجيدين السحر؟».

هل تظن المجنونة أنه المكان المناسب للنقاش؟

ردت: «كانت محاولة يائسة، لقد أخبرني أبي ذات مرة أني من نسلِها، لذا ربما يوجد بعض من سحرها بداخلي، ولكني لم أعرف قط يومًا كيف أصل إليه وأستخدمه، قبل اللحظة».

بشفاه مرتعشة فسرت بهية: «عندما تكون حياتنا على المحك نلجأ إلى أكثر الطرق بؤسًا وسوءًا».

- ربما، والآن دعينا نستغل الفرصة قبل أن يصحو هؤلاء و(البقف) قائدهم.

رمشت بعينيها بتسارع والكلمة العفوية التي تعرف أنها توارثتها منهم تبدِّد خوفها وتصيبها بكركرة ضحك!

عقدت آسينيت حاجبيها بتساؤل تبحث بعينيها عن أثر لهم وقد ألقوهما بين الخيول، كانوا على بعد ميل منهما، ينامون كما تنام البهائم باطمئنان، الحمقى!

فسَّرت بهية واضعة يدها على فهمها: «أمي اعتادت أن تستخدم اللفظ بسرية عندما يغضبها رجل ما، ولكني لم أتوقع أن أسمعه من أميرة».

تعرف بهية أنها كلمة عادية، وليست كما في زمانها محرمة على النساء بحكم قواعد الآداب العامة.

قالت آسينيت: «جلدهم سميك وعقولهم كالنعاج، ينساقون إلى فخ ال-حات، بكل سهولة واثقين بعقولهم المحدودة».

- كيف سنهرب الآن؟

تجمدت آسينيت تحت الظلام عندما التقت عيناها بعينين بيضاوين حاقدتين مشتعلتين.

قال سينغو باستهزاء بارد: «استغرقتِ وقتًا قبل نجاحكِ في الفرار بيب».

قالت: «لقد مات الأمل في مهده، ولكننا في كل الأحوال سنقاوم».

***

«نحن نعرف من نحن ولكن لا نعرف من نكونه».

- شكسبير

انتقلوا إلى بعد جيد من مخيم اللصوص لاستغلال عنصر المفاجأة، ولكن العقل زال عن أوناس عندما رأى الخنزير يأسر محبوبته بين ذراعيه بمحاولة للسيطرة والتعدي عليها، رغم مقاومتها الباسلة وضرب رفيقتها العشوائي لظهره وجنبيه لمساعدتها، فإن كل محاولات بهية فشلت.

أمرت إيزيس: «اهدأ ولا تتهور بالتقدم، نحن لا نعرف بعد كم جنديًّا يخيم معه».

لكن أوناس لم ينصَع وقد سحب بنعومة سلاحه ممسكًا بقبضته للانقضاض، وتصلبت ملامحه وتحولت إلى قناع قاسٍ معتم.

تأهب في وضع الاستعداد وقال: «محب، هل أنت معي؟».

كان محب يشعر بالدوار الذي لف رأسه، عكس أوناس الذي لم يتأثر، فهو لم يعتد تلك التنقلات بعد.

رغم ذلك أجابه: «دائمًا معكَ على قلب وسلاح واحد».

قفز أوناس أمتارًا إلى الأعلى قبل أن يهبط ويصرخ للهجوم!

السخرية غطت وجه محب، وعقله يشتعل بسؤال قديم، عند رؤيته الشرطة والجنود يصرخون لمهاجمة المجرمين ويعلنون عن أنفسهم، أليس من المفترض التسلل ومفاجأتهم؟ لمَ بحق الرحمن هذه الصرخات التي تعلن عن وجودهم وتمحو عنصر المفاجأة كالعادة؟ يبدو أنهم ورثوا الكثير، الذنب على الجينات.

التفت لإيزيس وقال: «لا تقولي إنكِ لن تتدخلي!».

غمزت بمرح رغم الشراسة وقالت: «بل سأفعل وبأشَر الطرق، الفتك بالعدو هوايتي المفضلة».

تنفس بارتياح وسحب المنجل الضخم وركض نحو أوناس الذي اشتبك مع الجنود بالفعل.

هبت الأعاصير على الفور حولهم تنزع كل أسلحة الجنود بعيدًا، وأرعبت الجياد التي هاجت وماجت للتحرر من قيودها والفرار.

فُزِعَ الجنود حقًّا عندما التفتوا إلى الصوت الصارم المرعب لإيزيس المقتربة بتروٍّ رغم الكارثة التي افتعلتها، متحكمة بالرياح، أحد عناصر الطبيعة!

استغل محب وأوناس اهتزازهم للحظات فقتلا بعضهم، والبعض الآخر ثابت في الدفاع، ورغمًا عن أوناس احترمهم، وإن كانت قضيتهم متضادة، في النهاية الجندي الحقيقي لا يفزع من سلاحه.

سل سيفه يضرب بمهارة ويصرخ ممسكًا خنجره الذي تشبَّع بدماء الأعداء رغم مهاجميه الكُثر، بينما محب رغم جهله بفن الحروب البدائية، فإن أسابيع طويلة مع أوناس قضاها في الصراع صقلت مهارته قليلًا. هاجمه أحد الجنود وهو يحارب في ظهر أوناس رغم تباينهما الجثماني، فرفع منجله وهوى على حربة الجندي متسببًا في خدشها، لكن الجندي باغته بضربة أسفل بطنه فأجزم بموته، وكالعادة أنقذ أوناس ظهره حين مد سيفه يمنع حربة الجندي من الوصول إليه، بوجه عابس شرس وغاضب لكنه يحافظ على تفكير المحارب وتحركاته، لهث محب وهو يرفع سلاحه من جديد يوجهه نحو عنقه، وانشغل أوناس بالتصدي لجنود آخرين.

استغل محب الفرصة لينهي حياته صارخًا بمرح مفتعل: «أشكرك لإنقاذ حياتي على ما أظن».

سخر أوناس: «تحتاج إلى الكثير من الشكر، فهذه ليست المرة الأولى، مما يدفعني للسؤال، هل أنت تساعد فعلًا أم تُلهيني؟».

قفز محب من جديد يواجه آخر وقال بتلوٍّ: «يسعدني أني أزيد من حسك الفكاهي ونحن على وشك الهلاك الدائم وبسببك».

– أردت المعرفة، والعلم ثمنه باهظ فلا تتذمر.

الكثرة تغلب الشجاعة وهذا ما لا تريده إيزيس، لذا لم تكتفِ بالتلاعب بالرياح، بل تلاعبت بالنيران التي وجَّهتها للجنود واحدًا تلو الآخر، وشقت الصحراء لتبتلع آخرين.

تخلص أوناس أخيرًا من أغلبهم وترك البقية لتلاعب إيزيس ولمحب، واندفع نحو سينغو الذي صُدم للحظات قبل أن يعيد سيطرته على نفسه، واختار الجُبن الذي لم يحترمه أوناس، إذ احتمى خلف الفتاتين مهدِّدًا بنحرهما، ولم يحاول حتى التقدم لمساعدة جنوده، أي قائد هذا الذي لا يهبُّ لقيادة جيشه؟! أين شرفه؟

ولكنه تذكر، هؤلاء لم يكونوا جيشًا نظاميًّا يومًا، أي لا شرف يربطهم ولا ولاء يحكمهم، مجموعة من العراة المتفرقين الذين جمعهم شيء واحد، المطامع!

قال أوناس: «اتركهما وربما سأدعك تعيش».

ارتسمت ابتسامة متكبرة وبشعة على شفتَي سينغو الممدودتين في تلك الحلقة الضخمة، وشد على عنق آسينيت التي احتجزها خلف ذراعه ساحبًا نظراتها إلى الأعلى نحو وجهه.

وقال: «الثقة والغطرسة نفسهما اللذان تحدثت بهما قبلًا. أهذا مدربك أم عاشقك؟».

توسعت ابتسامة أيضًا في عينَي آسينيت الجميلتين وقالت بتملك وزهو: «الاثنان، والآن أستطيع القول بثقة إنك ميت».

تحولت الابتسامة إلى البغض وقال: «ليس قبلك بيب».

العنف داخل أوناس قادر على اجتياح مدن، والغيرة من التصاقها بهذا الحيوان قادرة على إحراق العالم أكثر من نيران إيزيس التي تركت لحوم الجنود تتساقط عن عظامهم مخلِّفين صرخات بشعة.

ما منعه في هذه اللحظة ليس احتجاز آسينيت، لأنه يعلم جيدًا قدرتها على التحرر، وقد علَّمها بنفسه كل الخدع إن وقعت تحت أيدي العدو، ولكن ما أوقف كليهما هو خنجر سينغو الموضوع على قلب الفتاة الزائرة المجروحة قبلًا بالفعل.

قال أوناس: «تحلَّ بالشرف قليلًا ونازلني، إن تغلبتَ عليَّ فأنت حر بالمغادرة بهما».

عبس وجه سينغو بتعبير ملتوٍ يحدق نحو إيزيس التي وقفت بمجدها وسلطانها على بعد خطوات بتعبير يشع احتقارًا.

وقال: «ليس والساحرة معكَ».

التفت أوناس يقيِّم المشهد بنظرة خاطفة سريعة، لقد انتهوا من الجنود، وهربت الخيول، والرمال غطت أيَّ أثر لعتادهم، ووقف محب بجانبها نظره معلَّق بعينَي الفتاة الزائرة بعذاب سرمدي!

أجزم أوناس بهيمنة لا تقبل الشك: «لن يتدخل أحد منهما، كلانا جنديان كلٌّ منا يحارب لقضيته».

لوى سينغو يده على عنق آسينيت يقرِّبها أكثر، ودفن وجهه في نحرها قاصدًا إثارة غضبه، فالغضب يفقِد الجنود بوصلتهم ويدفعهم إلى التهاون وترك ثغرات لهزيمتهم.

قال سينغو: «قضيتي أصبحت حولها، حدَّ أني أفكر أن أمنحك قنفذكم الهزيل دون نزال وأرحل بهذه الفاتنة الشرسة».

هدرت إيزيس محذِّرة بسلطة: «لا تتهور يا أوناس».

بصقت آسينيت باشمئزاز شديد، ورغم النظرة المجروحة من الإهانة لفعلته، اندفع عقلها مغذيًا حقدها لحل واحد، ألقت رأسها إلى الأعلى دون اكتراث، وانقلبت عيناها تمامًا إلى لون أزرق مشع وخطير، وتحول صوتها إلى نبرة غليظة خشنة انتفضت على إثرها بهية بالاستعداد، وقد عرفت ما القادم حين رددت الأميرة التعاويذ.

زحفت الثعابين السامة من كل صوب نحو بقعتهم تتوجه بفحيحها إلى سينغو، أما عن خنجره وحربته فقد تحولا في لحظة إلى ثعبانين فتاكين.

توسعت عينا محب وأوناس بمفاجأة، فالأخير رغم معرفته العميقة بها لم يدرك قط إجادتها فن السحر الخطِر! أما سينغو فقد هدر بجنون مبتعدًا تاركًا أسلحته، لكنه لم يفقد مهاراته حين قفز على يديه وقدميه إلى الأعلى كما تتعلق القرَدة بأفرع الشجر، وخطف بسرعة من الأرض أحد أسلحة جنده قبل أن يصبح تمامًا تحت أوناس موجِّهًا النصل الحاد أسفل قدميه، تلقى أوناس طعنته بسيفه واشتبك صليل السلاح، وكلاهما يعرف كيف يضرب وأين يتلقى.

نزال متكافئ تمامًا، تجمد الزمن حولهم يراقبون.

حين حاول محب التقدم هدرت إيزيس: «إياك أن تُهينه بتدخلك، قبل ذلك كان مقبولًا مع أبناء جلدته، ولكن مع العدو يجب أن يظفر وحده بنصره».

سخر محب كعادته: «وماذا عن وحدة كل أطياف الشعب ضد الغزاة؟».

ابتسمت بذلك التعبير الشرير وقالت: «الأمر مختلف، أوناس لا يحارب عدوًّا، بل هو نزال وحشين لإثبات هيمنة أحدهما».

حوَّل محب عينيه نحو آسينيت التي شدت بهية بقوة جبارة وبصرها لم يترك مراقبة النزال، بكل زهو وفخر تُجزم بنصر رجلها، حدَّ أن القلق أو الخوف لم يزوراها للحظة واحدة، وليس هذا ما شغله الآن، بل عينا بهية المفعمتان بالإعجاب دون خجل! وكأنها... كأنها وقعت في الحب من أول نظرة.

فغر محب فمه على متسعه عند هذا الخاطر باستنكار مختلِط بالذهول، أبعد كل ما بذله للفت أنظار جلمود الصخر المتخشبة، قطعة الجليد، مُحبة الكتب والاستكشاف، ولم يحظَ بنظرة انبهار واحدة، وها

هي ذي تقع في حبائل رجل أكبر من جدها الألف! حتى إنها لم تحاول النظر إليه والهتاف بأنها سعيدة لرؤيته سالمًا، لم تُبدِ أي اهتمام مطلقًا، وكأنه هواء!

توسعت عينا بهية بالرعب تجاهد لصراخ تحذيري، فأوقف سخطه محوِّلًا عينيه إلى اشتباك سينغو وأوناس، بهية فقط من أبدت الخوف، ولكن إيزيس وآسينيت لم يرمش لهما جفن.

لقد استطاع سينغو خدش صدر أوناس بنصل حربته، وابتعدا يلهثان بصوت عالٍ، يحومان حول بعضهما بعضًا برقص الضواري، يبحثان عن نقطة ضعف يفتك فيها كلٌّ بخصمه.

قال سينغو مستفِزًا: «الفتك ببعضنا بعضًا الآن لن يجدي، دعني آخذ المحارِبة وخذ أنت الأميرة وعُد فرِحًا بنصرك لوقت ضئيل حتى يحين وقت قتالنا الحقيقي، وأعدك أني قد أدعك حينها تعيش وتخدم في أحد قصوري المستَرَدة منكم».

عبس أوناس قليلًا بحيرة خالية من مشاعر الغضب، ولم ينجرف لاستفزازه بتمسك هؤلاء المعاتيه بأن لهم حقًّا بكيميت.

ولكن الأمر اتضح حين قالت آسينيت بنعومة خطِرة: «الجاهل خلط الأمور، يظن أن باهية أنا».

لقد تعمدت أن تستخدم اللسان الذي يجيده سينغو رغم أنها كانت قادرة على استخدام لسانهم الذي لا يعرفه!

نظرة الصدمة شابهت صفعة قوية على وجه سينغو كادت تقلبها على ظهرها ضحكًا بتشفٍّ، ووجهه نضح بصفار حاد.

ومن بين الوجوه الكالحة هدر بغباوة: «ماذا تقصدين؟».

رفعت آسينيت رأسها حتى خيِّل إليهم أنه لامس السماء كبرياء: «أنا الأميرة آسينيت ابنة أوسركان، جوهرة كيميت ابنة الملك ومفتاح النهر».

ترنح سينغو بقوة وذعر لحظيٍّ، ليس لذرة شرف يحملها، ولكنه مؤكد رغم جموحه فولاؤه لملكهم، وحلمهم بالأرض السوداء المزهرة، وهذه كانت مفتاحهم الذي سيساعدهم على إرساء مملكتهم دون حروب طويلة، وهو طمع فيها لنفسه، بل كان ينوي الليلة أن يجعلها له لولا تدخل هؤلاء الأوغاد وتلك الساحرة.

ترنحه كان نقطة الضعف المطلوبة، حيث استغلها أوناس وبدأ في مهاجمته، فتلويا وتراقصا حول بعضهما بعضًا ببراعة شديدة من جديد وصوت أسلحتهما يصدح، حتى استطاع أوناس أخيرًا أن يقسم حربته إلى نصفين، قافزًا إلى أعلى بمهارة، وهبط بسلاحه وبيد واحدة على الحربة، وحين هبط على الأرض انحنى على ركبة واحدة ودس سيفه بيد سينغو فطارت إصبعه مع باقي الحِربة المعلَّقة، ثم ارتفع بسرعة ليوجه قدمه نحو سينغو المذهول، لم يسبق أن هزمه أحد من قبل، وببساطة أطاح به على الرمال ووضع قدمه على عنقه ينظر إليه من علوٍّ بتشفٍّ وغضب.

سمع صوت إيزيس الساخر بمرح: «حرمتَني من المساعدة، لا تقل إنك أناني وستحرمني من جذب هذه الحلقة المريعة عن شفته التي تطلق التُّرهات».

صدره يعلو ويهبط بعنف شديد، عيناه تدوران بكل طرق الجنون للفتك به، والتمثيل بجثته، ليس لأنه العدو فقط، بل لتجرئه على لمسها.

شعر أخيرًا بنار وماء، بنسمة وبسمة، بجمال الطبيعة الذي سحره وبنبض القلب الذي امتلكه حين اندفعت آسينيت لتحتضنه بكل الشوق الذي خُلق في العالم.

بصمت وقلب يهدر وكأنه يركض لأعوام استدار نحوها غافلًا عن محاولة سينغو للنهوض من جديد، ولكن إيزيس بملل حركت أصابعها لتقيِّده حول نفسه متسبِّبة في تكسير عظامه، لقد جمَّدته حرفيًّا بصرخة ألم عالقة على وجهه الساكن.

رفع أوناس يديه وأخيرًا استطاع أن يهدئ لوعة قلبه ويضمها، جذبها إليه كما تمسكت فيه بكل قوتها تلف يديها حول خصره متضامنين، رائعان يهزان القلوب من صدق حبهما، انحناءات جسدها تشكلت على جسده القوي وكأنهما قالب ومجسَّمه!

عيناه مغلقتان كما عينيها اللتين هبطت منهما الدموع مدرارًا، لم يحتاجا إلى الحديث أو صخب لقاء العشاق، فتمسكهما بهذه الطريقة يكفي ليقنع أيًّا من كان بصدق عشقهما ومعاناتهما في البعد، هذان الاثنان إن افترقا سيموتان فعلًا.

كسرت آسينيت حدة الصمت الذي لف الجميع وقالت: «كنت أعلم أنك ستحارب لتأتي لي كما حاربتُ، ثقتي لم تتزعزع يومًا كما حاولوا إقناعي».

أبعدها للحظة كارهًا قبل أن يحيط وجهها بين كفيه ينظر إلى عينيها الدامعتين المكحلتين بالحب.

قال: «أنتِ بخير كما وعدتِني آخر مرة، وهذا كل ما يهمني، تشكيكهم في حبي وإخلاصي لا يعنيني، لأنكِ تعرفين أنكِ تملكين قلبي».

صمت قبل أن يبحث بعينيه عن جروح بها أو أي أذى قد ألم بها، لقد كانت نقطة ضعفه الوحيدة التي بحث كل عدو واجهه عنها، وهو لوقتٍ طويل أخفاها جيدًا خوفًا عليها.

أضاف بمرح عَلّه يداري ضعفه: «لقد بقيتِ سالمة، يحق لي الفخر بكِ مرتين، فقد دربتكِ جيدًا».

ضحكت أكثر ضحكة ساحرة سمعها يومًا وهمست بنعومة حقيقية: «الغضب أحيانًا مفيد، فهو يمنحنا الشراسة اللازمة لنحارب ونظفر بما نريد، هل تذكر نصيحتك المستمرة لي؟».

مرر يده على شعرها الغجري المشعث بعد ما عانته يتفحصها وسأل بحنان ماكر: «وماذا أرادت ملكتي ومالكتي؟».

ردت بصوت يشبه خرير الشلالات: «أنتَ، أردتك أنتَ دائمًا».

تألقت عيناه بزهو العاشق المتملِّك.

وحينها قطع محب سحر اللحظة العاطفية وقال: «هل انتهيتما من فاصل العشق المقيت؟! فنحن في خضم الحرب».

ووقتها فقط سمع صوت بهية يخاطبه وكأنها أخيرًا انتبهت إلى وجوده: «لديك حق، لأول مرة تقول شيئًا محترمًا، أكاد أتقيأ والله من عرضهما».

تكلل وجه آسينيت بالضيق بينما تنحنح أوناس واعتدل دون أن يتركها، وقد تمسَّك بذراعها يلفها حول خصره يثبِّتها بجانبه، لم يهتما لمحب وبهية، من الواضح أنهما اشتبكا بحوار لن يستطيعا وصفه باللطف أبدًا، بدا الاثنان متحفزين لقتل بعضهما بعضًا، مما زرع الشك مع التعجب داخل صدر آسينيت وأوناس؛ لقد ظننا أنهما عاشقان مثلهما.

انتبهوا أخيرًا لإيزيس التي ترمقهم بنظرة عميقة غامضة، دفعت آسينيت إلى الخوف والتمسك بكل قوتها بأوناس، وتذكرت لقاءهما الأول وصفقتهما إن أعادته إليها.

قالت إيزيس: «لا تخافي؛ لن أطالبكِ بوعدك والثمن».

ابتلعت آسينيت ريقًا عنيفًا وأرادت أن تقول شيئًا لطيفًا قبل الشكر.

قالت: «أعرف ما عانيتِه، أشعر بكِ إيست العظيمة».

لاح الهدوء الظاهري على وجه إيزيس رغم الحزن الذي ينفث بخيوطه الشيطانية داخل القلب المفجوع.

وردت: «لن تشعري، مهما تعاطفتِ فالألم مسألة شخصية».

بهت وجه آسينيت قليلًا وقالت: «الحب صديق الألم، يرافقنا في رحلة معذِّبة رغم شعور الحياة الذي يملؤنا».

أسفر وجه إيزيس عن ابتسامة حزينة أسقطت كل أقنعتها المراوغة لأول مرة وقد تكون الأخيرة.

اعترفت: «العشق، التمني والحلم، زرعوا طعمًا مُرًّا للحياة بداخلي، وهذا لم أرِده».

سمعت صوت أوناس الهادئ يقول: «الحزن الباسم في وجه بشوش وأعماق تحترق».

أومأت تسبل أهدابها وتمحو لحظة ضعفها قائلة: «يبدو أنك أكثر من عضلات وسيف يدق الأعناق يا محارب».

ضحكت بجلجلة قوية تخفي كل المشاعر المتضاربة داخلها.

أضافت بروح الأم وقوة الملكة: «تُذكِّرني به، لذا سأساعدكما للنهاية دون أن أطالب بما تعهدتْ به محارِبتك».

تحررت آسينيت من حصاره الذي احتجزها فيه، وكأنه خائفٌ من ضياعها من جديد، وانحنت بهيبة واحترام تحت قدمَي إيزيس.

ثم قالت: «شكرًا لكِ، أشكركِ لعطفكِ ورأفتكِ بقلبي».

انحنت إيزيس نحوها ثم رفعتها لتشمخ أمامها تأمرها بنبرتها الملكية: «المرأة المصرية لا تركع، لا تركع أبدًا إلا للصانع. تذكري هذا دائمًا، أنتِ من دم إيزيس».

ربتت على وجنتها وأضافت باسمة: «لقد أحسنتِ صنعًا مع الأوغاد، هذه هي الحفيدة التي أفتخر بها».

توسعت ابتسامة آسينيت قبل أن تودِّع رهبتها وكل ما تعلمتْه كملكة مستقبلية، واندفعت كطفلة صغيرة فرِحة باستحسان فعلها، واحتضنت إيزيس بقوة.

توسعت عينا إيزيس مأخوذة للحظة متجمدة، إلا أنها في النهاية مدت يدها بتردد قبل أن تضمها بقوة وفخر الأم نفسهما.

راقبهما أوناس بقلبٍ يهدر وبعينَي عاشق، أقسم ألا يدعها تبتعد عن بصره مرة أخرى أبدًا.

***

نطق محب مستهزئًا بشدة مغتاظًا لأبعد حد: «أنا بخير حال، شكرًا لقلقكِ الرهيب عليَّ، لا، أرجوكِ لا تبكي لأني رميت بنفسي في الأهوال للعودة إليكِ».

وازداد حنقه حينما جفلت وكأنها للتو لاحظت وجوده مع قولها البارد: «لا شكر على مشاعر لم تحدث، أنا لم أقلق عليك في الأساس».

اصطكت أسنانه بصرير مزعج وقال: «أصدقك القول، أنتِ نذلة باردة يا بهية».

هزت كتفيها بلا معنى ورفعت يدها نحو الجرح الذي شعرت بألمه بعد أن زال الهلع والخطر السابقان.

ردت ببساطة: «بتُّ أعرف، لقد أوضحتَ هذا قبلًا كغيرك».

لثوانٍ استغرقت عيناه في تأملها والخائن بين ضلوعه ينبض بالقلق والشوق!

تبددت المشاعر برهبة مقتربًا وهو يقول: «ماذا فعلوا بكِ؟».

هزت رأسها مبتسمة ببؤس تقول: «أنا بخير، جرح سطحي، لا تخف».

رغم القلق الذي لم يتركه أجاب بنبرة مكتومة: «يجب أن أظهِر خوفي كما هلعتِ أنتِ عليَّ».

ما به المجذوب؟ أيريد أن يسحب منها اعترافًا بخوفها عليه جبرًا؟!

امتعضت تجيب بفم ممطوط: «في الحقيقة لم أفكر في مصيرك إطلاقًا».

سأل بخيبة طفولية مضحكة: «إطلاقًا إطلاقًا؟!».

هزت كتفيها مستفِزة وقالت: «على الإطلاق، ضع نفسك مكاني، أنت هنا بعبق التاريخ وأصالته، هل سيسرق تفكيرك مجرد شخص تعرفه معرفة سطحية؟ أم تتوغل بنهم ملتهمًا كل ما تستطيع من المعرفة؟».

ويقولون إنه مستفز! إذًا لم يعرفوا بهية بعد، حجتها ألجمته وعجز عن أن يجد ما يقوله، بهية إن سرقت منه نبضه فهو لم يلفت نظرها من الأساس.

راقب عينيها المبهورتين تتابعان أوناس وصوتها الفضولي ترن فيه ألوان الفرحة والإعجاب، ذكَّرته بالبلهاوات اللاتي يُعجبن بممثل وسيم!

قالت: «إذًا هذا أوناس، محظوظٌ أنتَ؛ رافقتَه وكنتَ بجواره (يا بختك)».

وتنهدت برومانسية شديدة وبنغمة لم يسمعها من بهية المتزمِّتة قبلًا!

تخصر ورفع كفه يقرض أظافره بغيظ إثر النبرة والنظرة المريعة في عينيها.

أضافت بشاعرية: «آه يا اسمراني اللون، حبيبي الاسمراني، آه ياللي عيونك شمعة وضحكة وبحر ونسمة صيف. مؤكد شادية قصدته حينما تغنت بتلك الكلمات».

- أنتِ مستفزة وغبية يا بهية.

ارتبكت من نبرة الحقد في صوته، فالتفتت إليه ونظرة عينيه وكأنه ينوي قتلها جعلتها تتراجع بخوف لحظي.

ردت مدافعة وإن لم يخلُ صوتها من الإعجاب الفياض الحالم: «ماذا؟ انظر إليه بالله عليك، أليست الكلمات مفصَّلة عليه؟».

صرخ في سجال: «لا حول ولا قوة إلا بالله، أنظر إلى ماذا؟! هل أنتِ مجذوبة؟! مؤكد أنتِ كذلك».

تمتمت بصوت جانبي تخفض وجهها إلى الأسفل: «الإعجاب حق كل مواطن ما دام لم يتخطَّ حدوده، ما به هذا المتخلف؟».

توسعت عينا محب بتعبير وحشي وردد: «متخلف؟! أنا المتخلف هنا؟ أبعد أن أخرجتُ عينيَّ حرفيًّا لألفت انتباهكِ وأنتِ تعيشين دور العصية التي لا تلتفت لأي رجل، تأتين الآن وتُعجَبين لأول مرة في عمركِ البائس برجل يكبرك بما يفوق سبعة آلاف سنة؟ أنا المتخلف؟!».

ارتبكت بشدة واحمر وجهها، ولكنها ردت باستفزاز تكرر قول آسينيت: «أمر القلوب ليس بأيدينا، ماذا أفعل في حظي؟».

رفع ذراعيه إلى أعلى باستسلام وقال: «لن أخوض هذا الحديث حتى لا تصيبني جلطة».

عضت جانب فمها ببعض الخجل وقالت: «لا تكبِّر الأمر يا محب، مجرد إعجاب بأحد أجدادي، أنا لديَّ أخلاق تمنعني من الاقتراب من رجل آسينيت صديقتي».

فرك وجهه بيأس رغم قوله المتعجب قليلًا: «آسينيت مجردة وصديقتك؟ وما يمنعكِ فقط الإخلاص لها؟!».

توسعت ابتسامتها تجيبه ببساطة: «ولماذا العجب؟ أرى أنك بطريقة ما أصبحت صديقًا لأوناس!».

سكنت نبرة غريبة في صوته يعيد تأملها بثوبها الملكي حتى وإن كان مغبَّرًا ممزَّقًا بشدة، فهي في هذه اللحظة جميلة تأسر عينيه بطلَّتها الجديدة، وتأكد يقينًا في قلبه أن اهتمامه بها ليس لخجلها وذكائها، أو لأن أفكارها وإيمانها وشغفها بالآثار يتشابه معه، بل لسحرٍ آخر خاص بها.

خاطر عجيب أخبره أنها المنتظَرة والمطلوبة، نصفه الآخر الذي ينتظره حتى قسم النصيب باللقاء.

رفعت يدها نحو نحرها من جديد وسألته بارتباك تعددت أسبابه: «لماذا تحدق إليَّ هكذا؟».

تبسم بهدوء رجولي وقال: «ألا يحق لي أن أطمئن عليكِ بعد طول خوف؟».

اهتزت ابتسامة فرحة لم تكتمل وقالت: «أكنت خائفًا عليَّ بالفعل؟».

قال بصوت رخيم هادئ: «ولماذا العجب؟ ألم نأتِ معًا؟ أنا المسؤول عن سقوطك هنا ويجب أن أعيدك إلى زمننا بسلام».

ابتأست ونهرت نفسها داخليًّا: (وماذا توقعتِ يا حالمة أن يكون سبب قلقه؟ لأنه وقع في جمال عينيك؟).

سحقًا! يبدو أن عشق آسينيت المريع أصابها بالتبعية، فأصبحت تواقة لدقة قلب يبديها رجل نحوها، والأشد غباء أن تنتظرها من محب!

ردت: «نعم، نحن كذلك».

وكأنه قرأ اضطرابها وكرِهه، فقد أخذت من الكلام ما يناسبها وتغاضت عن أجزاء قد تهدِّد تصدع جدران قلبها.

استحال وجهه إلى قطعة من الحجر الأسود في رد فعل غير مفهوم حين هاجمها: «بهية، هل أنتِ باردة صماء فعلًا أم تدعين الغباء؟».

غضبت وقالت: «لا أسمح لك، فأنت تخطيت حدودك».

رد بكبت صارخ: «بالضبط، تسمعين ما تميل له أهواؤك وتتغاضين عما يهدِّد سلامك البائس».

تمالكت نفسها بصبر العالم متعجِبة وقالت: «لا أفهم سر هجومك يا سيد محب! لقد أنصتُّ لكل حرف تفوهتَ به حتى وإن كنتَ تلوح باتهام أرفضه».

صمتت لبرهة قبل أن تضيف بصبر: «من الواضح أن أعصابك متعَبة بعد ما واجهتَه في رحلة العودة».

أخذ نفسًا عميقًا مبتلعًا ريقًا جافًّا وقال بخشونة: «رحلتي لم تهدِّد سلامي، بل عدم فهمك والإنصات لما أحاول البوح به».

سألت بتعجب: «وما الذي قلتَه ولم أستمع له؟!».

قال بغيظ بدد سلامها اللحظي: «ماذا عن جزئية أني أحاول لفت انتباهكِ من يوم معرفتي بكِ؟».

ارتبكت بشدة وتعثرت وراقبها تهرب من أمامه متوجهة نحو إيزيس التي زالت رهبتها منها، من الواضح أنه حدث الكثير في غيابه القسري، ويجب أن يستجوب بهية بشأنه، مهتم بكل ما جرى معها وما

عرفته، ولكن من الواضح أيضًا أنها لا تُلقي أي بال لما حدث له في رحلته!

***

تحرر سينغو من سحر إيزيس وقيَّد أوناس يديه وقدميه، ولكنه ترك فاه حرًّا قاصدًا، وجلس على عقبيه أمام جسده المتسطح فوق الرمال.

قال سينغو: «لم تنتهِ الحرب، سأعود مع القبائل وأهدم كل حجر فوق رأسكَ».

نظر أوناس نحو وجه آسينيت التي جلست بجانبه تريح ذراعها فوق كتفه برقة وسخر: ««مهياص» هذا السينغو، كيف تحملتِه الفترة الماضية؟».

تصنعت تنهيدة متعَبة متلاعبة وقالت: «المضطر، ماذا أفعل؟ كان يجب أن آتي معه حتى أجمع معلومات كافية، وللصراحة ذلك المهياص لم يدخر جهدًا في إعلامي بعدد محاربيهم ونوع عتادهم وخطتهم للهجوم علينا».

مد شفتيه بتقييم ساخرًا وقال: «كثرة الكلام توقِعك في الخطأ، أظنها أكبر مشكلاتكم وتسببت في هزيمتكم الدائمة».

قال سينغو: «اقتلني إن كنت شجاعًا».

ابتسم أوناس بصرامة ورد: «بل سأرسلك بأغلالك إلى ملكك حتى يعرف مصيره المكتوب».

رغم غرور سينغو وكبريائه المحارِبة، فإن عينيه توسعتا بالهلع البحت، جان لا يتساهل مع الأخطاء، وإن كان يتوقع موتًا رحيمًا من أوناس، مؤكد جان سيمثِّل به قبل أن يقتله، فقد أفشل مخططه.

فتح سينغو فمه ليقول شيئًا، ولكن أوناس أسكته ووضع قطعة قماش في فمه.

جذبت انتباهه آسينيت وهي تضع ذقنها على كتفه وقالت بنعومة: «ستتركه دون عقاب لما قاله لي؟ لقد توعد بجعلي سبيته الخاصة و...».

مع اشتعال عينيه أضافت بخجل مصطنع: «وتفوه بأشياء جرحت نقاء أذني، أريد حقي قبل إرساله».

مد أوناس يديه نحو الحلقة المتدلية من فم سينغو وسأل بنبرة ناعمة: «ماذا يرضيكِ، قطع اللسان الذي تجرأ مثلًا؟».

وعقب ما تفوَّه به جذب الحلقة بوحشية وخلعها بيده، فتلوى سينغو بألم هادرًا بصوت وحشي.

ارتفعت آسينيت ترفرف برموشها حول عينَي الشمس الساكنة في المُقل.

قالت: «ما يرضيني أخجل عن قوله، لكني رغبت في تخليصه من رجولته ككل».

أومأ وخنجره يطال ما بين ساقَي سينغو، الذي ماج جسده بجنون محاوِلًا الفرار.

تدخلت إيزيس بحزم وقالت: «لا، لن تفعل، حقك خذه، ولكنك لن تسقط في بئر وحشيتهم، فنحن لا نمثِّل بالبشر، قضيتنا الدفاع عن شعب وأرض، لم نكن يومًا معتدين وحشيين ولن نكون أبدًا».

توسعت ابتسامة المعرفة والفخر على وجه محب، ونظر إلى إيزيس باحترام، شيءٌ آخر توارثوه من الأجداد، في تاريخ مصر كله وحروبها الكثيرة لم تسجل قط أنها كانت أرضًا معتدية، بل أرض معرفة ترفع رايات العلم على بقاع الأرض كافة، نحن شعب ندافع ولا نهاجم أبدًا، لم نكن من بادئي الحروب.

سمع بهية تقفز كالعفريت نحو أوناس تشير بغضب وألم وتقول: «لقد جرحني بقصد ذبحي كالنعاج، أليس لي حقٌّ عليكَ مثلها؟».

ابتسم أوناس بجاذبية وقال: «لكِ، وسيدفع ثمن جرحك وذعرك يا با-هية».

تخضبت وجنتا بهية وتلعثمت بخجل مؤجِّجة رغبة محب الوحشية في قتلها صارخًا (لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراقَ على جوانبه الدمُ).

قال محب: «بهية».

فقط اسمها خرج من بين أسنانه، فتراجعت على الفور مقهورة بغيظها ووقفت على مقربة منه.

سمعوا إيزيس تأمر بهدوء: «أوصل رسالتك واتركه، يجب أن نعود إلى ما هو أهم».

أومأ بطاعة واستل خنجره وبدأ في الكتابة فوق صدر سينغو مباشرة:

«لقد طلبتَ الدم، ولن تحصل إلا على الدم، أتيتَ للفخ وستدخل أرض مقبرة الغُزاة، مرحبًا بك في العالم الآخر».

تحشرجات سينغو صمَّت آذانهم، ولكن أحدهم لم يهتز عن التحديق عدا بهية التي أطلقت صرخة صغيرة، ودفنت رأسها في كتف آسينيت التي احتضنتها بهدوء وتفهُّم.

رفع أوناس عنه ما صمَّ به فمه، وقبل أن يدرك سينغو مرر أوناس خنجره على نحره بخفة.

وقال ببرود: «هذا قصاص. سأترك لسانك رغم رغبتي في قطعه حتى تخبر ملكك عما رأيت، وأعدك المرة القادمة التي سأراك فيها ستدفع ثمن كل كلمة قذرة وجَّهتها إليهما».

رد سينغو: «المرة القادمة سأقتلك يا أوناس».

لم يرُد أوناس، ونظر إليه بسخرية ثم وقف يجلب جواد سينغو الذي أبقوا عليه، ثم رفعه ومدده منبطحًا فوقه قبل أن يلكز الجواد للجري.

وقال: «الجياد ذكية ستوصلك، وإن عشت بعد خذلانك له، مؤكد لنا لقاء آخر يا محارب سينغو الهمام».

ختم جملته بسخرية شديدة دون أن يغفل عن زئير سينغو المتوعد.

***

الوهج الخامس

بعد أن هدأت الأوضاع وأمَّن كلٌّ على رفيقه جلسوا قليلًا ليرتاحوا ويتسامروا ويتبادلوا تفاصيل ما حدث.

باشرت آسينيت بالاهتمام بجرح بهية بعد أن بحثت عن بعض الأعشاب الصحراوية التي تفيد في العلاج.

سمعت بهية تهذي بمزاح رغم شدة الألم: «وطبيبة أيضًا؟! ما الذي تخبئينه من المهارات أيضًا؟».

طحنت الأعشاب وأضافت إليها بعض الخبز المتعفن الذي يحتوي على مادة البنسلين.

وردت بهدوء: «سأدعكِ تكتشفين بنفسكِ، أليس هذا ما يهدئ روعكِ للبقاء هنا واستكشاف ما يحدث؟».

جفلت بهية عندما لمست آسينيت الجرح المتقيح.

قالت: «أرغب في معرفة الكثير، وكل ما أستطيع اكتشافه عنكم، أرغب في العودة بكل الحقائق، فهذه رسالتي التي أريد أن أوصلها إلى العالم أجمع».

- ألم تكفِ المعرفة التي تركناها لكم على كل حجر؟

حركت رأسها بأسى وقالت: «رغم كل المعرفة والوقائع التي أخبرتْنا عنكم، فإننا لم نؤمن بربع الحقائق».

مالت آسينيت برأسها قليلًا إلى اليمين للتأكد من وضع الخليط بحرفية.

ثم قالت: «كيف حال الناس في زمنكم يا با-هية؟».

اعتراها حزن عميق للحظات وأجابت بغضب: «أصبحوا مشكِّكين كافرين بنَسبهم وعراقة تاريخهم وحضارتهم، ينسبون أنفسهم تارةً إلى أصول المحتلين، وتارة أخرى إلى المخالطين، وكأن نسب الأجداد المصريين أصبح عارًا للبوح به، وحتى من يؤمن بجذوره ويتفاخر بها كما يجب على كلِّ مصري يُقابَل بهجوم وسخرية».

اهتزت عضلة بفم آسينيت وكسا ملامحها العجب وهي تقول: «لا أستطيع أن أصدِّق يا با-هية تفريط أحفادنا في إرثنا بهذه البساطة! نحن لم ندخر جهدًا لنترك ما يجعلكم تفخرون بنا وبأصولكم».

- أتعلمين ما المؤلم في الأمر؟ أننا نسينا بالفعل من نحن، في زمني نتفاخر بحرب اكتسبها المحتل، وبازدهار جوانب الحياة من زراعة وصناعة وتعليم أقامه المحتل لمصالحه الشخصية.

بل بعضهم يتطرف ويتمنى إن عاد هذا المحتل وحكمنا من جديد بعد أن طردنا آخر فرد من نسله شر طردة! متناسين أنه مَن سلب الخير وخلَّف الفقر والجوع، ومَن قسَّمنا لدرجة أدنى منه وجعلنا في بلدنا مجرد مواطنين درجة ثانية مسلوبي الحقوق.

صمتت تتنفس بألم وأضافت بحسرة: «في زمني الناس يعيشون أمواتًا، وجوه خادعة ضاحكة وقلوب انتحرت بائسة».

أخفضت آسينيت كفيها ورأسها بحزن على شعب لم تره ولم تعرفه، ولكنها تؤمن أنهم من نسلها.

وقالت: «يبدو أنكم من تحتاجون إلى ظهور إيزيس ومساعدتها وليس نحن، علَّ شيئًا من إيمانكم بجذوركم يعود».

تنهدت بألم ساخر وقالت: «نحن نحتاج إلى معجزة يا آسينيت، معجزة، وفي زمننا انتهت المعجزات وقُضي على آخر بذور السحر».

تمتمت بعد برهة مبتسمة: «الناس هناك تحارب كل شيء، ليس الإيمان بانتمائهم فقط، بل قوانين فرضت أفكارًا عقيمة وتكنولوجيا أصابت الناس بالجنون، حرب دينية، حرب قومية، وحرب للعيش وتربية الأبناء في ظل حرب الأفكار التي تهدِّد بانحرافهم. نحن نحارب عالم ملأه التوحش والجوع والفقر، عالم يغتال بقايا البراءة والإنسانية، فأصبح الناس مجرد أموات يمشون بائسين مستسلمين لمستقبل أسود يوقنون بقدومه».

قطبت آسينيت حاجبيها وقالت: «لا عجب إذًا من كفرِهم بكل ما كان، الجوع والفقر وحرب أفكار وثقافة غريبة عنهم، كل هذا كافٍ لتفكيك مجتمع قوي وإصابته بالضعف والوهن، فجوع البطون وفقد الأمان ينسيك أصلك وعنوانك».

– لقد تفككت طوائف الشعب وهذا أكثر ما يؤلمني، نحن أصبحنا كالأعداء تحت سماء وطن واحد!

ابتسمت آسينيت تلك البسمة المتأملة المستبشرة دائمًا بينما قالت: «لا، أخالفك الرأي، ربما ترينهم سلبيين، ولكن عند الخطر ستجدينهم يدًا واحدة تحارب للبقاء وللدفاع عن حقهم في الأجداد، فهذا في دمائنا».

فكرت بهية بأسى، الخطر يحيط بهم من كل جانب، وإلى اللحظة التي سقطت فيها هنا لم ترَ هبة الشعب المتوحدة تلك كما تؤمن آسينيت، وكما فعل الشعب هنا الآن حين انتشر خبر خطر العدو الجبان القادم من الأدغال!

يعلم الله وحده كم تتمنى أن يهُبُّوا للدفاع وقطع كل يد تحاول التطاول وسلب شبر واحد من أرضهم ومياههم، تُقسم أن تكون على رأس المدافعين فقط ليتحركوا وكفى تخاذلًا.

لم تفصِح عن أفكارها، بل اكتفت بابتسامة أمل بسيطة.

قطع حديثهما قدوم محب ليناول كل واحدة منهما حساءً أعدوه على النار.

سأل بهية باهتمام: «هل تشعرين بالتحسن؟».

قالت بمرح: «بأفضل حال، الطبيبة آسينيت أدَّت المهمة على أكمل وجه».

نظرة الإعجاب في عينَي محب اللامعتين لم تخطئها بهية، ارتسمت الخيبة على وجهها ودارتها بالسخرية.

فقالت: «أليست صغيرة عليك؟».

قهقه محب وعبست آسينيت منزعجة لتعمُّدها استخدام لسان المستقبل.

غمز تلك الغمزة المريعة التي ستدفعها لفقء عينيه وقال: «لأصدقك القول بل أكبر من اللازم، لكن باستخدام منطقك أليس من حقي إبداء إعجابي بجدتي الجميلة؟ الجميلة جدًّا بالمناسبة».

اغتاظت وردت: «سأخبر أوناس ليلحقك بمصير سينغو».

غمز من جديد مراقبًا آسينيت التي رحلت واندست بجانب أوناس الذي فتح لها ذراعه.

فجلس على مقربة من بهية يسألها بسخرية: «لا تقولي، هل تغارين يا با-هية؟».

- بهية، وبالطبع لا أغار، علاقتي بك أصل هذه المحنة السوداء التي أوقعتَني فيها.

تطلع إليها بتلك النظرة الغامضة المذهلة التي تصيبها بالاضطراب، الرداء الملعون يزيد بهاء الوجه الخمري الجذاب بطريقة وحشية، تأسره العينان السوداوان المحروستان بالأهداب الطويلة، أما الحجاب الذي تمسكت فيه بنزعة إيمان تنبض من داخلها لم يزِدها إلا سحرًا.

إنه معجَب، معجَب ببهية، وما عاد في نفسه أي قدرة للحرب الداخلية ونفي مشاعره، يراها بعين عاشق!

نهرته: «لا تحدق إليَّ بهذه الطريقة».

- وكيف أنظر إليكِ إذن؟!

زحفت بعيدًا عنه بمسافة كبيرة قبل أن تقول بجفاف: «لا تنظر من الأصل».

قال بهدوء: «ولكني أريد النظر إليكِ».

لأول مرة في عمرها تشعر بالتهديد والخطر، خطر على أفكارها، على منطقتها الآمنة التي اختارتها، لقد تجنبته منذ ظهوره مع أوناس محاوِلة التسلح بالبرود وعدم الاهتمام بمصيره ميتًا أو حيًّا، قلبها الأحمق لم يرقص طربًا عندما هلعت، ليس على نفسها حين كان سينغو يهدد حياتها، بل عليه عندما واجه الجنود وصوَّبوا أسلحتهم نحو قلبه.

تهربت كالعادة متسلِّحة بأفضل عاداتها، الجبن والسلبية.

قالت: «أخبرني عما رأيته، وما مدى استيعابك لما يحدث؟ لأني ما زلت أصدق أني في حلم سأستيقظ منه في أي لحظة».

تنهد ورفع ساقيه يريح ساعديه فوقهما وقال: «في البداية لم أكن أفضل منكِ حالًا، ولكن ما مررت به جعلني أؤمن».

صمت، فشجعته بحماس اشتعل وقالت: «تؤمن بماذا؟! بأنهم لم يكونوا أساطير ومحض خرافات؟ بأنهم أعظم مما عرفنا؟ بأننا... أننا منهم؟ وأن سلالتهم ما زالت موجودة ولا يمكن أن تنتهي؟ سلالة عظيمة مؤسِّسة للتاريخ بهذه البساطة!».

جذوة غضب اشتعلت في عينَي محب حين أجاب بنبرة خشنة: «هذا شيء أحمل الإيمان به في قلبي، ولم أحتج إلى أن أخطو بقدمي في الماضي لأتأكد من يقيني به».

أسبلت أهدابها وشيء من حماسها يتراجع وقد فسرت قوله خطأً.

قالت: «ما الذي تركتْه فيك الرحلة حتى الآن؟!».

ازداد الغموض مع الجذوة بعينيه محدقًا إلى إيزيس التي جلست تفترش الصحراء، رأسها مرفوع للسماء كما كفاها وكأنها... كأنها تصلي وتتعبد.

قال: «هذه الرحلة العابرة ستُغير حياتي كلها، بل مجرى التاريخ إن قُدِّر لنا العودة واستطعنا إثبات ما نراه، سنكشف الزيف ونخلع الشوك الذي زرعه كل مغتصِب آثم على وهج شمس وطننا».

هبَّ من جانبها ولم توقِفه، ولا تحتاج إلى تفسير مقصده، فما يقوله هو ما سيطر عليها في السابق.

لم تظن يومًا أنها ستكون بطلة حكاية خرافية، ولكنها مؤمنة بقدرة الله فيما يتعدى استيعاب العقل البشري، تعلم أن الأرض لم تُخلَق على القوانين التي عرفها الإنسان الحديث ويجزم بها، هناك خفايا في التاريخ وهناك خلق منحهم الله القدرة على تسخير الخفايا ومعجزاته ليعمِّروا الأرض. ربما انتهى زمن المعجزات في زمانها، ولكنه مؤكد لم ينتهِ بعد من أرض الكنانة بفضل وعد الله والقدرة التي منحها لشعب مصر، أرض مكرَّمة من عرش السماء وبوصية رسوله الكريم ﴿ٱدۡخُلُواْ مِصۡرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ٩٩﴾ [سورة يوسف].

ركع محب على ركبتيه محافظًا على مسافة آمنة بينه وبين إيزيس التي نظرت إليه بهيمنة محفورة على خطوط وجهها المهيب دون أي تصنُّع، فأومأ باحترام خالٍ من تصادمهما وعدائها المعتاد ضده.

فقالت: «لديك الكثير من الأسئلة يا فتى».

رد: «وهل تلومينني؟».

نظرة موحشة مرت بعينيها إذ قالت: «تركنا لكم الكثير».

– وتركتم الأكثر مختبئًا موصدًا في وجهنا وقصدتم ألا تمسه أيدينا.

اهتز صدره بنفَس عابر حين عبثت بأصابعها في حجرها وقالت: «منذ فجر الأرض ويحيط بها الأعداء من كل جانب، ما تركناه موصدًا هدفنا إبعاده عن كل آثم، لعلمنا أنه سيأتي يوم فيفك نسلنا الحقيقي لغزه».

شحب محب ونظر إليها بعينين ضيقتين وصدر يتأرجح بين خيوط العذاب والغضب.

قال: «الكثير من تراثنا لوَّثتْه أيدي الغرباء، فتحوا مساكن الملوك في حياتهم الأخرى، نهبوا كنوزهم ووضعوا أيديهم على تاريخنا، يتباهون في بلادهم بعرض آثارنا نحن، إرثكم أنتم، وكأنكم جدودهم هم لا نحن».

اشتعلت عيناها ولم تترك المجال للتفسير: «لهذا رغم القلق على مصير زمانك وبا-هية لم أسأل، خشيتُ السؤال حتى لا يتملكني الغضب وأتجه إلى القرار الخطأ».

- إن عنيتِ بالقرار الخاطئ ظهوركِ في زماننا ومساعدتنا كما تفعلين الآن، فقد أزيد في جذوة غضبكِ وأخبركِ بأننا أصبحنا مشاعًا للطغاة الطامعين في الأرض، والتحكم فينا بسلب الريادة منا، كيميت كانت على مر التاريخ الدولة الكبرى والأم الراعية، وحتى هذا فمجموعة من حفاة الصحاري الذين كبرت دولهم صدفة في بضع سنوات تُعد على أصابع اليد يريدون سحبه منا!

قالت دون أن يهتز لها رمش بثقة وشموخ: «حاوَلوا قبلًا، ويحاولون الآن، وسيحاولون عمرًا، ولكن لن يصلوا إلى شيء، هذه الأرض محمية بكلمة الصانع وبعهد أصحابها، بنا وبكم يا فتى».

سكتت لبرهة قبل أن تضيف بتثاقل وعيناها تنجرَّان نحو بهية بحنان وحسرة: «كل ما تحتاجون إليه هو الإيمان من جديد بأنفسكم، نفض رداء السلبية وتصديق من أنتم ومن أي أرض خُلقتم وكبرتم. دماؤكم نظيفة يا فتى وعروقكم يضخ فيها الكبرياء وعدم الرضوخ، انفضوا رداء الذل الذي ألبسوه لكم عنوة، وجعلوكم تصدقون أنه يناسبكم، فلا يليق بكم، وكل ناظر إليكم يعلم هذا، يعرف من أنتم، لهذا حُبكت عليكم خيوط اللعبة وقيدتْكم بوهم الوهن».

التوى فكه بضحكة مستاءة وقال: «كم أرغب في نهج إيمانك! ولكن الواقع له رأي آخر».

مدت إيزيس يدًا ناعمة رغم ضخامتها، قوية رغم حنانها، وأمسكت بكفه المرتاحة على وركه تضغط عليها.

قالت: «الجروح تلتئم على مراحل، الدنيا لم تُخلق في ليلة، وعواصف التغيُّر لن تحدث بين فجر وضحاه».

نظر حوله وعقله يسترجع ما مر به في رحلته الخرافية مقارِنًا عبر الأزمان ما يعرفه.

قال: «لن أجادلكِ وإن كان في قلبي أمنية دفينة، وهي أن أراكِ في أرضي يومًا».

ضحكت بهدوء ووقفت من مكانها تسير بعظمة أشعرته بهيبة حضرة الملوك.

تبعها دون دعوة فقالت: «أنت في أرضك بالفعل يا محب، هل عليَّ أن أكررها كل حين؟».

قال بلهفة: «قصدتُ...».

قاطعته: «أخبرني، ما الذي ترغب في كشفه؟ ما الذي يؤرق أفكارك ولا تستطيع تفسيره؟».

قال باندفاع الباحث وشغفه: «من أي زمن وأي ماضٍ أنتِ؟! هل أسطورتكِ حقيقية؟ حورس الإله كيف كان؟ وأين هو؟ وكيف انتهى؟ مَن الصانع الذي تتحدثين عنه دائمًا؟ وكيف تعرفين بوجود الصانع والناس اتخذتكم آلهة؟!».

ارتفع حاجباها تنظر إليه ما بين الحيرة والتعجب اللحظي.

قالت: «ألا يُفترض أنك تعرف الكثير عني بالفعل؟».

رفع يديه يحيط رأسه بعصبية، يكاد التخبط يفتك به ويقتله التنازع ما بين ما يراه وبين ما تشرَّبه عُمرًا، أعوام أهدرها في البحث والتقصي ولديه معتقدات خاصة يرغب بكل جوارحه في كشف الحقيقة.

قال: «أخبرتك قبلًا أن كل ما عرفناه عنكم تشوَّه، فاختلط الواقع بالخيال».

ابتسمت بمكر وقالت: «أنتَ هنا بفعل الخيال».

هدر: «لا، بل واقع، أنتِ أمامي واقع، صداقتي وحبي لأوناس وكأني أعرفه طوال عمري واقع، هجوم الأوغاد وطمعهم القديم واقع، لا يمكن أن يكون خيالًا».

قرأت كل مشاعره وخلجاته وكأنه كتاب مفتوح أمامها.

قالت: «لم يعبدنا الناس يا محب، نحن شعب عرفنا عبر الأزمان أن هناك قوة أكبر وأعظم منا».

مشدوه ومنفتح الأسارير وكأنه سمع لتوه أعظم اكتشاف بتصريح من المصدر الأصلي، أعظم اكتشاف بحياته حتى وإن لم يصدِّقه أحد يكفي أنه عرفه.

قال: «الصانع؟».

رددت بهدوء وخشوع: «الصانع من أوجد الإنسان وطوَّع لنا الأرض وما عليها».

سأل بلهفة وكأنه يخشى أن تطير من أمامه وتهدِر فرصته: «لماذا لقبُ الإله إذن؟».

تحركت خطوتين متمهلتين وقالت: «لقب الإله كان يُمنَح من باب التقدير والتبجيل لكل طبيب أو مهندس برع في صنعته، ولكل ملك أزال طاغية وأحل السلام والعدل».

هتف يتقافز بجنون: «أقسم إني كنت أعرف، أعرف كما يؤمن غيري ولكنهم رفضوا الاستماع».

ضحكت برُقي قائلة: «هذا لا ينفي أن مع مرور الزمن يفقد الإنسان بوصلته وفطرته حتى يرسل الصانع رجلًا صالحًا يرشدنا إلى فطرتنا الأولى».

فكر محب بصمت: (هل تتحدث عن الأنبياء؟).

فتح فمه يهم بالسؤال ولكنها أوقفته بيد حازمة تقول: «الكثير من الفضول يضر يا فتى ويشوِّه كل ما بذلنا من جهد لإخفائه».

ابتلع ريقًا صعبًا مصارِعًا نفسه، يريد المعرفة ويحترق للمزيد، وهي لم تمنحه إلا قطرة من نهر العلم، لم تزِح الغموض المغموس فيه.

توسل إليها: «على الأقل أخبريني ما صلتك بـ «روتي» أبي الهول؟ ولماذا بوابتك عابرة الأزمان هناك بالذات؟ بل السؤال الذي سيفقدني عقلي، من شيَّده؟».

عبست قليلًا وأجابت: «نحن، ومن سيكون؟!».

أعاد سؤاله بقوة: «ومن أنتم؟».

ضحكت بذهول وقالت: «المصريون طبعًا، ماذا توقعتَ؟!».

بإصرار شديد يرغب في التأكد بما لا يقبل الشك، راضيًا حتى وإن ذهبت هذه الحقيقة معه، يكفيه قطع الشك باليقين.

قال: «أنتم وُجدتم على هذه الأرض قبل هؤلاء القوم؟».

انتفضت وتوحشت ملامحها بينما تقول: «هؤلاء القوم مِني، أنتم مِني، كيميت لا تقبل بالدماء الغريبة، وتطرد كل من لم يُخلَق من ترابها».

أشار بيده إلى الأسفل نحو الرمال المترامية نحو الأطراف الحدودية البعيدة.

قال: «حت- كا- بتاح أم مشر- أم كيمت أم مصر، أخبريني أيهم كان صحيحًا، أي اسم أطلقتموه أنتم؟ كيف وُجدتم؟ ولمَ اختفيتم؟ ما هو سر روتي الذي يخفيه في باطنه منذ آلاف السنين ويرفض البوح به؟».

لم تقبل بقلة تهذيبه في حضرتها، فقالت: «سيطِر على نفسك يا فتى واعلم في حضرة مَن أنت».

أطرق برأسه قليلًا يهدِّئ انفعاله قبل أن يرفع رأسه نحوها ويقول: «أنا أبجِّلك، أضعت عُمرًا في محاولة يائسة لإثبات الحقائق عنكم، والآن في خضم ضياع عمر آخر حتى أكتشف سر روتي، لأني أؤمن يا إيست أن ما يوجد هناك قادر على إزاحة كل الرجس عن حكاياتكم».

ملامح صلبة ظن أنها لن تلين!

قالت: «لا نحتاج إلى إثباتك، فنحن نعرف من نحن، ولكن هل تعرفون أنتم؟!».

- أعرف، ولهذا أريد أن أصرخ بها للعالم أجمع، أن أخلِّص بلادي من كل مؤامرة دنيئة تُحاك حولها.

عيناها تحدقان إليه بقوة نمرة شرسة، امرأة مصرية فاضلة بجمال أصيل، بوجه ناعم وشخصية قوية لا تنكسر، مثيرة، أنيقة وحكيمة ومدافعة.

قالت: «كل ما يهمك أنها كانت وما زالت أرض الصانع المكنونة والمحصَّنة، حدودها الطبيعية التي مُيِّزت بها آمنة».

- لا تخبريني بما يريحني.

- أنا لا أمنح عبثًا.

ابتلع بيأس وألح: «على الأقل أخبريني لماذا روتي، ما أصله؟ وماذا قصدتم به؟».

أسبلت أهدابها وأجابته: «عندما تفتح الغرفة ستجد فيها كل ما يريحك».

- فعلتُ كل شيء ولم أستطع فتحها.

ابتسمت بمكر وقالت: «ما لمستُه فيك أنك دائمًا متعجل، تأنَّ في أمرك وافهم ما حولك، تأمل فيما يحدث لكَ لتعرف ما وراءه من حِكَم».

- كنتِ هنا على الأقل قبل هذا العهد بآلاف السنين؟

أومأت بهدوء وقالت بنبرة غريبة دون التفاف: «كنت هنا مع بداية زراعة الإنسان لبذرته الأولى على ضفاف النهر، عشت أعمِّر وأستقي من العلم وأسقي، ساعدتُ المرأة المصرية ومنحتُها قوتها ومكانتها، ونصَّبتُها ملكة على عرش الجنوب، وأرسيتُ مملكة ولدي وانتقمت لزوجي».

تمتم بصدمة خالطها الانتصار: «إن كنا هنا قبل المستقبل بخمسة آلاف سنة فهذا يعني أنكِ على الأقل كنتِ قبلهم بخمسة مثلهم، أي إن ما اكتشفه علماء جيولوجيا الأرض صحيح، وإن أبا الهول نُحِت قبل اثني عشر ألف سنة على الأقل».

نفض وجهه والتفت إليها ليسأل بلهفة: «وبعد؟ ما الذي حدث لكِ؟».

ابتسمت رغم الحزن الذي كحل العينين الطاغيتين وقالت: «لا أعرف بعد، ولا أريد المعرفة، كشفُ المستقبل يا محب يضيع منا لحظات الحاضر بمحاولة بائسة لتغيير مجرى الأقدار المرسومة».

- ولكني أريد معرفة الكثير يا إيزيس، هذا لا يكفي، لا يكفي.

أمسكت صولجانها وفتحت عدة طبقات حتى أصبح يضاهيها طولًا.

وكأنها تستعد لشيء ما حين قالت بنبرة قاطعة جهورية: «اقرأ من الأرض الحكايات، فالأرض لا تكذب».

***

يعلم أنه شديد الأنانية، أنانية تنبع من شدة عشقه الذي ملك كل كيانه.

همست باختناق العاشقين: «لا أصدق بعد أنك أمامي».

كانت يدها تمر فوق جروحه تطبِّبه بدوائها الشافي الذي ابتعد عن الأعشاب التي تضعها الآن. كان الأكثر تعقلًا بينهما، فآسينيت فقدت بجانبه كل حكمتها، لذا دائمًا ما كان صوت العقل في علاقتهما.

قال: «وماذا بعد؟ عفا عني سوبيك لخطر أكبر يحيط بنا، ولكن قوانيننا التي تلزِمنا وكأميرة لن تتساهل معنا».

هبطت دمعتان تحرقان وجنتيها ورفعت وجهها بابتسامة ناعمة قائلة: «حاولتُ التضحية بك وبحبي ولم أستطع، فكيف سيمنح القلب الحزين السعادة لقلوب البشر؟!».

أظلمت عيناه قليلًا ومر وقت من السكون لم يحُم حولهما إلا هواء كالصهد النابع من قلوبهما، حتى اعتدل في جلسته المائلة قليلًا يوقِفها عن وضع الضمادات فوق صدره.

جذب وجهها بين كفيه وقال: «مرت الأيام والشهور وتعاقبت الفصول في بُعدكِ والشوق لم يهدأ، بل ازداد ضراوة، ولكن...»

نشجت وهتفت بقوة: «لقد حاربتُ الوحوش من أجلك، استعملتُ السحر، شققتُ الأرض وخلطتُ الماضي والحاضر والمستقبل، جررتُ سيدة السحر وورطتُ بريئين حتى أصل إليكَ، كنت على استعداد للسفر إلى العالم الآخر من أجلك، فإياك أن تجرحني بما وراء لكن».

عيناه تحاصرانها بوحشية نظرة القائد المخلِص لا الحبيب.

قال: «بعد ما تسببتْ فيه قصتنا يجب التدخُّل، ولكن... يجب أن نُقر أن الملك كان حكيمًا ليعرف ما هو آتٍ إن سمح لنا بالزواج. فراقنا الحل الأفضل للجميع، للملكة القادمة ولشعبنا».

وقع قلبها أرضًا وتفتت تحت قدميها وقالت: «مصلحة الجميع، وماذا عني؟ لا أستطيع، ببساطة لا قُدرة لي على منح نفسي لآخر».

انتفض وكأنه لم يحتمل مجرد الفكرة المطروحة وهمس بشراسة: «لن تحتاجي إلى آخر، لقد أُعدِدتِ كالرجال وستكونين ملكة مُهابة».

ضحكت بسخرية وقالت: «تتكلم بلسان الجاهل الآن، وكأنك لا تعرف القوانين ولا تدرك أن كهنة المعبد لن يسمحوا بتسليمي العرش قبل أن أتزوج بصاحب دم ملكي».

رأته يضغط على شفتيه بأسنانه حتى أدماهما، واشتعلت عيناه بهوس تملُّك لحظي سرعان ما انطفأ كأي جندي مطيع وحكيم.

قال: «زواجكِ بي دون سماح والدك والكهنة سيحرمكِ من العرش، من الحفاظ على امتداد أسرتكِ، سينهي كل ما بذل والدكِ وأجدادكِ من جهد لإرسائه، سنخلق فوضى يا آسينيت».

انتصبت بإباء تزيح يديه بعيدًا عنها ورفعت ذقنها بكبرياء تقول: «لقد حافظتُ على عهد منحته لك، قدمت مشاركتي لكسر اللعنة، ولكني أبدًا لن أحايلك لتخوض الحرب معي، إن لم ترِدني وتواجه الأهوال من أجلي فأنا أزهدك».

ابتسم بشر وتساءل بمكر: «هل أفرح لعودة عقل ملكتي وحكمتها؟ أم أبغض كبرياءك التي تتحدث؟».

مررت يديها بعنف تكفكف دمعها ثم قالت: «حب بلا كرامة ليس حبًّا، بل هو أول درجات السقوط في وحل الإذلال».

ظل ينظر إلى عينيها طويلًا كما لم تتنازل عن التحديق إلى عينيه.

قال: «ستظلين ملكتي، لن يتغير شيء، وسأحميك بحياتي».

توحشت نظراتها وقالت: «لا أريد حمايتك، لا رغبة لي في سماع صوت عقل المحارب. هل تحبني أم زهدتني؟».

ظل ينظر إليها طويلًا دون ابتسام، واجبه يحثه على المضي قدمًا في قراره، والقلب يهزم قرارات العقل.

قال أخيرًا: «لا قدرة لي على الإجابة، لا أريد الكذب على نفسي».

رقَّت قليلًا وإن لم تتزحزح كبرياؤها التي شرعتها لحظة.

قالت: «الناس يكذبون على أنفسهم طوال الوقت، هل تريد إخباري أن عشقي كان كذبة؟».

مد يده وأمسك معصمها بشدة محاوِلًا جذبها إليه، لكنها قاومت السقوط، ترغب في اكتشاف الحقيقة، هل سيستمران في رحلتهما حتى يحققا النصر؟ أم صوت المحارب من سيعلو ويطيع أوامر قائده بالابتعاد عنها؟

قال: «أنتِ الحقيقة الوحيدة التي أعرفها، مهما تعددت وجوه الحب فالأصل عشقكِ، أنتِ النبضة التي عرفها قلبي ولا رغبة لفؤادي في معرفة غيرها».

ارتخت تنظر إليه بطريقة تعصف بكيانه، ورغم ادعائها القوة عجزت عن منع دمعها المتساقط.

مد أنامله يمسحه بحنان وصوته الخشن يردد: «مر-إك آسينيت، مر-إك «أحبكِ مولاتي»».

مال رأسها قليلًا تهمس بشجن: «لستُ مولاتك، ليس بهذه الطريقة، أرغب في أن أكون مولاتك في منزلك أرعى أولادك كما سترعى حبي وقلبي، لا أستطيع يا أوناس التضحية بكَ حتى وإن رفضت كبريائي».

امتدت كفه الخشنة خلف رأسها يجذبها نحو قلبه، يدفنها على صدره بتشدد، وللحظات طويلة ظلت هناك تصدر أنينًا خافتًا تتأوه باسمه وحبه، لكنه لم يجِب.

أحيانًا بعض المواقف يعجز الإنسان عن إيجاد الحل لها، وانتقاء الكلمات التي قد تنقذ أرواحًا، يهيم في عشق آسينيت وغارق في حب بلاده إلى النخاع، بلده وآسينيت حب واحد وإخلاص واحد.

يرغب لها في الأفضل ولا يريد سقوطها، ولكنه مقيَّد بالافتراق عنها، وقد جربه بالطريقة الصعبة، هكذا ببساطة هو غارق ينازِع، ومصاب بخرس أصاب قلبه وضميره بزوبعة من الألم الساحق.

قال: «أدرك أني تجاوزت كل الخطوط وأني جلبت الظلام، أنا على استعداد للتضحية، ولكن ليس بكِ، مر-إك، يا وجه القمر وسبب وجوده».

أخيرًا استطاع أن يهمس وشفتاه تطبعان قبلة قوية فوق رأسها مغلِقًا عينيه علَّه يستطيع السيطرة على رجفة قلبه.

قال: «حيث يوجد الحب لا توجد هزيمة أو ظلام. التضحية يا سر وجودي لن تكون بكِ مولاتي، سأهزم العالم أجمع قبل أن تمسَّكِ ظلاله».

قالت: «ضمني بين ذراعيك، فالحضن الدافئ يمحو كل الخراب».

تشبثت به كما شدَّد عليها مدركًا بأسى أن آخر بنود التعقُّل تبخرت، سيمسك بيدها حتى يمرا من زوبعتهما الكارثية، أو يكون الحل السهل بموته في المعركة كما تنبأ الدليل بخلو مستقبل آسينيت من وجوده.

تحت رايات العشق تُنَكَّس أسلحة العقل ويعلن انهزامه.

***

«البدايات غوغائية لجذب الانتباه، العبرة بالنهايات».

فكرت بهية بصمت: (تُرى ما نتيجة التخبط الذي تعيشه وكيف ستكون نهايته؟!).

تتأمل عيناها العاشقَين تارة، وتنتقل لمراقبة إيزيس بنهم مبهورة كالعادة تارة أخرى، حتى الآن لم تستوعب أنها في حضرة الأسطورة الأنثوية ذات الكبرياء والعظمة، تجزم بداخلها بشكل قاطع أن دمها وجيناتها المصرية لن تختار يومًا غيرها بديلًا، مهما حاولوا أن يزرعوا في العقول فكرة اختلاط الأجناس بحجة أن أرض مصر دائمًا ملتقى للحضارات المختلفة، ربما صحيح، ولكن لن ينفي يومًا حقيقية صفاء العِرق المصري وطبعته الأبدية.

لم تتحرك من مكانها بجانب النار التي خلَّفت جمرًا خامدًا تحت الرماد، كالجمر الساكن داخلها تحت رماد القيود الاجتماعية، ترغب يومًا في أن تكون امرأة حرة بلا قوانين تقيدها وترميها بالباطل لمجرد صرخة يأس لرفض قولبتها بقالب العار إذا رفضت الخضوع لزوج لم تقبل به، كل وظيفته إكراهها لخضوع تبغضه، كل ما تطالب به هو حريتها لانتقاء الحياة التي تريدها لنفسها، وظيفة حلمت دومًا بالتفوق فيها ووضع بصمتها الخاصة.

راقبت بهدوء، بعكس دواخلها، زحف كائن نحوها متخفيًا في الرمال، لم تبالِ أو تحاول التحرر حين اقترب منها، لم تغزُها حتى هزة خوف أو حذر حتى أصبح تحت قدميها، وفي لحظة ارتفع الجسد الأملس وغرز أنيابه في ساقها ينشر سمه.

صرخت دون تركيز، لم تكن بسبب لسعة جهنم التي سرت مع دمائها، بل صرخة استغاثة لكل اللغط الذي تعيش به، في حين حام طائر العقاب الباهت حولها يقاوم!

هل يُقدِم الإنسان على إيذاء نفسه ليهرب من هزيمة حرب شنعاء طويلة؟! الأسير لا يملك رفاهية الاختيار بين النجاة والموت بكرامة. وهل بالموت كرامة إن كانت أسيرة نفسها وضعفها وسلبيتها وصمتها؟! أسوأ أنواع الأسر أسر النفس بالصمت.

في لحظة ما بين الهلع وحربها الشنعاء شعرت بأوناس يطل عليها يدهس الثعبان، مال عليها ممسكًا ساقها ليقوم بالإسعافات الأولية.

ولكن صوت محب الجهوري هزها إلى الأعماق ينشر غوغاء بداخلها: «إياك، إياك ومد إصبع واحدة عليها».

نظر إليه يتمتم بحيرة عظيمة: «ستموت إن لم أسحب السم».

قصف محب بحماقة: «تموت لا مشكلة، ولكن لن تمتد لها يد رجل».

نهره أوناس: «مخك «فنخ» فسد».

فكرت بهية من بين الألم ورعب الخطر: (لقد لمسني غيره وبسببك يا أحمق، كان يومًا أسود يوم رؤيتك).

اقترب محب وركع يمد يديه نحو إصابتها، فصاحت تدفعه بعيدًا: «وماذا فرقتَ بحق الله؟ من تظن نفسك؟!».

قال ببرود لا يعكس أبدًا هلع قلبه: «الرجل الذي سيستر عليكِ إن كُتِبَت لكِ النجاة يا مغناطيس المصائب».

هزت رأسها عدة مرات دون استيعاب لما يقوله، وقالت: «ستر؟ ومنكَ؟ أفضِّل قتل نفسي».

زفر بأسى ونظرة غريبة مرت: «أرى أنكِ لا تدخرين جُهدًا لذلك».

انتفضت رافضة بشدة تقول: «لستُ انتحارية، لقد ظننته أحد الحبال التي سحرتها آسينيت».

سقط وجه أوناس من هذا الحوار العبثي بصدمة ما بعدها صدمة، يقلِّب عينيه بين وجه آسينيت وإيزيس اللتين لم يختلف ذهولهما كثيرًا.

وتساءل: «حقًّا أنتما جادان؟ السم سيصل إلى قلبها إن لم نتصرف».

لمست آسينيت كتف أوناس الذي تحرك فورًا كما أشارت إيزيس برأسها نحو محب، الذي تحرك بدوره.

أحاطت بها الاثنتان، وعندما مدت إيزيس يديها نحو الإصابة، كانت الإشارة اللازمة للسماح لبهية بفقدان السيطرة، وعيناها معلقتان بآسينيت بألم لا يضاهيه ألم، وكأنها تشكو لها.

وتفهمت آسينيت واحتوت بهية وكأنها تقرأ من سطورها المبتورة، تتسلل إلى قلبها وتحرس كيانها، مما جعل إيزيس تتراجع تحدق إليهما بشعور التي جمعت خيوط اللعبة وفهمت أخيرًا كيف تُبنى خطة النصر.

قالت آسينيت بخفوت شديد: «سنفعلها معًا، سنتخلص من السم الذي خالط دماءكِ لوقتٍ طويل وقيَّدكِ».

اشتدت رياح عاصفة فجأة حول إيزيس، فمدت ذراعيها بمفتاح الحياة والصولجان، تطاير شعرها الغجري حولها ورداؤها الملكي أصدر حفيفًا خطِرًا يعلو بصوت الخطر المحدق ببهية.

أما آسينيت فأمسكت بيد بهية تشبك كفيهما متضامنتين بمكان العضة قبل أن تغلق عينيها وترفع رأسها لتردد تعاويذ الشفاء.

اهتز سائر جسد بهية وطاف حولهم العُقاب بشكل واضح هذه المرة ينعق بالحرية.

هلع محب وإحساس الاختناق يتعاظم بداخله، وعدم الثبات وتحجيم قراره بأن يتبعهم إلى النهاية أم يتدخل ويمنحها بنفسه شيئًا واقعيًّا ينقذها...

تعالت نبضاته ونفرت عروق نحره، غرست خناجر المعرفة في قلبه حين رأى شعاعًا أزرق غريبًا يلف بهية يخرج من قلبها مباشرة، ثم انتشر يحيطها بسلام بينما فمها أخذ يردد وراء آسينيت وإيزيس تلك التعاويذ.

كأنها ضلع ثالث من السحر الممتد بعمق رابط الدم، سحر قد اختفى من الأرض ولكنه ظل مختبئًا هناك بسيدات بلاده يتربص بمن يهددهن، أولَم تملك ملايين المصريات على مر العصور دائمًا سحرهن الذي يهبُّ في الأزمات لينقذ ممالك ويرسي العمار؟!

صوت بهية وآسينيت اختلط وتردد في الأجواء بانسجام ككيان ودقة قلب واحدة، تراجعت إيزيس تمامًا وظلت تراقب حفيدتيها بفخر.

أخيرًا تجمع نور وخرج من مكان أنياب الحية بسلاسة رهيبة، وخرج السم بالفعل من جسدها قبل أن ينغلق الجرح وكأنه لم يكن، وارتفعت كف آسينيت مع كف بهية الأخرى وأخذتا في الضغط على قلبها، فتحت عينيها تحدق بذهول ولم تتوقف تعاويذها بعد.

اهتزت عضلة بجانب فم محب موليًا وجهه نحو إيزيس ونظراتها الغامضة لم تنمحِ بعد، ولكنه فهم ما تفكر فيه: (فُتحت البوابة ولبيتِ النداء عندما اجتمعت حفيدتاكِ).

أسبلت أهدابها تلتفت إليه بهدوء وتقول: «قلت إن الفتيات ما زلن يذكرنني ويتفاخرن بانتمائهن إليَّ. أظنك فهمت الآن لماذا».

ابتلع ريق المعرفة الجاف وقال: «أجل، فُتحت البوابة لبهية حفيدتك وليس لي».

رفعت جفنيها تبتسم بريبة وغمزت بسلاسة قبل أن تلتف بعباءتها في عدة دورات لتختفي تمامًا من محيطهم مؤكِّدة: «ليست النسخة الأفضل من بناتي، ولكنها مِني، حفيدة أمِّ الملوك، سيدة النساء و... سيدتك أنت».

اهتزت ضحكته بطريقته الساخرة يقول: «هل يُفترض بي الخوف؟!».

تردد صوتها مختلطًا مع الريح: «الحمقى فقط من لا يخافون يا فتى، فاحذر مما هو قادم».

***

«جنبًا إلى جنب سنحمي الكنانة والنهر، سندافع عن أرض الشمس».

وصل موكب أوسركان إلى أرض الجنوب بعرض عسكري جبار، وقف في المقدمة على جواده وسلاحه موضوع على صدره والقوس مركَّب على ظهره، فوق رأسه تاج على هيئة عرش يحرسه حورس.

تقدمت آسري-نارتي بهدوء ثم سجدت في حضرته ترفع يديها إلى الأعلى.

وبصوتها الموشوم بالخذلان تعتذر: «لن أطلب العفو فيما أخفقتُ».

انحناءة خفيفة من رأس الملك الذي علم سابقًا باختطاف ابنته من قصر إقامتها الجبرية.

قال: «من ينسَ الماضي يُلعن بتكراره، لم تخذليني يا آسري، بل أنا من خذلت نفسي».

رفعت رأسها بسرعة تحدق إليه بصدمة؛ لقد سمعت هذه الجملة من قبل، هل هذا يعني أن ملكها يلوم نفسه؟

لم يمهلها الوقت للاستفسار حين برد الهواء وسخن في آنٍ واحد، وتجلى فجأة ظل عظيم غيَّم عليهم جميعًا، فتراجعت آسري-نارتي من موقعها دون أن تحاول الوقوف، وبقي بصرها معلَّقًا على وجه الملك الذي اشتعلت عيناه بانتصار وزهو.

حدق إلى الكيان المهيب الطافي بجناحيه قبل أن تلتف حول نفسها وتقف بهيمنتها في وجه الملك دون أن تلمس قدماها الأرض.

ترجَّل أوسركان عن جواده وخرَّ ساجدًا بين يدَي إيزيس يهتف بوجل: «المهابة لسيدة الأقطار».

ظلت إيزيس تطفو للحظات والصمت أصاب الجميع، ما بين المفاجأة والصدمة، دون استعجاب لظهورها في أي زمن حتى توحِّدهم، وإن لم يحدث بينهم فرقة فلحماية كيميت من الأخطار.

تبع الجيشُ الملكَ من فورهم ساجدين لسيدة السحر العظيمة التي حطَّت على الأرض واقتربت بخطوات هادئة ولمست كتف الملك.

قالت: «مكانك ليس السجود، بل الوقوف بجانبي، بر-حابي-رب-حعب-محيت. يا ملك كيميت، وساكن أون «مدينة الشمس»، وحامي الكهف المقدس».

ارتفع إلى وضع الركوع ممسكًا كفها يقبِّلها باحترام ويقول: «الإجلال والمهابة لكِ لن يقلِّلا مِني، بل يزيدا مكانتي».

أحنت رأسها قليلًا بمهابة وملكية مع ابتسامة بسيطة شقت ثغرها قبل أن ترتفع من جديد، تربت على رأس طائر أبو منجل الذي يحلق بجانبها.

وخاطبته: «لقد قمت بدورك كما أوكِل إليك، تستطيع الآن الانضمام إلى جيش المدافعين عند ضفتَي بر-حامي».

أومأ الطائر برأسه ثم حلَّق عائدًا إلى صفوف المحاربين، لقد كان عونًا ينقل أخبار العدو، وأيضًا وصول الملك إلى المعبد، فانتقلت من فورها إليه وتركت الباقين هناك.

وضع أوسركان سلاحه فوق حجرِه مطرقًا برأسه قبل أن يسأل مباشرة بنبرة أب قلِق لا ملك.

قال: «أين هي؟ هل أصبحت في أمان؟».

ردت: «في أمان كما لم تكن منذ لعنتك غير العادلة».

رفع رأسه يتعاقب على وجهه ألم القرار وطول الليالي المظلمة التي لم ترحمه من سياط الندم.

قال: «تعرفين أن قرارات الملوك لا تخضع للنزوات وهوى النفس».

لم يستطع أوسركان قراءة تعابير وجهها الغامض حين قالت: «أحيانًا علينا أن نتسم بالأنانية، فالظلم لا يبني الممالك القوية».

ابتلع أحجارًا مسننة محاربًا نفسه كي لا يظهر ضعفه، يجب أن يظل جنوده يرونه كملك قوي جبار رغم الخطر المحدق بطفلته.

قال: «أين هما؟».

ردت بصوت شق سكون الصمت وزلزله تأمره: «ستتعهد أولًا بالعفو عنه، عنهما».

وقف أوسركان بمهابة ثم التفت نحو النهر الذي قبع سوبيك على طرفه وتبادلا الحديث بالنظرات فقط.

أعلنت إيزيس بهدوء: «لقد منحه عفوه».

وأضافت: «عفوك أنت ما يهمني».

التفت إليها والاحترام الذي يكنه لها لم يمنعه من التحدي بأنفة.

قال: «هذا أمر لا اختيار لي فيه بعد أن أصبح في حمايتك».

تسللت ابتسامة شرسة إلى جانب فمها وقالت: «منحتُهما حمايتي، لكني أمنحكَ الآن الاختيار، لن أغتصب شيئًا منك بر-حابي».

طال صمت يتنازع داخله حتى قال أخيرًا بصوت أجش: «إنها جوهرتي».

ردت بهدوء العارف: «ولكن عشقها لأوناس حاجز غير قابل للتجاوز بين الماضي والحاضر».

حربه جلية بفرسان تصيح بالخراب والعمار داخل قلبه، ولكنه لم يطِل في الحديث والتوضيح.

قال: «حسنًا، له عفوي حتى انتهاء الحرب».

نظرت إليه بعينيها اللتين ازداد البريق الأزرق فيهما معلنة حمايتها الدائمة.

وألقت بنصيحتها المتزنة: «أصلح بناء بيتك دون أن تهد جدرانه، المعابد الشامخة تحتاج إلى أكثر من عمود حتى تستقيم».

همس بشراسة: «لقد خان».

ارتسمت على ملامحها الهادئة ابتسامة امرأة تتألم موضِّحة: «لقد عشق».

قال بسخرية قاسية: «لقد اختار أن يعشقها، تمسَّك حتى اللحظة بعدم النسيان، وعدم قتل حبهما بمهده».

- وهل كان لديهما اختيار؟!

زادت قسوة ملامحه وقال: «كل شيء يموت، حتى الذكريات، يُفترَض أنكِ الأعلم بهذا».

هزت رأسها بالرفض المتألم وقالت: «ولكن الحب تبقى ذكرياته عالقة في قلبك كالمرة الأولى، وكأنك غرقت في جمال نبضة القلب لتوِّك».

لم يرُد أو يعلِّق وصرَّح: «أحتاج إلى أن أرى الأميرة أولًا».

أومأت من جديد ولكن هذه المرة لم تحاول أن تضيف المزيد.

الحب فطرة تولَد معنا، والكره والحقد طبع مكتسَب من أفعال أخطر كائن مؤذٍ وجِدَ على وجه الأرض: الإنسان، لذا عرفت إيزيس أنه لا قول أو أمر من سيدة السحر سيغيِّر ما في قلب أوسركان إن لم يقرر بنفسه منح معجزة الحب فرصة لتهزم عواصف التغيير.

***

سقطت بهية في غفوة وجلس محب جانبها يراقبها، ممددة فوق فراش من الكتان متصل بغطاء للتدفئة أشبه بأكياس النوم الحديثة، لم يتعجب للحظة واحدة من أدوات الحياة اليومية المتطورة، فهو بنفسه نقَّب قبلًا عن الأدوات التي استخدمها قدماء المصريين، حافظة ماء من الطمي المزخرف محمية بالعاج لكل واحد فيهم.

أمسك بين يديه حافظة طعام نُحتت على شكل بطة وتمتم ضاحكًا: «لانش بوكس (حافظة الغداء)! حتى هذه كان لهم الأسبقية في ابتكارها».

– أريد أمي.

عندما تشتد الظلمة من حولنا تصرخ القلوب تطالب بأمان أمهاتنا.

اعتدل سريعًا باهتمام وقال: «أخيرًا أفقتِ، الحمد لله على سلامتكِ».

رمشت بعينيها طويلًا بمحاولة لاستيعاب محيطها قبل أن يعود كل شيء إلى التدفق، حاولت الاعتدال بجهد فقدَّم يده بتردد لمساندتها وبتردد ماثله وضعت كفها بحياء داخل كفه، وساعدها على النهوض قبل أن تفلت يدها بسرعة وكأن نارًا أحرقتها، أعادت ترتيب حجابها فوق شعرها الذي تمرد للخروج.

ازداد تنفسها المؤلم صعوبة وتشنجًا مما دفعه إلى قول: «لا بأس، لم يكشفكِ أحد، لقد ظللتُ حارسًا زِنهارًا بجانبك».

ارتفع طرف شفتها العليا باستنكار وقالت: «بحق الرحمن ماذا تظن صفتك في حياتي؟».

رفع كتفه بلا مبالاة وقال: «الرجل الذي سيتزوجكِ».

– سيد محب، أرى أن الرحلة أعطبت عقلك، أو أن عشق أوناس وآسينيت الماسخ أصابك بالغيرة لتوجه مشاعرك إلى أول أنثى متاحة حاليًّا.

مط شفتيه بامتعاض شديد وقال: «هل وُلدتِ بهذه السماجة يا بهية أم هو طبع اكتسبتِه؟».

أوشكت نظراتها المشتعلة على حرقه حيًّا، قصفته: «اكتسبتُها يوم معرفتي بك».

انتصار غبي كلَّل ملامحه فهتف: «جيد، هذه شعلة الحب التي أبحث عنها، وقد أصابتكِ بدورها».

تلبَّسها الغيظ والحيرة وتمتمت بذهول: «شعلة ماذا يا رجل؟! أخبرتك سابقًا عندما أراك كل ما أفكر فيه هو طُرق لقتلك».

دب على صدره وهتف بمرح: «الشعور متبادل، صدقيني هذه شعلة الحب القصوى».

ظللت وجهها بكفها مشيحة بعيدًا عنه وقالت: «كان يومًا أسود لم تظهر له شمس يوم أن رأيتك».

كزَّ على أسنانه وعَنَّفها: «هاااي، سمعتك».

تنهدت وسألته مغيِّرة مجرى الحوار: «ماذا عرفتَ من إيزيس؟».

ضاقت عينا محب ولم يحاول رفعهما، وقال: «عرفتُ أنكِ تجيدين السحر مثلهم، وأن البوابة فُتحت بسببك».

ارتبكت وهزت رأسها بالرفض الشديد غير مستوعبة ما حدث تقول: «مؤكد هناك تفسير منطقي، هذا مستحيل».

ضحك وقال: «منطق وتفسير ونحن عالقان بصفحات الماضي؟ هل تمزحين يا با-هية؟».

- بهية.

صدمتها نبرة الهدوء التي تلبَّسته فجأة وهو يقول: «لماذا ترفضين الاسم ولا تقبلين بالحرية التي مُنِحت لكِ؟ بل لماذا لم تحاربي يومًا لكسر أغلالكِ؟».

- ومن أخبرك أني لم أحاول؟!

- كاذبة، سلبية وضعيفة، تفضِّلين الاختباء وراء حجج قيودكِ الوهمية.

انتفضت تلهث بصعوبة وصرخت: «لا أسمح لك».

لم تهزه ملامحها قيد أنمُلة، بل قال: «أعتقد أن زمن السماح قد فات منذ أن تبعتِني في جوف الليل يا با-هية».

تنفسها ازداد ألمًا وهي تقول: «لكل إنسان هفواته».

ضحك وأجاب: «اتِّباعي ليس هفوة يا بهية، بل إثبات لنفسكِ أنكِ قادرة على التملص من قوانين عائلتكِ دون أن تمسي قوانينكِ الخاصة، دون أن تقعي في الخطيئة».

رفعت يدها تتلمس صدرها المرتعش ذُعرًا وقالت: «ألا تجد أن كلامك قاسٍ يا سيد محب؟».

أخيرًا أعاد النظر إلى عينيها الدامعتين وقال: «أنا صريح ومباشر، أسرد الحقائق أمامك ربما لحاجة في نفسي تجاهك، وربما لأني أبغض الاستسلام والضعف، ولكني مؤكد لا أحاول إغراءك لكسر التزامك أو للنيل من حسن أخلاقك، فهذا ما جذبني إليك في المقام الأول».

أفضل سلاح للهرب من فوضى مشاعرها تجاهه الهجوم المستهتر.

قالت: «انجذبت إليَّ؟! هكذا فجأة بين ليلة وضحاها؟ فقط لأننا علِقنا في حكاية لا نعرف لها آخر؟! هل أنتَ مراهق؟».

قلب شفته ينظر إليها ببرود لم يخلُ من الغيظ وقال: «أنتِ مؤكد ذنب ارتكبتُه والله أرسلك ليعاقبني».

للغرابة ضحكت برد فعل غير متوقع وقالت: «لم يجبرك أحد على اقتراف الذنب يا سيد محب».

ابتسامتها تسللت إلى قلبه فرد بسرعة: «بل أنا مجبَر».

نهرته مستاءة: «وما الذي يُجبرك إن كانت صاحبة الشأن بنفسها غير مهتمة؟».

رد بنبرة هادئة باردة للغاية وكأن ما يقوله المنطق الوحيد بين كل الهراء الذي تنطقه: «الرجال دائمًا يبحثون عمن تشبه أمهاتهم، وأنتِ تذكِّرينني بأمي».

شهقت بهية طويلًا وتحضَّرت في استعداد للهجوم هذه المرة ونبش حنجرته بأظافرها.

وقالت: «أمك؟! مَو أما يلهفك يا محب».

ادَّعى الضيق والغضب قائلًا: «تحشَّمي مع زوجكِ يا با-هية».

زمجرت كالوحوش تردد بكبت: «كان يومًا أسود يوم معرفتك، والدتي لديها كل الحق، هذا الاستدعاء ما هو إلا محنة سوداء سقطت فوق رأسي وألقتك في طريقي».

هز كتفيه بلا اهتمام وقال بكل هدوء أصابها بالتخلف اللحظي: «البكاء على الأطلال والتحسر على أحلامك المبتورة لن يوصلك إلى شيء، لتنالي حقكِ عليكِ أن تمتلكي القوة أولًا، يجب أن يعلو صوتكِ ويُخرِس صوت الانهزام الذي يقيدك».

اضطربت مبتلعة ريقًا جافًّا وتساءلت: «وكأنك تتعمد أن تدعوني للتمرد؟!».

- أنا أفعل، ما دام تمردكِ لن يكسر أهلكِ ولن يمسَّ دينكِ ومعتقدكِ فأنا أشجعكِ يا بهية.

ساد صمت طال وندَّت عنها تنهيدة بدت كمرجل يغلي وقالت: «لماذا الآن يا محب؟! ما دافعك الحقيقي وراء ما تقوله؟».

انتظرت الإجابة وقتًا آخر، دقائق، ثم أجاب بنبرة قاطعة: «رأيتُها، رأيتُ نظرة الحسرة والتمني في عينيكِ وأنتِ تنظرين إلى آسينيت وكأنكِ تحسدين قوتها، كبرياءها وإصرارها في طلب ما تريده وما تستحقه، حتى وإن عنى هذا حرمانها من عرش مملكة عظيمة، حتى وإن عنى هذا نظرات الاتهام التي تحاصرها والحكم عليها بالخيانة والاستهتار، ولكنها مكتفية بمبادئها وثقتها في نفسها مع رفع راية كبريائها وطُهرها، وإن اختلفت أسبابكما تمامًا».

***

هبَّ جان من مقعده المزين بخوص النخيل وقد اتخذه عرشه الملكي، وبخطوة واحدة من قدميه الواسعتين قبض على حلق سينغو المتقيِّح وفاحت منه رائحة كريهة.

وقال: «ماذا تعني بأنك فشلت؟».

التهب وجه سينغو بالنار رافضًا هذه النبرة المتعالية وكأنه خادمه، كان جان المغرور الأهوج مجرد زعيم إحدى القبائل خدمَه الحظ بالسطو على قبيلته وسلبَهم أشد رجالهم وهو أحدهم.

بحلمه الكبير ووعده لهم بالأرض السوداء أجبره على اتِّباعه، لكن عقله يرفض الخضوع له أو الإخلاص أو رؤيته مَلِكًا حقيقيًّا قبل أن يحقِّق لهم وعده بامتلاك القصور والجواري الخمريات المليحات.

رد: «خُدِعنا...».

وكرر ما قاله وقصَّه في السابق بتغيير بعض التفاصيل.

نفضه جان بغضب أهوج وصرخ يزمجر كحيوان ضارٍ حبيس: «استعادوها بعد أن كانت بين أيدينا يا غبي».

التمعت عينا سينغو بالغضب وانحنى إلى الأمام بجذعه، كفاه مستندتان على الأرض يشعر بالذل الشنيع الذي تعرَّض له، ويتعرَّض له الآن بين الجموع، ولكنه فهم أخيرًا واستوعب بعد تفكير في أثناء رحلة عودته المعذِّبة.

عيناه بحثتا عن هدف واحد لا غيره، الحكيم المحجوز داخل سجن بُني من عظام الحيوانات، حدق إليه وبادله الحيكم التحديق بحسرة وقد فهم بدوره (الأميرة تعمدت أن تؤسَر لبعض الوقت، وهدفها أصبح واضحًا ومعروفًا، لقد أرادت كشفهم ومعرفة نوع الرجال الذين سيحارب جان بهم، سلاحهم وعتادهم وطرق تدريبهم وحتى خططهم في الهجوم، وهو بغباء وكبرياء لعينة منحها كل ما أرادت خلال رحلتهما القصيرة، والأحاديث التي جرت بينهما، استنتجت بما لا يقبل الشك أن ما يقودهم مطامع السلب والنهب وليست عقيدة جيش نظامي يحمي ويدافع أو يهدف إلى توسيع مملكته، إنهم لن يكونوا يومًا شعبًا واحدًا كشعبها، بل تجمع زعماء القبائل تحت رايات جان، وأسرُّوا في أنفسهم أنه فور استيلائهم على البلاد سينفرد كل واحد منهم بجزء لنفسه معلنًا مملكته، وسينغو لم تكن نيته مختلفة عنهم، وقد تبجَّح بهذا لآسينيت حين وعدها بجعلها جاريته المميزة وملكته).

أراد الضحك بقوة ساخرًا من نفسه، ولكن غلَّه المتعاظم لم يمنحه الفرصة.

ثم قال: «سآتي إليك بها، سأقتل محبوبها بيديَّ العاريتين، فالأمر أصبح مسألة شخصية».

التفت إليه بحقد وقال: «من الأفضل لك أن تفعل وإلا سيكون رأسك أول ما يُعلَّق فوق عرشي داخل الأرض السوداء».

كرر الحكيم بتوالٍ ينعق كغراب شؤم: «الخديعة، الخديعة إن سيطرتْ على الإنسان أهلكته، وأسوأ أنواع الخداع هو خداع النفس».

***

«لولا الألم والحزن ما كانت المعجزات».

لم يكن ظهورهم تحت جناحَي إيزيس صدفة!

وقف أوسركان شامخًا برأسه دون تنازل أو تفاوض رغم ضجيج قلبه المبتهِل لرؤيتها سالمة أمامه، ثم انحدرت عيناه بنظرات لم تخفِ العتاب نحو أوناس بكبريائه وقوته الثابتة!

عتاب ملك لقائده ومحارِبه الأقرب، عتاب ملك يبني ولا يهدم، يلملم ولا يفرِّق في أوقات السلم قبل الحرب.

تحرك أوناس خطوتين نحوه بشجاعة فعرقلتْه آسينيت، التفت إليها ليرى صدرها يعلو ويهبط بدافع القلق والخوف، عيناها تمتلئان بدموع الألم، فإن سحب والدها سيفه وطيَّر عنقه لن يوقفه أحد.

هزت رأسها بتحذير رافض، فتهلَّلت ملامحه القاسية كالصخر وعزف الناي الواعد في عينيه.

طمأنها: «سأكون بخير من أجلكِ دائمًا».

همست ترجوه: «عِدني، أنا أثق بوعودك يا أوناس».

كيف يعدها بما لا يملكه في الأصل؟! إن قرر الملك قتله لن يحاول الدفاع عن نفسه حتى، في داخل نفسه يعلم أنه يستحق، فقد خذله في أمانة لم يسمح لأحد غيره بالاقتراب منها، (لقد أراد حماية قلب جوهرته المكنونة من الإغراءات فأغواها بعشقه وسلبه جوهرته)!

- أعدُكِ.

لم ينطق بغيرها، واستدار ليقترب من مَلِكِه الجالس فوق عرش من الذهب الخالص المُطعَّم بجعران بديع الألوان خارج جدران المعبد على ضفاف النيل، ركع أوناس على ركبة واحدة يحني رأسه احترامًا، ووضع أسلحته أرضًا أمام الملك.

قال الملك: «عدتَ إلى هنا رغم لعنتك ورغم معرفتك بموتك المحتوم».

لم يرفع أوناس رأسه، وأجابه بصوت قوي ثابت وخشن: «كيميت نادت وعليَّ تلبية النداء، أنا جندي رغم كل شيء وعليَّ أن أحمل سلاحي وأدحر أعدائي».

طال سكون الملك في جلسته المهيبة دون رد، وقف أخيرًا بدرعه الذهبي وأمسك قبضة سلاحه بقوة، تعالى لهاث آسينيت فوق صخب أي شيء آخر، لكنها لم تتهور وتفعل أي شيء قد يهدِّد مكانة أبيها أو أوناس، فمهما تطرفت تبقى أفعالها مقيَّدة بحدٍّ لن تتخطاه.

أمسك أبوها بكتفه قائلًا بصوت جهوري: «وأنا ما كنت لأحرم جنديًّا من شرف الموت في سبيل بلاده».

انتفض جسدها برعشة إفاقة وأغلقت عينيها على دمعة أبت الهبوط وابتلعتها بصمت، ظلت شامخة الهامة مرفوعة الرأس، تتقلب مشاعرها ما بين الألم والأمل.

شعرت بيد بهية تنغرز عنوة في كفها المضمومة تبتسم لها مؤازرة وتقول: «مشاعر الإنسان هشة للغاية، لن يلومكِ أحد إن بكيتِ».

قال الملك: «عبثتَ كفاية، يحتاج الجنود إلى رؤيتنا أقوياء، فنحن من سنقودهم إلى النصر، إن أبديتَ أي لمحة ضعف ستخفت همتهم».

وقف أوناس أخيرًا مؤديًا تحيته العسكرية، ثم التفت يواجه الجيوش النظامية الجرَّارة.

تقدم إيزي القائد البديل ونظر إلى قائده الأعلى وملكه احترامًا واستأذن قبل أن ينحني على ركبته أمام أوناس مقدِّمًا الراية وسلاحه، ودب بقبضة يده المتكوِّرة على صدره بتحية معلنًا أنه سيحارب تحت قيادة

أوناس كما كان دائمًا، وبالتوالي تبعه صف القادة والسياسيين، ثم صف آخر وسريَّة أخرى ثم جميع الجنود حتى ركع كل الجيش يدبون على قلوبهم بقبضاتهم لقائدهم المحارب شجيع الشجعان.

وقف أوناس ثم انضمت إليه آسينيت تمسك كفه، فأحاطها بحماية وحنان، بهدف واضح متضامن غلب قصة عشقهما، وجاور آسينيت بهية ثم محب، وخلفهم وقف الملك يدعمهم.

ومن البعيد راقبتهم آسري-نارتي، وعلى جانب آخر بحدث جديد من نوعه تدفق كهنة المعابد فخلعوا عباءاتهم المترفة، وتمسكوا بأسلحتهم للانضمام إلى الجيش ومن خلفهم تجمعت طوائف الشعب وأبناؤه الأشداء للدفاع، ومن ناحية الشمال تجمعت الوحوش والحيوانات راكعة على أربع لتعلن انضمامها أيضًا تحت راية أوناس، وفي الأعلى رفرفت الطيور في السماء بمختلف أنواعها فوق الجميع، وخلف المشهد المهيب كانت إيزيس تطفو بجناحيها موحِّدة الجميع.

اختلطت أصوات الجنود والشعب والكهنة وحتى التماسيح والطيور والوحوش: (نحن حماة الأرض، حراس أرض الشمس، سنبذل الدماء لندافع عن شريانها، عقيدتنا الدفاع، مذهبنا الكل للواحد والواحد للكل).

توحدوا تحت راية واحدة وهدف أسمى، ردع المعتدين وحماية مياه النيل من يد الدخيل الطامع، فانصهرت كل خلافاتهم وتناسوا كل الضغائن.

***

الوهج السادس

لم يكن وجود مصر ضربة حظ، أن تكون مصر أول دولة على كوكب الأرض منذ آلاف السنين، ليست صدفة أنها موطئ أمان للأنبياء وأن فيها مخزون خيرات الأرض، ليست صدفة أن يذكر الله اسمها من فوق سبع سماوات في آيات كتابه العزيز، ولم تكن صدفة أن تكون أرضها التي تجلَّى فيها صوت الله لأول وآخر مرة فوق جبل الطور في سيناء.

مصر دولة لم توجد عبثًا، وإن تكالب عليها كل العابثين الطامعين والطامحين أن تنتمي إليها أعراق أبناء بلادهم التي نشأت بعد أن سطَّر التاريخ حكاياته بالبرديات المصرية وبيد أبنائها.

***

طوى الملك أوسركان البرديات الخاصة بأخبار تقدُّم العدو وعتاده، وأنصت باهتمام لآسينيت وهي تقص عليه ما رأته بعين المحارِبة.

قالت: «كما أخبرت عظمتك، لا أظنهم تعلموا من دروسهم السابقة، تعمهم الفرقة وإن جمعهم الطمع لاحتلال بلادنا».

أنهت حديثها بابتسامة واثقة تنظر إلى عينيه الصارمتين وقد ضيقهما بتفكير محذرًا: «لا تثقي بقوتك حتى لا تخونك، حذارِ، حذارِ أن يأخذكِ الغرور فتخسري كل شيء قبل أن تتداركي الأمر».

قالت بثقة محارِبة ودون تردد: «دائمًا أضع احتمال الهزيمة قبل النصر حتى لا أسقط من برج الأمنيات، لكني رأيت الحقد بينهم جليًّا ولا يوجد احترام لمكانة أحد بينهم، التمرد القاتل يفوح من جلودهم، وقائد جيش الملك ذاك المدعو سينغو مثال جيد لمن سنواجه».

دقق أوسركان في مجسم للحدود وُضع على المائدة الحربية أمامه وبعض المجسمات للعتاد الحربي وفرق الجنود.

وأخيرًا أشار برأسه نحو أوناس ليتخذ مكانه بجانبه وقال: «بُح بما يتزاحم في قلبك وأراه يتجلى في عينيك».

كان أوسركان ملكًا وقائدًا كمن سبقوه، لا ينفرد برأيه عند وضع الخطط الحربية، بل يسمح لقادته وأحيانًا بعض الجنود ممن لديهم رأي صائب ويتوسم فيهم الحكمة أن يشاركوا في خططه العسكرية.

هز أوناس رأسه بإشارة خفيفة احترامًا وتقديرًا وقال: «هذه المرة لديَّ رأي مغاير لعقيدتنا الحربية».

بهدوء فخيم أومأ الملك برأسه يسمح له بالتوضيح.

لم يتردد أوناس قائلًا بصوت محارب قوي لا يتنازل حتى وإن علم بما قد يحدِثه رأيه من نزاع: «عقيدتنا الدفاع، ألَّا نأخذ المعتدي على حين غرة، ننتظره إن لم يكن مستعدًّا، نتفق مُقدَّمًا على يوم محدد للمعركة، ولكن هذه المرة لن تصلح قوانيننا الأخلاقية معهم، وبخاصة أنهم لم يتعظوا من المرات السابقة ولن تتوقف مطامعهم بعد هذه المرة».

بدأت ترتفع همهمات بعض السياسيين المحيطين بالملك.

لكنه لم يهتم وأكمل بقوة: «سنحوِّل عقيدتنا من الدفاع إلى الهجوم، سنذهب إليهم ونطاردهم حتى معقلهم ونسيطر على منبع مجرى الحياة، حتى نأمن شرهم لزمنٍ طويل».

تعالت همهمات الرفض واحتد الجدال من بعض الوزراء والساسة. لطالما آمن أوناس بأن ضياع أمجاد البلد سيكون على يد هؤلاء الساسة، فهم يتخذون عقيدة نفِّذ ولا تجادِل، اتبع الأوامر ولا تفكر، السياسة بلا مبادئ، متعة لسلطة بلا ضمير، عقيدتهم البطش بالقوة ويرهبون التغيير خوفًا على أنفسهم ومناصبهم قبل مصالح بلادهم!

هدر أحدهم: «مجازفة لا تستحق، أرى أن الغرور أصابك بركوع الجنود حولك حدَّ أن تقودهم إلى الموت والهزيمة بدلًا من بقائهم في بلادهم آمنين منتصرين».

خبط أوناس بقبضة يده على الطاولة مصرِّحًا من بين أسنانه: «لن يكون أحدنا آمنًا بعد أن يجتاح الرعاع الأراضي فيحرثوا اليابس قبل الأخضر، ويقتلوا الأطفال والشيوخ، ويستبيحوا النساء، بحجة أنهم مفوَّضون من أرض الإله وأصحاب المياه المستمَدة منها حياة هذا البلد».

سخر سياسي آخر: «وما فائدة الركوع لك إن كنت ستسمح بهذا؟».

رد بشراسة: «من يجلبون النصر هم الجنود لا القادة، ومؤكد ليس الساسة الذين يجلسون آمنين في قصورهم».

بحزم أشار أوسركان للجميع وقال: «سك-هوس، أوقفوا الجدال».

عمَّ الصمت وإن اشتعل الغضب في القلوب ولم يهدأ، أحيانًا يكون الصمت أبلغ تعبير عما يشعر به الإنسان من غضب وإحباط وحزن، رسالة صامتة للوجود وتعبير عن كل الجوارح، شعور فريد لا يتقنه المهلِّلون!

حدق أوسركان إلى كل وجه موجود حتى علقت عيناه على وجه ابنته ومن خلفها الغريبان الصامتان تمامًا، وبنظرة واحدة علم بدعمهما لخطة أوناس.

قال بحكمة وعمق: «رياح التغيير دائمًا تأتي محمَّلة بالعبث».

اقترب أوناس مؤكِّدًا بقوة: «العبث ربما، لكنها لن تأتي بالفساد، نحن نحتاج إلى تجديد إيماننا بالتغيير وتجديد مبادئنا ومنح العِبرة لمن بعدنا، الحق يؤخَذ بالقوة والتهاون يُطَمِّع كل جبان حاقد».

دخلت إيزيس أخيرًا تتهادى بجمال وسلطة بثوب بلون العسل الصافي يعكس عينيها الخاليتين من زعابيب أمشير الزرقاء.

قالت: «عقيدة بلا تجديد انعكاس لمرآة يعجبنا حُسن طالعها، ونغتر بجمالها فتغفل الأعين عن البثور المشوَّهة».

صمتت لبرهة تقلِّب عينيها غير الراضيتين في وجوه الساسة المنبطحين تحت قدميها.

وجَّهت حديثها إلى الملك: «التغيير المكروه أفضل من الثبات الأحمق الذي سيهدم كل ما بنيته. استمع لمحاربك وتجاهل مهاجيس الزفة».

ندت ضحكة خافتة عن محب هددت جدية الموقف، فنظروا إليه بشرر واضح.

همست بهية من تحت ضروسها: «مفضوح، ذهب عقلك، أجاد أنت؟! تضحك في حضرة الملوك وفي خضم حدث تاريخي؟!».

همس محب: «رغمًا عني، تخيلت وجود إيزيس في عصرنا وسط مهاجيس القنوات وبرامج التوك شو والحمقى الحقيقيين، برأيك ماذا كانت ستفعل بهم؟».

غطت بهية ضحكتها بيدها مجيبة بطريقته نفسها: «لن تكتفي بإرسالهم بعيدًا كما فعلت بك، بل ستصلبهم على سفح الهرم ليكونوا عبرة لمن سبقوهم ومن سيأتي بعدهم».

هدرت إيزيس بشرر: «سك...».

فصمت كلاهما على مضض، على الأقل لم يقصوهما بعيدًا عن الحدث وهذا وحده كافٍ.

فكر الملك بصمت وقلَّب الفكرة المطروحة في رأسه، وعيناه تراقبان كالصقر.

سارت إيزيس بعظمة تبعِد الجاثمين بقدمها دون أن تأمرهم بالاعتدال، بينما ملابسها تتغير إلى لون أسود براق يتقلب فيأسر الأعين بسحرها، وتاجها الملكي تغير إلى آخر على هيئة العرش المزيَّن بصورة حورس كتاج أوسركان، وإن امتاز عرشها بالطول والعظمة والحُلي التي تلألأت على الجبين الخمري.

قالت: «استمع له واكسر شوكة أعدائك، امنحهم درسًا لن يُنسى وأدِّبهم، لقد استفحلوا واغتروا بقوتهم الوليدة فأصبحوا إزعاجًا كبيرًا لكيميت، بل وتطاولوا على الجوهرة المصونة».

سأل أوسركان بثبات وإن أوضح انفعاله أن الفكرة ليست بعيدة عن رأسه: «وبعد؟ ماذا بعد أن أرسل جنودي المخلصين بجيش من الأشداء إلى تلك البلاد؟».

ابتسمت بغموض تنظر إلى أوناس وأجابت بمكر: «إن كانت فكرته وإيمانه شديد بقلب الثوابت لغرض التعمير والازدهار فالإجابة لديه».

قلب أوناس مجسمًا لجان ملك الرعاع موضوعًا كتكتيك حربي أمام سريات الجيش المصري.

ثم رفع رأسه وشرح: «الهجوم سيمنح صورة واضحة أننا على استعداد كامل لردع أي طامع يأتينا من حدود أخرى، سيكون درسًا قاسيًا ليفكر أحدهم ألف مرة قبل أن ينساقوا خلف أطماعهم، سيعلمون أننا سنغزو بلادهم من كل حدب وصوب ونهدِّد ممالكهم».

كرر الملك بإصرار: «وماذا بعد؟! ستعود برايات النصر مكتفيًا بما حققته؟! كيف ستضمن أنهم لن يلملموا شتاتهم ويأتونا متسللين من كل شق ليعيثوا فسادًا في أرضنا؟».

ابتسم أوناس بهدوء محطِّمًا مجسم جان بيد ثابتة، وجال بنظره في المحيطين.

وأعلن بخبث يشير إليهم: «سيأتي دور السياسيين لعقد صفقات رابحة معهم، وتحت مشورتك وإذنك مولاي يمكننا إرسال بعض من المعماريين والمهندسين وإقامة مشاريع قومية تسد رمق مطامعهم تحت إشرافنا».

تدخلت آسينيت بحماس: «وبعد انتهاء الحرب يمكننا تأمين حدود الجنوب بجدار يمنع شر المتسللين».

واتسعت ابتسامة متوحشة على فمها وهي تتابع: «والأهم محاسبة كل من يسرِّب الأخبار الداخلية لمملكتنا، ليكون عبرة لمن تُسوِّل له نفسه بالتواطؤ مع العدو ليحقق أطماعه، بالطبع أعلم أن الأمر سابق لأوانه، ولكن على الحاكم أن يكون بعقل يقظ لا يتسامح مع الخيانة وبقلب لا يغفر الخطأ، ولا يبني مُلكه فوق نقاط الضعف».

لن تنكر رؤيتها اهتزاز البعض وثبات الأكثرية.

في حين مال فم الملك بابتسامة تألقت بين الفخر والجمود وقال: «عقل قائدة».

ردت: «بل ابنة ملك وقائد أعلى».

سحب الملك نفَسًا خشنًا وعيناه لم تحيدا عن ابنته، وفكر بأسى: (ذكاء وفطنة وجمال ملكة بقلب خائب هزمه العشق!).

قال بهدوء تخللته الإشارات التحذيرية دون أن ينظر إلى أوناس بل ظلت عيناه على ابنته: «الحاكم أبٌ للشعب، يضع مصلحتهم فوق عرشه، لا يجازف برأي الساسة أو قائد يبني نجاحه على أوهام».

لم يضطرب أوناس وبقي ثابتًا على موقفه وقال: «سأتحمل كامل المسؤولية ولك محاسبتي إن مُنِّينا بالهزيمة، هل هذا كافٍ لتطبيب جرح الهزيمة؟».

قاطعه أوسركان بشراسة دون أن يبعد بصره عن ابنته: «إذا حدث ذلك لن تعود يا أوناس، بل سيُقطَع عنقك هناك. هذا مبدأ ثابت ولن تطاله أعاصير التغيير».

أراد هز ثبات جميلته واضطرابها، أراد اغتصاب اعتراض منها خوفًا على محبوبها، ولكنها ظلت على موقف واحد وعقيدة ثابتة، حماية بلادها وشعبها من خطر جبار، قبل عشق هزمت في سبيله اللعنات وجلبت المسافرين وأيقظت سحرها الخامل.

أعلن أوناس بثبات: «أهذا إذنٌ للتحرك بالجيش؟».

قال الملك: «سأجازف، وأمنحك الفرصة لتفعل».

قالت إيزيس بهدوء: «ستبقى هنا فرق للحماية يقودها الملك، فلا حاجة إلى أن يخرج من الأقطار».

أسبل أوناس جفنيه وزفر بارتياح وقد انتصر في أول خطوة، ولكن الارتياح تبدد مع عواصف القلق والرفض حين أعلنت آسينيت بنبرة عنيدة يعلم إن بدلت الأرض أقطارها لن تهتز وتتراجع.

قالت: «سيبقى الملك، وستذهب الأميرة على رأس الجيش».

- لا...

الأصوات العاصفة تضامنت من والدها مع الحبيب وأيضًا حكماء المجلس، واتسعت ابتسامتها المشتعلة وحدقت إلى إيزيس، تعلم أنه لا أحد سيناصرها غيرها.

قالت: «هذه حربي، خطئي ولن أتنازل عن تقديم التضحية، سأردع الشر كما جلبتُه».

تدخل أحد الحكماء: «هذا أخطر من خطة القائد أوناس، فهم يريدونكِ أنتِ قبل العرش ونحن لن نُرسل إليهم ملكتنا بأيدينا».

سحبت نفَسًا تنظر إلى أوناس أخيرًا وتقول: «أنقذني العديد من المرات، وسيحميني هذه المرة».

ابتلعت ريقها لبرهة وأكملت بابتسامة ساخرة: «القائد سيحمي ملكته المستقبلية، لن يتغير شيء، سيحميني بحياته محافِظًا على مسافة آمنة، يحفظ فيها مكانة كل منا، أليس كذلك يا شجيع الشجعان؟».

ضم أوناس فكيه بقوة غاضبًا ينفث نفَسًا مشتعلًا كالنار.

قال بنبرة كهدير الشلالات: «وبصفتي القائد وتحت طوع ملكتي والمحافظ على سلامها، سأتجرأ وأرفض بقاءك هنا وأرسلك إلى مدينة «أون»، فهو حل آمن».

أطلت زعابيب التحدي والكبرياء من عينيها وقالت: «أنا وضعت حدودًا لسلطتك فلا تحاول كسرها بإعطاء الأوامر لملكتك يا قائد أوناس».

الجنون، جنون العاشقين طاف بينهما، غضب الحب تحدث بلا صوت، بصرخة مسموعة بين الكر وفزع الخوف من القادم، سؤال اشتعل لمسه الجميع، هل هذا إعلان الفراق؟! أيستمع القائد لصوت القوانين فينحر قلبه على مقصلة التضحية؟!

قطعت الصمت أخيرًا بهية بتردد تصاعد إلى الشجاعة: «هذه حربها، ما دُوِّنَ في كتابي ينفي ما تخططون له ويشير إلى الهزيمة والقهر إن لم تكن آسينيت جالبة النصر».

هدرت إيزيس بصوت زلزل جدران الغرفة: «با-هية، حذرتُكِ، هل تريدين خلط الماضي بالقادم وكسر ثوابت الأقدار؟! تتطاولين على المخفي وتتلاعبين بالمصير المحتوم».

الاهتزاز والسلبية تبدَّلا إلى جرأة وقوة كشرت عنهما بهية.

قالت: «لم آتِ إلى هنا صدفة عبثية، أراد القدر وضعي هنا لتغيير الثوابت وردع الظلم، هذا مستقبلي كما هو مستقبلها، وليس الماضي، ولن أقف مكتوفة الأيدي وأراكم تسلبون إرادة امرأة أخرى بحجة العادات والقوانين».

تظاهرت إيزيس بالصدمة رغم الابتسامة المريبة في عينيها.

رفعت يدها توجِّه سحرها التأديبي وقالت: «تتجرئين وتراجعينني يا با-هية؟!».

شعاع أحمر تمثَّل في وجه ثعبان وانقلب صوتها إلى الحشرجة المرعبة مع دوي فرقعة، وقبل الاستيعاب وضعت بهية إحدى يديها على قلبها والأخرى وجَّهتها نحو إيزيس وانتشر منها شعاع أبيض براق تجسَّم في شكل طائر العقاب ابتلع لعنة إيزيس بسرعة!

صُدِمَ الجميع لثوانٍ وفغر فم محب تعجبًا قبل أن يتحرك بسرعة ويأخذ بهية وراء ظهره، كما حالت آسينيت بينها وبين إيزيس المبتسمة بمكر.

ومالت نحو آسينيت تهمس بضراوة: «أجدتِ إخراجها من قمقمها».

لهثت آسينيت بذهول وتبسمت بزهوٍ وقالت: «حفيداتكِ».

التفتت إيزيس إلى أوسركان وقالت ببرود وكأنها لم تُهزَم لتوها على يد مسافرة ضئيلة: «الفتيات أيضًا يمكنهن تحقيق أحلام آبائهن الموءودة».

غمزت بتآمر ونظرت إلى آسينيت وقالت: «بعض الفتيات يولدن ليَكُنَّ ملكات».

ارتفع حاجبا الملك ثم أخفضهما مُقِرًّا بهدوء: «لن أرسل آسينيت، قدَرها ليس بيدي، فهي حاكمة الشعب المستقبلية وقائدته من بعدي، جدار آمن يكمل مسيرتنا إن لم نردع الرعاع».

– لا يمكنك تجاهل الرسائل، حاملة الكتاب محقة، فلا تعاند سحر الأقدار حتى لا ينقلب عليك ببطشه.

سأل بإصرار لا يهتز: «تأمرين أم أملك حق الاختيار؟».

مال جانب فمها بتسلُّط شرير وقالت: «لا أقدِّم منحتي مرتين يا أوسركان، أنا آمرك، آسينيت ستكون برفقتي».

– معكِ؟!

– وهل ظننت أنني سأظل هنا؟ لقد أتيت تلبيةً لنداء محدد.

لم يوضِّح أوناس شر نفسه، نظر إلى آسينيت وكأنه يريد الانقضاض على عنقها وكسره، الآن فهم رغبة محب في قتل بهية كلما تحدث عنها.

قال بنبرة قاتمة: «أيتها الأم المبجَّلة، لقد أوضحتِ سابقًا أنكِ لن تتدخلي».

التفتت إليه بسرعة وقالت بدهشة ساخرة: «أتقول هذا بعد كل ما فعلتُه من أجلك؟!».

كرر مُتعجبًا: «من أجلي؟!».

أشارت بلهجة أمٍّ غاضبة طفح بها الكيل تعنِّفه: «أنا وهذان المعتوهان الطريفان هنا بسببك، أيقظتَ السحرة والسحر والطير والجان من أجل تطرف عشقك، وبعد أن خربتَها، الآن تذكرتَ المراسم والتقاليد وترغب في التراجع؟».

ابتلع ريقه ولم يرد، وكأنها ضربته على مؤخرة رأسه، والتفت محب نحو بهية التي ما زالت ترتجف داخليًّا دون استيعاب لما حدث منذ دقائق، وانفردا بحديث جانبي بينهما.

قائل بنبرة ممطوطة شامتة: «جبارة هذه الإيزيس (كيَّادة)، غسلت الرجل بماء عكِر ولم تشطفه، لقد عايرته وقصفته بقوة».

بعينين زائغتين حدقت إليه باهتزاز وقالت: «غسل ونشر؟! هل هذا كل ما لفت انتباهك؟».

– وهل هناك حدث أهم؟!

نظرت إليه بحنق وقالت: «هل أنت معتوه فعلًا؟ التنقيب في الآثار لحس عقلك».

نظر إليها بحيرة للحظة ثم قال: «ماذا تقصدين؟».

– السحر الذي خرج من يدي مثلًا، أو ربما مواجهتي لإيزيس.

– آه هذا! لا، لم يعد أي شيء هنا يصيبني بالذهول، فقد تبلد إحساسي.

همست بغيظ: «أنت بليد الإحساس بالفعل، لا أعلم ما الذي بلاني بكَ».

قطع أوسركان حديثهما بنبرة قاطعة حاسمة قبل أن يأمرهما بالاقتراب لخوض نقاش من نوع آخر.

قال: «ستذهب».

اجتمع الكل حول الطاولة الحربية في حين لمح محب وجه آسينيت العبوس، وانزعاجها من أوناس الذي تعكر حماسه وانطفأت نظرات الغزل والحب في عينيه.

التفت محب إلى بهية من جديد يهمس ضاحكًا ساخرًا: «من الواضح أن جدتنا تُنكِّد على جدنا».

ردت بغيظ: «ومن الجليِّ للأبله أن جدنا أعمى لا يفهم بالإشارة، بل يريد سهامًا ضخمة من تلك المضيئة بنور يُزِيغ الأعين ليفهم، ولن يفهم».

هز محب كتفيه ببلادة وقال: «نَكِدات، واضح أن هذا في الجينات منذ فجر التاريخ، فلا لوم عليكن من جديد».

– غباء الحب يجري في عروق الرجل المصري، وإن عُرِف السبب بَطُلَ العجب!

هدر أوناس بكبت: «حاملة الكتاب، أيها الدليل، اقترِبا».

فاقتربا بحذر قبل أن تنظر إيزيس إلى محب بعدم رضا معتاد وقصفته: «وجود الدواب دومًا مفيد».

كزَّ محب على أسنانه بكبت وقال: «سامحكِ الله، أنتِ امرأة كبيرة ولن أرد عليك».

غطت بهية فمها وغصت بالضحك.

اقترب محب من أوناس وهمس بهدوء رغم معرفته أن خطة أوناس يمكن إنجاحها بطريقة فعالة: «ما تُقدم عليه جنون، الدليل لن ينفعك هذه المرة».

ابتسم أوناس وقال: «العقلاء مملون يا فتى».

علَّق محب بصره على آسينيت المندفعة في شرح شيء ما بتركيز وتألق محارِبة لا أميرة ضعيفة هزمها الحب كما تصوروها.

ثم قال: «القادم كثير من التشتت وكثير من التضحية، بسبب اللعنة الحقيقية المسماة الحب».

التمعت عينا أوناس وأخيرًا تبدل صوته إلى نبض وهمي وقال: «بل الحب هو السبب الحقيقي لكل التضحيات».

***

على اسم مصر التاريخ يقدر يقول ما شاء، أنا مصر عندي أحب وأجمل الأشياء، بحبها وهي مالكة الأرض شرق وغرب، وبحبها وهي مرمية جريحة حرب، بحبها بعنف وبرقَّة وعلى استحياء، واكرهها وألعن أبوها بعشق زي الداء، واسيبها واطفش في درب وتبقى هي فدرب، وتلتفت تلاقيني جنبها في الكرب، والنبض ينفض عروقي بألف نغمة وضرب، مصر السما الفزدقي وعصافير معدية، والقلة مملية ع الشباك، مندية، والجد قاعد مربع يقرا في الجرنال، الكاتب المصري ذاته مندمج في مقال، ومصر قدامه أكتر كلمة

مقرية، قريتها من قبل ما اكتب اسمي بإيديا، ورسمتها في الخيال على أبدع الأشكال، ونزلت أيام صبايا طفت كل مجال، زي المنادي وفؤادي يرتجف بجلال.

***

(الخيال حيلة اليائسين من واقع الحياة، لكنه ليس يائسًا، والخيال وضع يلامس الواقع يُرى بالعين ويُلمس باليد ويتنشق بنسيم تراب الأرض).

وفي خضم التأريخ لحالة الحرب القصوى التي يعيشونها راقب محب إصرار الجنود البواسل المتشددين بتدريبات لم تنقطع، وتجهيزاتهم على قدم وساق، غُطِّي ماء النهر بالمراكب الحربية، ودروب المدن أُغلقت بالعجلات الحربية والخيول التي يمتطيها الجنود أصحاب الدروع والسيوف والقوس العادي وقوس الشمس... إلا أن الحياة العادية لم تتوقف، فالشعب يمارس مهامه اليومية بنشاط، شاهد الفلاح يرمي بذرة الخير في الأرض الخصبة، وآخر يروي أرضه «بالشادوف» المتطور أولى الأدوات الزراعية التي ابتكرها أجداده، وورش الصناعات والحِرف المختلفة التي لم يتوقف إبداعها.

رأى أمهات وسيدات بملامح خمرية جميلة يقمن على رعاية منازلهن النظيفة والعامرة بِحسهن ومكانتهن المبجَّلة، يَشدُدن أزر أزواجهن وأبنائهن ويدفعن بهم إلى الجيش.

منازل عظيمة جدرانها مزيَّنة بالرسومات الرائعة، نوافذ مزيَّنة بالزهور تتصدرها زهرة اللوتس المقدسة، تحيط بشُرفاتها الأواني الفخارية لحفظ المياه وحافظات صُنعت كمبرد محكم الغلق لحفظ اللحوم والأطعمة، تعرَّف على الأدوات المعيشية بسهولة، ليس لأنه غارق في دراسة التاريخ، وإنما كانت جدته حتى وقت قريب تستخدم مثل هذه الأدوات في قريته بالصعيد، وعندما كان طفلًا سألها ضاحكًا لماذا لا تستخدم الأدوات المتطورة.

أخبرته بوجهها الجميل الفخور الجاد: «هذه من إرث جداتي، ولن أفرط في إرث تركه القدماء لنا، فإبداعه يكفينا».

جدته الحبيبة، الحازمة، الرؤوفة، الحكيمة، العنيدة، هي من زرعت فيه بذرة إخلاصه لأصله ومحاربته للعالم أجمع والاستمرار في إثبات حقيقته، وفكَّر... لا يعرف لماذا بطريقة ما إيزيس تذكِّره بها!

قال محب بهدوء: «أشكرك لإتاحة الفرصة لنا يا سيدة آسري-نارتي».

وعيناه معلقتان على بهية التي ذهب عقلها تمامًا في تأمل المدينة المعمورة القريبة.

وتمتمت بانبهار: «شوارع مرصوفة، بيوت عمارتها بديعة دون عشوائية البناء، والنظافة! هل ترى ما أراه يا محب؟ ليس هناك حتى قطعة قمامة واحدة! والناس تحترم حق الجيرة، يا الله! أين نحن منهم؟ أين نحن منهم؟!».

ظلت بهية تردد بذهول فابتسمت آسري-نارتي بهدوء متفهمة ما يمران به، فهي رغبت أيضًا في أن يرى أحفادهم طبيعة حياة الرجل العادي، وليس ما وثَّقوه ليروي حكايات الملوك فقط.

هتف محب بابتسامة متوسعة: «أنا معجب بالنساء هنا، بل مغرم، إن ملكتُ أمري لتزوجتُ وظللتُ هنا».

التفتت بهية إليه بحدة، فرفع يديه بسلام يهادنها: «أنا رجل حر فلا لوم عليَّ».

صمت قبل أن يغمز تلك الغمزة المريعة، ورغمًا عنها شعرت بالجزع اللحظي، فقد تجسد أمامها ذلك الممثل المشهور بغمزة التحرش.

وأضاف: «ولكني مستعد لأول امرأة تسلبني حريتي».

اشمأزت وابتعدت عنه أمتارًا تحتمي بذراع آسري-نارتي التي قالت بهدوء: «حتى يُسمح لك باتخاذ زوجة، عليك أن تكون زوجًا مراعيًا ووفيًّا، تُكرِمها وتوفِّر لها جميع مستلزمات الحياة، ملبسها وطيبها، أن تتخذها شريكة لا تابعة، تُحسن إليها لتستطيب معاشرتك، تقدِّسها لأنها أساس منزلك وسيدته وأم أولادك، وأن تحفظ مكانتها وصورتها في أعين المجتمع المحيط بها».

يعرف محب جيدًا أن المرأة قُدستْ في حياة أجداده، كانت عماد المنزل وأساس بيوت الملوك قبل العوام.

ولكنه علَّق بطرافة: «وماذا ستقدم لي في المقابل إن التزمتُ بشروط الزواج؟».

ارتفع حاجباها بتعجب لحظي وقالت: «ليست شروطًا، وإنما أُسس لحياة ناجحة واستقرار الأسرة، فحفظ مكانة امرأتك سيحفظ مكانتك كسيد وشريك بالمقابل، الأسرة المستقرة السليمة أساس دولة قوية معمرة».

خاطب محب بهية ساخرًا: «هل تسمعين؟ القدماء لم يتفوقوا علينا من الناحية السياسية والعملية فقط، وإنما الاجتماعية أيضًا، لقد لخَّصوا ببساطة الأسس المتينة لبناء الأسرة، وحلُّوا معضلة الزواج، كل فردٍ فيهم وُلِد عالِمًا بدوره المحدد في الحياة، وليس اللعبة السخيفة بسيد غير ملزَم وسيدة غير ملزَمة».

رفعت بهية كتفها بلا مبالاة وقالت: «لا أهتم بالأمر، في المجمل أنا لم ولن أتزوج وسأظل عانسًا بكل فخر».

لوى فمه باستهجان ساخرًا: «بهذا الوجه العكر وردود فعلكِ السخيفة ليس عندي أي شكوك في موضوع العانس».

رفعت إصبعًا محذِّرةً مستفِزَّةً وقالت: «سيد محب، احترم نفسك».

سخر ضاحكًا: «أحترم نفسي لا تتوافق مع كلمة سيد، ناديني «واد يا محب»».

ابتسم وجهها العبوس أخيرًا وقالت: «وليكن، أنتَ رئيسي في العمل قبل كل شيء ولن نصل إلى هذه الدرجة».

فكرت بصمت: (غمزة أخرى، وبحق ستنزع جفنه من عينه بعملية دقيقة لتخلِّصه منها إلى الأبد، ستكون طيبة القلب وتستعين بأطباء هذا الزمان البارعين حتى لا يتألم).

وهو يقول بحبور: «اقبلي أن تكوني ملكتي وسيدة منزلي وناديني كما تحبين، ربما وقتها نرفع الألقاب والمكانة، وأشياء أخرى...».

منحته تلك النظرة المرتاعة وابتعدت، وقبل أن تستوعب صرخته التحذيرية تعرقلت بمجموعة أطفال تجمعوا بلعبة، وفي دائرة الصغار السُّمر بضحكاتهم الجذابة العفوية وقعت بهية في عشق من نوعٍ آخر، عندما اقتربوا منها يتلمسون وجهها بفضول وتساءلوا بلا خوف.

هتفت فتاة سمراء بعينين تلمعان بذكاء وشعر غجري يلف جسدها: «أنتِ حاملة الكتاب؟».

ضحكت معتدلة بتأوه خادع وأجابت: «نعم، وأنتم أسقطتموني لتوكم، ستغضب الأميرة».

وقف طفل آخر بصفَّي أسنان ناصعة وغمزة على الخد الخمري تُوقع القلب بمداره.

قال: «الأميرة عاشقة، والقلب العاشق لا يؤذي».

رفعت عينيها إلى محب بنبضة خائنة وابتسمت بخجل وقالت: «صحيح، وهذا هو الشيء الأكثر قيمة في عالم فوضوي فارغ بلا معنى، بلد منبع قصص العاشقين ستُحمى بقلوب العاشقين».

جلست آسري-نارتي أمام بهية وبين الصغار الذين التفوا حولها مهلِّلين بلا خوف رغم إدراكهم لمكانتها.

قالوا: «الأم الحامية».

ربتت عليهم ببشاشة جدة حنونة قبل أن تضع يديها في جيبيها وتخرج لفافات من حلوى «الجلاب» المخروطية المصنوعة من العسل الأسود.

وقالت: «الأميرة تُقرئكم السلام وأوصتني أن أمنحكم السكر».

هلل الصغار وأخذ كل فرد منهم نصيبه بلا طمع، بل وقسموها بينهم بالعدل.

اقتربت الجميلة السمراء من بهية من جديد تسأل بفضول: «ما اسمكِ؟».

ردت: «بهية».

صحَّحت الصغيرة بلسانها بجذل: «با-هية، هذا اسمي، منحته لي أمي، أنا الجميلة المشرقة كالشمس القوية».

توسعت عينا بهية بسعادة وأخذت الصغيرة بين ذراعيها وقالت: «لم أحبه يومًا، ولكن منذ هذه اللحظة سيتغير كل شيء يا صغيرة، فقد أحببتُ اسمي».

- ستذهبين إلى الحرب؟

ردت بهدوء: «أنا هنا للحرب».

هتف الشجعان الصغار بصوتٍ واحد: «أردنا الذهاب لهزيمة الأشرار، ولكن القائد قال إن وجودنا هنا أفضل للدفاع عن أرضنا».

علَّق محب: «الدفاع عقيدة أجدادنا، يتوحد فيها الصغار قبل الكبار، هذه الأرض مهما تفرقت فيها الطوائف ستجد أبناءها يهبون ليدافعوا عند ظهور الكرب».

تحررت الصغيرة من يدَي بهية قبل أن تمسك يدها وتجذبها عنوة خلفها متبادلة نظرة تفاهم مع الرفاق.

أسرعت لتواكب همتهم وهتف محب قلقًا: «إلى أين؟!».

وقفت آسري-نارتي بجانبه توضح بفخر وعزة: «لا تهلع؛ نحن نرحب بالغرباء ونكرمهم وكأنهم منا ونحن منهم، أرضنا لا تنفي لاجئًا، بل تُنزله منزلة المواطن عزيزًا ومكرَّمًا».

أخذ نفسًا عميقًا ملأ صدره ورد بصوت أجش: «لا تخبريني، فأنا أحفظه عن ظهر قلب».

جال بعينيه يراقب النساء اللاتي يقفن بجانب أزواجهن في الحقول وحتى الورش يساندن ويدعمن ويشاركن بفعالية.

المرأة في هذه الأرض لم تتغير على مر الأزمان، إذًا ما الذي حدث وخلق هوة عظيمة ليتنكر لهن بعض الرجال في زمنه؟!

***

عادت بهية بعد وقت تضحك بتلك الطريقة الجذلى تسلبه لبه، بثوب من الكتان الفاخر وعباءة ملونة بنقوش ملكية زينها الورد البلدي النيلي، وقد وضع الصغار حول عنقها عقودًا طويلة بسبعة أدوار متتالية، زُينت بالجعران بمختلف أحجامه وألوانه، وفي منتصف العقد مجسم ذهبي لطائر العقاب، كما زُين حجابها الفاتن بتاج من الفل وزهور اللوتس، وقفت عنده والصغار يتقافزون حولها بأغانٍ حماسية احتفالية يحمِّسونها للحرب.

فركت يديها ببعضهما بعضًا تنظر إليه بخجل، أهم ما يميزها حياؤها الفاتن.

قالت: «أرادوا الاحتفاء بي ولم أستطع كسر خاطرهم».

تحركت تفاحة آدم بشكل ملحوظ حين انتبه إلى الزينة المتقنة على وجهها، لأول مرة يراها بزينة! لم يهتم بما بدا تغييرًا بلمسات بسيطة عليها، فبراءة وجهها وحدها فتنة، ولكن ما لفت انتباهه الكحل الذي زيَّن عينيها.

عينان تشعِلان المياه الراكدة وتصهِران القلب العاصي.

لم يشعر بلسانه الزالف وهو يقول: «أنتِ لهفة قلب لا يمكن تخطيها يا با-هية».

توترت بخجل والتفتت بعيدًا عنه تواجه الصغار، على الأقل لم تنهره، هل هذا يعني أملًا بلين قلبها؟! صفق الصغار بحماس وقالوا: «أرينا سحركِ، فقد وعدتِنا».

عدلت حجابها بشكل وهمي وتلفتت إلى آسري-نارتي وكأنها تأخذ الإذن منها.

فأومأت بحبور: «نسل الملكات لا يتراجعن في وعد قد منحنه».

أغلقت جفنيها وأخذت نفسًا عميقًا تضع يديها على قلبها، ثم رفعت كلتا كفيها وكأنها تستعد للتحليق، وخرج من صدرها شعاع الشمس لينير قلب محب بالحب، وانطلق من كفيها بكل حِرفية وتحكُّم وكأنها وُلدت لتمارس السحر، مجسم لطائر العقاب يرفرف بجناحيه بريش أسود زاهٍ بالقوة والسلطة.

خاطبت آسري-نارتي محب بأنفاس ارتجفت بزهو: «هل تعلم معنى الرمز الذي اختار أن يتجسد بها؟».

ارتجف صوته مثلها ولكن لأسباب مختلفة تمامًا حين قال: «أم مزدهرة وجدة حاكمة، اسمه الفرخ المصري القديم رغم كونه طيرًا جارحًا شرسًا».

قالت بهدوء: «في وقت ما تجسد بيد إيزيس نفسها».

كان مبهورًا يحدق إلى بهية التي تسمح للطير السحري بالتحليق حول الصغار المتحمسين بضحكاتهم، ثم يعود إلى يديها قبل أن تقذفه إلى السماء ليحلق بجناحين من نار ينشر الحماية.

قال: «بالطبع استخدمت العقاب دلالة على الحماية، أم الأمهات التي وُجدت منذ البداية راعية عالم الطيور الجارحة».

صمت عاجزًا عن الكلام بينما القلب يهمس بوجل: «بهية، أصبحتِ خطرًا وقلبي غير محصَّن، بل قابل للجرح».

***

تحرك الأسطول البحري بقيادة أوناس وعلى رأسه آسينيت أميرةً وقائدةً عليه باسم الملك، وفي الوقت نفسه تحرك الفرسان والمشاة الأقوياء الشجعان نحو الجنوب بقيادة إيزي تحت راية وحكم ملك واحد سيد قراره، وبمباركته سيبدأ الغزو لكسر شوكة القرن الإفريقي لوقت طويل.

تحرك الجيش الجرار بكامل أسلحته الحديثة، كما تحركت الوحوش تشحذ مخالبها من كل صوب تتسارع للدفاع عن مملكتها التي تعايشت فيها مع شعبها في سلام ووئام.

حتى كهنة المعابد بقوانينهم وقيودهم ومن يزرعون الفتنة بخطبهم الرنانة بين الطوائف أحيانًا، خلعوا رداءهم الأبيض البراق وتناسوا مكاسبهم وحشوا بطونهم المتدلية على حساب المتعصبين، ورفعوا رايات الوحدة لا الفُرقة، فالعدو واحد وإن تفرقت الميول والأفكار وسادت المعارضة السقيمة.

شق مركب الشمس الملكي المياه الراكدة والثائرة وقت الحاجة بالقنوات المستصلحة منحدرًا إلى مياه النيل العظيم المفتوح، ووقفت إيزيس بكامل هيمنتها عند المقدمة ترفرف بجناحيها الحاميين حول كل الفصائل تزيد حماسهم، مؤكِّدة لهم عودتهم بالنصر.

رفض سوبيك البقاء في مكان لعنته منذ آلاف السنين، وقاد مجموعة من التماسيح خلفه وقد سمح لعدوه الطبيعي فرس النهر بدخول منطقته، بل والإبحار معه جنبًا إلى جنب وقد ذابت جميع الخلافات.

تحرك محب نحو طرف المركب العالي محدقًا إلى سوبيك لوقت طويل ملاحظًا نظراته المسترَقة نحو إيزيس! لم تكن نظرات إجلال أو طاعة، بل غضب، تخونه لحظات ضعف تتخللها الحسرة والتمني ويشعلها الحب!

وضع أوناس قدمه فوق طرف المركب يسند ذراعه فوقه يراقبه.

قال محب: «يُحيرك؟!».

رد أوناس: «الوحيد الناطق بين وحوشه، مالك زمام اللعنات، حُر نفسه حتى الملك بذاته لا يأمره، بل يعقد معه الصفقات! ألا يُحيرك أمره أيضًا؟!».

هز رأسه بالنفي وقال: «تعرف قصته إذن، أتذكر أنك نلت منه بحديثك عنها!».

أظلمت عيناه قليلًا وقال بنبرة قاتمة: «وقع في الهوى المحرم وكانت عاقبته وخيمة مثلي تمامًا».

زفر بحنق وتابع بظلمة اشتدت: «تناقل الكهنة قصته كتحذير منذ عقود طويلة حتى اختلطت الحقيقة بالكذب فضاعت العبرة».

التفت إليه محب غير مستوعب لبرهة وقال: «هل تقصد أن هو بنفسه ست؟».

عقد حاجبيه بتفكير وأجاب باتزان: «لا أظنه هو، إن كان لوجَد طريقه للتحرر، ولكن من الواضح أنك تعلم ما يتناقل من أن إيزيس رفضت أن يكون عقاب ست بالعبور إلى الحياة الأخرى، بل لعنته ليعلق بينهما في هذا الجسد».

تداخل الصراع مع نظرات محب المدقِّقة في سوبيك يتفحصه بتركيز.

وقال: «وقد يكون، ألا تلاحظ نظرات العشق؟».

ضحك أوناس وقال: «ومن يستطيع مقاومة عشق إيزيس؟!».

صمت يبتلع ريقه وعيناه تخونانه للتدقيق في وجه آسينيت المنحوت بهالة من الكبرياء والغضب المخيف مضيفًا: «والانحدار والسقوط رأسًا على عقب في عشق حفيداتها! ألم أخبرك أن عشقهن محرمٌ؟».

لم يبتسم محب، بل زاغت عيناه الحارقتان لبهية التي وقفت بجانب آسينيت على بعد خطوتين من إيزيس.

قال: «بل اختيار من بين ملايين النساء وقدر مرسوم منذ البداية».

وقع قوله الثابت أشد وطأة على قلبه المتنازع بين إخلاصه لأرضه وقوانين الدولة التي ستحفظ مُلك مَليكته، وبين عشقها الذي يحرِّمونه.

خبط محب بذراعه ناصحًا باختصار: «لا تخذلها باختيار سيُدمرها، لقد وهبت نفسها لك وقدمت تضحيتها، حان دورك لتثبت أنك تستحق».

صمت يقرأ الصراع على وجهه ثم كرر قولها أول مرة رآها ونظر إليها مبتسمًا: «الزواج بها وتخليد قصة عشقنا ليس خيارًا، وإنما الفرصة.

إننا نسبح عكس التيار ونأمل كالحمقى في التغلب على المصاعب».

ردد محب: «ما الحياة إلا حرب يظفر بها الشجعان».

لم يرد أوناس واعتدل يمنحه ظهره العاري وقد اكتفى بتنورة ذهبية حول خاصرته، وعلَّق على ذراعه جرابًا مملوءًا بالأسهم وقوسًا مركبًا، بينهما بقعة مميزة صغيرة وكأنها وشم لرأس أسد لم يرها قبلًا تحت درعه الواقي، كأنها وحمة كبصمة جينية يعرفها يقينًا، إذ دائمًا ما خبأها بنفسه حريصًا على ألا يراها أحد، كما فعل أبوه وأجداده من قبل!

وعلت أنفاسه المتقدة بصدره بينما خطر المعرفة يحذِّره ألا يأمل فيما هو بعيد المنال! اشتد ذهوله الحقيقي، لقد بحث كثيرًا ونقب عن أي أصل انحدرت منه عائلته، ولكن حبل المعرفة دائمًا ينقطع عند مرحلة ما، وكأنه يحذِّره من التنقيب وراء الأبواب الغامضة المغلقة، وانحدرت عيناه بعيدًا لاهث الأنفاس حتى لا يشك أوناس ويلتقط صراعه الخاص، اصطدمت نظراته بإيزيس تناظره بخبث ومكر المعرفة مع تحذيرٍ مخيف: «إن طرقت الباب الموصد وسعيت لإخراج وحشه المحبوس فلا تلم إلا نفسك».

***

مرت الأيام طوالًا، ولكن العزيمة لم تتخلخل ولم يتوقف الشجعان عن الترنم بالأشعار الحماسية، بقلوب مشتعلة وعقل يقظ وهمم لا تنكسر، وجه الحق لا يتخلله الخوف ولا يزوره التردد.

قال سوبيك: «الأوقات الخطرة تحتاج إلى رجال خطرين».

ابتسمت بهية بعد أن تبددت رهبة الاقتراب من سوبيك الذي يسير جنبًا إلى جنب مع مركب الشمس الضخم، بل ازدادت جرأة لتتجاذب أطراف الحديث معه.

قالت: «ألا تشعر أنك مريب؟ تصف نفسك بالإنسان؟».

خرخر بصوته المهيب: «أي ريبة يا فتاة وأنتِ تتحدثين إلى وحش ناطق؟!».

حكَّت مقدمة رأسها وقالت: «أحدهم يقول إني أصاب بسخافة الردود أحيانًا».

انضم إليهما محب مقاطعًا قاصفًا: «ليس أحيانًا، بل على الدوام، بالمناسبة، أنا هذا الأحدهم».

زمَّت بهية فمها بغضب تحدق إليه بعينين متجمرتين.

شب رأس سوبيك من المياه وكأنه يحييه: «أنتَ شجاع وصديق وفيٌّ».

تهللت أسارير محب وردد بلهفة: «يُنصرك يا شيخ، نعم، هكذا فخِّمني وانصرني أمامهن لأني منذ وقعت في هذا الزمان وإيزيس تنسف غروري».

أقسم إنه رأى عينيه تظلمان والدمعة المعلَّقة على الحراشف تزداد اتساعًا.

قطعت بهية الصمت السائد بينهما وقالت بحذر: «بطريقةٍ ما أراك بصورة مختلفة يا سوبيك، فلديك قلب أيًّا كان وصفك أو هيئتك، هناك بقعة مضيئة بالخير تظهر في الشدائد، بقعة مضيئة تبدد السواد والشر الذي وُصمتَ به».

خرخر من جديد بنبرة مرعبة ولكن لم يهتز أحدهم، وكأنه يصرخ فوق الألم، وحين صمت هذا الألم تكلم بصوته الآتي من أعمق نقطة بداخله.

قال: «السواد مصير مكتوب عليَّ، البعض يولَد به فيعيش فيه كوصمة داخل روحه، الشر ليس مطلقًا، والخير لا يسلك طريق البراءة أبدًا، نحن من نحدد كيف سنكون، والناس يا صغيرة تطلق أحكامها الجائرة وتوصم اللعنات، فنعلق بوشومهم الظالمة إلى الأبد، هكذا تشكلت جميع الكائنات».

همست بهية: «تقصد أن ميل القلوب يصبح جائرًا أحيانًا، لأننا نحكم بمشاعرنا لا بميزان العدل؟».

رد سوبيك: «العدل أعمى إذا تدخل فيه هوى النفس».

تدارك محب: «نحن نميل إلى من يشبه أرواحنا، وإلى من يسلك طرق اختياراتنا».

تحدث سوبيك بهدوء: «كلٌّ يرى ميزان العدل بمنظوره، عند اشتداد الصراع بين طرفين يأخذ البقية جانب أحد الأطراف ويصارع الآخر، لا أحد يرى نفسه شريرًا، بل يتبادلون الاتهامات».

التوت ابتسامة مخيفة على وجه محب وقال: «الأفعال دائمًا تحدد الصواب والخطأ، الخير والشر، فالحق لا يحتاج إلى جذب الانتباه، بل يرشد الأعمى لاتباعه».

رفع سوبيك عينيه المرعبتين إلى محب وكأنه قرأ ما بين سطوره الملتوية، فقال: «لا تنخدع بالروايات المنقوصة يا فتى، فالأحداث المشتعلة قد تُلْهِم عقول المختلين لاستغلالها وتزوير الحقائق».

مال محب غير مبالٍ بالمركب الذي يشق طريقه بسرعة جنونية معارضًا: «كل ما ترددونه تحذيرات فقط، وترفضون منحي حقيقة واحدة. رجاءً أخبرني بشيء ملموس».

فكر سوبيك بعمق قبل أن يقول ببساطة: «حسنًا، لك سؤال واحد وسأجيبك دون التفاف، فرصة واحدة فأحسن استغلالها».

أخفى انتصاره ورفع رأسه نحو بهية بنظرة شغف، فهمست بتواطؤ: «هيا أحسِنها، اطرح سؤالًا يُجيب عن كل حيرتنا».

التوى فمه أكثر وهس بخبث: «لديَّ سؤال بالفعل».

والتفت إليه من جديد وهدر بقوة: «ما سر الدمعة العالقة على طرف عينيك؟».

صرخت بهية ناعية كأي مصرية نكدية أصيلة: «هل هذا سؤالك الخبيث؟! روح منك لله، أضعت الفرصة، حسبُنا الله فيك يا محب يا بن...».

نظرت إليه بشرر ثم استجوبته كضابط درك: «ما اسم والدتك؟ لأدعو عليك بضمير في جوف الليل فيُستجاب».

تحررت عيناه من ظلمة سوبيك، ونظر إلى عينيها للحظات مسروقة.

أجاب بصوت أجش مدَّلهًا: «بهية، اسمها بهية يا بهية».

لم تتأثر بهية إطلاقًا برسائل الحب الحمقاء، بل نعتت حظها الأسود، إذ يوم أن سقط متعوس أبله في فتنة وجهها سقط لسبب أنها تذكِّره بأمه وصفًا واسمًا، مصيبة إن ظنها فعلًا أمه التي ستعوِّضه الحنان المفتقَد!

أوقف تفكيرها قهقهة سوبيك المخيفة وقصفه الساخر: «التسرع أعمى، ويحجب جوهر الأمور».

اضطرب محب قليلًا قبل أن يهدر بصوت خشن: «في كل الأحوال أنت مدين بالإجابة».

غابت هيئة سوبيك تحت الماء وكأنه يختبئ ليخفي الألم الذي لا يرغب في تذكُّره.

تبادل محب وبهية الحيرة قبل أن يخرج سوبيك ويبدأ حديثه: «في زمن غابر كانت التماسيح تمشي على قدمين كالبشر، تأكل الثمار وأوراق الشجر وتنفر من آكلي اللحوم، تتمتع بالذكاء والفطنة والدهاء، لا يسبقها بشر أو وحش».

قاطعته مبهورة: «هذا يفسر وصفك لنفسك كبشر!».

تجنبها سوبيك كما فعل محب الذي يصغي باهتمام، وأكمل: «حتى حلت الكارثة، حريق كبير أصاب الغابات هدد التماسيح بالفناء، فاختار الأب الأكبر اصطحاب بني جنسه إلى كهف ما، يحتمون فيه لزمن طويل حتى يهدأ غضب السماء ويسود الأمن مرة أخرى».

صمت سوبيك والمرارة والألم يغطيان وجهه، فحثه محب: «وبعد؟».

نهره بعينين مبتسمتين: «فضولك سيهلكك فاحذر يا محب».

تمتم محب بسخط: «لا قوة لي على ردعه».

اقتربت بهية أكثر من طرف المركب وآخر جزء من مخاوفها تبدد، وأصبحت تنظر إلى الوحش بتعاطف، حتى الوحوش أحيانًا تحتاج إلى يد تربت على أحزانها علَّ شرها يتغير، الوحدة أكبر عدو للخير داخل الإنسان.

أكمل سوبيك وصوته ينبض بألم حقيقي: «رغم اتساع الكهف ضاق، وتزاحم حتى سقفه، فانبطحوا على بطونهم التي اشتد جوعها، وبدد نقاء القلوب وأيقظ وحش الصراع للبقاء، وبدؤوا في أكل من يسقط منهم ميتًا، وكل ضعيف ينتهي به الحال مأكولًا».

كتمت بهية صرخة ألم ورعب.

ختم سوبيك قوله قبل أن يسقط في مياه النيل الرحيمة علَّها تُطبب بصفائها آلامه: «ومن حينها جاءت الدمعة لتذكِّرنا بأكلنا لأبنائنا وأهلنا مكرَهين لا مُخيرين، فالجوع وحش أشد فتكًا عندما يُحلق فوق الرؤوس ينشر رعبًا من نوع آخر».

تمتمت بهية بفك يصطك وبدن يرتعد: «هذه... هذه أكثر حكاية مرعبة سمعتها في حياتي، ناقوس مخيف يضرب بعقلي محذرًا من مستقبل مظلم».

وجمت ملامح محب، فحكاية سوبيك لها الأثر نفسه على تفكيره.

فقال: «وحش خبيث أجاب وتهرَّب بحكمة من الإفصاح عن حقيقته، جوابه لم ينفِ ولم يثبت يا ساحرة العُقاب».

***

«هل سمعت يومًا عن وسام الذبابة الذهبية؟ تلك الحشرة المزعجة التي تصيبك بالتقزز وارتبط وجودها بالروائح الكريهة والأماكن العفنة؟! لقد حوَّلها قدماء المصريين إلى وسام رفيع يُمنح للعسكريين والمحاربين الأشداء، لقد رأوا فيها ما لم نره في إصرارها الشديد وسعيها لتحقيق النصر، وعدم استسلامها والمقاومة، فلا تترك مكانها أبدًا حتى انتهاء حروبها».

هكذا كان القدماء يُخرِجون من القبح جمالًا، ومن الهزيمة نصرًا، شاهدوا أبعد من إطار الصورة، ودققوا في التفاصيل دون تهميش.

وصل أخيرًا الجيش الجرار إلى مبتغاه، وتمركز المشاة على بعد ربع يوم من تمركز العدو الذي ستأخذه الغفلة وتصفعه الصدمة، وأبحرت المراكب تشق طريقها في مياه النهر لوسط القرن الإفريقي بقيادة القادة العتاة.

ترجَّل كل من آسينيت وأوناس مع فرقة أخرى من الجنود الأشداء، يشقون صفوف الفرسان المَهَرة بعرباتهم الحربية، لم يحتاجا إلى مسيرة طويلة حتى وصلا إلى نقطة تمركز الجيش البري، فقد تولت إيزيس ومن انضم إليها من السحرة مهمة نقلهم بطرقها الخاصة.

تموضعت في منتصف خيمة القائد مائدة مستطيلة، التفوا حولها جميعًا وبدؤوا التخطيط للهجوم المباشر واختراق خطوط العدو رافضين منحهم فرصة الاستعداد، وإن كانوا أرسلوا لهم مع الطيور رسائل تحذيرية بموعد ومكان المعركة. لم يرسلوا أحد الجنود لمعرفتهم خِستهم بقتل الرسُل والتمثيل بجثثهم.

بدأ أوناس الحديث بصوت جهوري: «في الطليعة سيكون المشاة بالرماح، يتبعهم رماة الأسهم ثم سيتخلل الفرسان بعرباتهم الصفوف للوصول إلى العدو، مع تغطية تامة لهم عن قرب من رماة السهام...».

نظر إليه إيزي وآسينيت بتعجب لحظي.

– يُفترض أن نرسل الفرسان أولًا لِدَك صفوفهم حتى يستطيع رماة الأسهم والحراب طعنهم.

ارتسمت الشراسة بعينيه وأشار بمكر قائلًا: «هذا ما يتوقعونه، لذا سيكون راكبونا في المقدمة جاهزين لهم».

استدرك إيزي الخطة وقال: «ترغب في إرباكهم، ربما منحهم الغرور بالتفوق يصوِّر لهم سهولة الإطاحة بالمشاة».

وضح أوناس: «هدفي جرهم بعيدًا عن صفوف مشاتهم حتى يسهل كشفهم، وحينها ستشق العربات قلب جيشهم بسهولة وسيربكهم رماة السهام ويزعزعون سباتهم».

أخذت آسينيت تمشي حولهم وهي تفكر بعمق وذكاء قائلة: «لقد تحدث ذلك القائد عن كائن ضخم بحجم ستة جياد، يركبونه بمهارة ويحمل ستة من الرماة وربما أكثر، يجب أن نضع حسابًا لهذا الكائن في مخططاتنا قبل جنودهم».

وضع أوناس مجسمات لحاملي الأسهم وأشار: «وهذا تحديدًا هدفنا، فإذا أسقط الرماة راكبي هذه الحيوانات سيسهل إخافتهم».

أخذ محب نفسًا طويلًا وقال: «آسينيت تتحدث عن الفيل، إنه حيوان ضخم بحاسة بصر ضعيفة، إذا خاف وهرع لن يوقِفه شيء وسيتخبط ويدعس كل من أمامه، وبالطبع لن يفرق بين صاحب وعدو، وذلك سيخلِّف دمارًا كبيرًا بالأرواح إن تغافلتَ عنه».

– لم أتغافل، وأدرك هذه الخسائر الفادحة، ولكنها الحرب يا فتى، مأساة تفقد بها قداسة الأرواح.

وضعت آسينيت يدها على كتف أوناس وقالت: «لن أضحي بأرواح جنودي في مغامرة، يكفي الدم الذي سيهدَر والمنازل الحزينة التي لن يعود إليها أبناؤها، أريد حقن الدماء والحد من الضحايا، فدم الكيميتي عزيز».

رفعت آسينيت عينيها نحو إيزيس التي تراقب بصمت شديد دون تدخل، لقد فهمت دون كلام أنها لا ترغب في وضع الحيل، بل تركتهم لينالوا نصرهم بأيديهم، ربما ستفعل بنقطة ما ولكن بشروط غير رحيمة!

أطرق أوناس يفكر في هذه المعضلة، خطته شديدة الدقة ولكن الثقة العمياء في مواجهة عدو بعتاد مجهول ستكون ضربة حظ، والنصر لا يُكتسب بالحظ، بل بالذكاء وخبث الثعالب.

***

جن جنون جان، هدر ودار بصدمة وغضب، لقد جاءه العدو في معقله! كيف ولماذا؟! يعرف هؤلاء المغتصِبين لأرض أبناء الآلهة، مستضعفون جبناء، لم يجرؤوا قط على ترك معاقلهم وغزو حدود غير الأرض السوداء الخصبة، ربما دافعوا بل وهزموا أباه وأجداده من قبله، ولكنهم استغلوا السحر وتحصنوا بقصورهم ومعابدهم المشيَّدة، وكان هذا سبب نصرهم باستغلالهم فرقة القبائل، لكنه وحَّد القبائل ودرَّب الكائنات الضخمة لتدك معاقلهم.

فماذا حدث لهم؟ ومن أين أتتهم الجرأة لمقابلته في منتصف الطريق؟ ووصلت إليه أخبار بالفعل عن وصول أفواج منهم إلى معقل ملكه!

وسط جنونه وصراخه على حكمائه الذين شجعوه قصف صوت بغيض من خلف سجنه يقول: «الخراب قادم يحلِّق بسواده، لن يتركونا قبل أن نُجَر بالأغلال، حتى أمنيتك أن تدخل بلادهم ولو أسيرًا لن يسمحوا بها، سيستعبدونك بمعقل عرشك يا جان، هل تسمع؟ الخراب قادم، حذرتك قبلًا، بلغ استفزازهم أقصاه فلا تلُم إلا نفسك».

قال جان: «سينغو، اقتل الخائن مناصر الأوغاد، اقتل المتعاطف اللعين صديق محتلِّي أرض الإله».

اهتز خنجر سينغو للحظات وجادله لبرهة: «البدء بقتل أبناء جلدتنا، بل وحكيم، وزعزعة ترابطنا ليس أفضل طريقة لكسب الحرب».

الشر تطاير والحقد ملأ الأجواء، حتى حاشيته ارتعبت وتفرقت بعيدًا عنه، سحب جان رمحه ورماه نحو قفص الحكيم ليستقر في قلبه.

وهدر بصوت مرعب محذِّرًا: «خطؤك اللعين ما جلبهم إلينا، لا تستغل كرمي للإبقاء على حياتك وتعصي أمري لأنك ستكون القادم يا سينغو».

تنفس سينغو بحمى الجنون وفمه المشقوق لم يترك فرصة لحجب انفعاله، فانقض عليه جان يجذب شفته المقسومة والمتدلية من الجانبين.

قال: «أبقيتك ببصمته اللعينة عليك لإذلالك بين جنودك لتكون عبرة لمن يتخاذل، وإن لم تأتِ لي برأسه غدًا بجانب الأميرة اللعينة سيكون رأسك أنت على طعام غدائي الرئيسي».

تمتم سينغو بقرف: «سيحدث، ليس لمطامعك وطموحك الذي قادنا إلى الموت، بل لأني وحش لعين مثله في حرب ضارية لا يستسلم فيها إلا الجبان الذي قد يُوكِل غيره لكسب أحلامه يا ملك جان».

***

«في أرض المعركة لا مكان لجبان، لا موضع للخير ولا لقلوب تنبض بالرحمة، لا جسارة لجندي دون ثقته بقضيته قبل نفسه، الحروب تثبت العقيدة وتُقوِّي المبادئ أو تنسفها».

تواجه الجيشان، كلاهما يتساوى بالإصرار على نصر قضيته، مدافعًا عن حقه في ملكية أرضه، أو غازيًا جبانًا، كلٌّ يرى أحقيته بمنظوره الراسخ وإيمانه بمعتقده.

تقدمت آسينيت الجيش على فرسٍ شامخة بلون بني يسر الناظرين كصاحبته بشعرها الغجري محرَّرًا فوق ظهرها، لا هو مجعد خشن ولا حريري، أما وجهها الجميل فخلا من الزينة، وقد زيَّنه إصرار المحاربة العتيدة.

صرخت إيزيس: «المحارِبة تعرف ما تحارب من أجله».

وفتحت جناحيها في مشهد مهيب تحلق فوق رؤوس الشجعان وتوقد داخلهم روح النصر فتشعل هممهم.

تقدم أوناس بعربته الحربية يقودها جواد أسود مهيب للأرض الخالية بين الجيشين، كما فعل جان، وقد اختار أن يركب ضبعًا بشعًا وقد ألجم أنيابه كرسالة مرعبة لعدوه.

ضاقت عينا أوناس وزاد سعير النار داخله، وإن لم يخلُ وجهه من ابتسامة ساخرة.

قال جان باستهانة: «أرى أنكم نفضتم رداء الخضوع وزادت جُرْأتكم».

لم يستفز أوناس الذي أجابه بسخرية: «لا أحتاج إلى رؤية ما يرويه الجميع عن قائد متهور وأحمق، جاهل يقود جنوده إلى أرض دُفن فيها آباؤهم من قبل».

هتف جان بحمق: «أرض تطاول من يسكنها على حراس أرض الإله».

هدر أوناس بقسوة: «بل مقبرة للغزاة».

شد جان لجام الضبع ليكشر عن أنيابه فيصدر عشيرًا مخيفًا وقال: «سأعلِّق رأسك على عرشي في الأرض السمراء».

لم يستطع أوناس منع نفسه من الضحك وحدق باستخفاف إلى سينغو وقال: «سمعتُ هذا الوعد قبلًا، فاحذر؛ لستُ رحيمًا مع المتبجحين».

أخذ جان نفسًا غاضبًا وقال: «الحرب إذًا، لا مجال للتفاوض معك، سأحصل على إرثي بعد أن أستمتع بالسير حتى أون فوق جثثكم أنت وجنودك».

لم يظهِر وجه أوناس أي انفعال.

أكمل جان بنظرة متملكة محمومة نحو آسينيت: «لا، لن أفعل، بل سأبقي جثتك طويلًا كفراش لي أزرع بذرة أولادي الأشداء فيها. لقد عاشرتَها قبلًا، صحيح؟ أخبرني، هل هي شرسة كما في القتال؟».

نال من أوناس الانفعال والسعير يرسم الجنون فوق صفحة وجهه، أسنانه الفتاكة اصطكت بصوت مرعب داخل فمه المكشر، تعبير جسده يموج بكسر كل التعقل وارتكاب حماقة تخلق ثغرة ضعف قد تودي بجيشه، لكنه لبرهة عقل ارتخت أصابعه الملتوية حول سلاحه وكأنه سيحطِّمه.

وهس واعدًا بكُره: «سأستمتع بكسر غرورك يا جان، وعدي لك ألا أرسلك إلى الحياة الأخرى، بل سأعيدك إلى أرضك ذليلًا مكلَّلًا بالعار».

ضحك جان بمجون، ولم يبقَ أوناس لسماع مجونه وهرطقته، بل عاد إلى طليعة جيشه وقد أمَّنه الرماة من ضربة غادره في ظهره.

***

يسبق كلامنا سلامنا، يطوف على السامعين معنا عصفور محندق يزقزق كلام موزون وله معنى عن الأرض سمرا وقمرا...

وضفة ونهر ومراكب ورفاق مسيرة عسيرة وصورة حشد ومواكب فعيون صبية بهية عليها الكلمة والمعنى.

القائد من يملك جرأة الأسود وذكاء الثعالب، وضميرًا وقلبًا يقظًا يعج بالإنسانية في أحلك ظلمات الحرب.

الجيش الجرار خلفه، كلٌّ يحافظ على موقعه حارسًا سلاحه لا يتخلى عنه بحياته، ينصت ليس لأوامر، وإنما لصرخة استغاثة أرض ووطن يطالب بالمجد وحفظه بين جنباته ذكرى لهم ولنسلهم من بعدهم، ليرنو في الخافق صداه ليوم معلوم.

نزل أوناس من العربة ومشى دون خيلاء نحوها، عيناه كالجمر المتقد فوق عينيها الجامدتين النابضتين بالغضب والحياة و... الحب!

وحدها من جمعت المرادفات كلها وكانت امرأة التناقضات.

تنحى عن طريقه الجنود إلى أن وصل أمامها، مد يديه دون كلام يعدل درعها مؤكِّدًا على تأمينه التام.

همس بخفوت متحشرج: «منذ أول يوم كسرتِ القوانين ووقفتِ أمامي متحدية للموافقة على تدريبك علمتُ أنكِ محارِبة بقدرات استثنائية، داخلك وحش يجيد اللعبة، وبالخارج ملكة تعرف ما تحارب من أجله».

اهتزت حدقتاها تحديًا وهمست باختناق: «ولكنك لا تكون نفسك وأنت بجانبي، تعرفني باليقين وتجهل نفسك».

ابتسم ببطء، ابتسامة اعتراف وشيء عميق من عشق تركَ أثره داخل فؤادها، كعينيه المشتعلتين بنار الحماية.

قال: «ليس جهلًا بما أنا عليه فقط حين أكون جانبك، وإنما وجع قلب».

صمت يزفر أنفاسًا أقرب للحشرجة المرتجفة.

تابع: «أنتِ وجعٌ للقلب مولاتي».

شهقت مجفلة من الاعتراف المؤذي!

قالت: «قلبي لم يكن محصَّنًا تمامًا، خطيئتي عشقك».

زاد اقترابه منها لتشعر بحرارته تطيح بكل إنش فيها، مال قليلًا حتى كادت شفتاه تلامس أذنها.

وهسهس بجدية: «خطيئتنا، لن أكون رجلًا يحترم نفسه إن حمَّلتكِ العاقبة السيئة كلها. أنا من كان يجب أن يحذر ويبتعد، بعد أول دقة قلب لهثتُ وراء عبقك».

أسبلت أهدابها قليلًا في محاولة مضنية لمنع الدموع، تعلم أن واجبها يحتم عليها نسيان العاشقة لتظهر الأميرة المحارِبة قوية شامخة واثقة بالنصر أمام جنودها.

قالت: «عِدني يا أوناس أنك ستغلب الموت، ستكون هناك حكايا أخرى نصنع منها مجدًا يُخلِّد اسمي واسمك في درب طويل ينتهي بـ: عاشا سعيدين حتى عبرا إلى الحياة الأخرى».

رفع أوناس عينيه عنها يحدق إلى وجه محب على بعد خطوات، وتذكَّر ما قاله، ولم يفارق عقله قط: (هو لن يكون جزءًا من مستقبل وحياة الملكة والمحارِبة العظيمة، حتى التاريخ لم يذكره ولو من باب التكريم).

يعلم جيدًا معنى أن يُمحى اسمه، ويعرف يقينًا أنهم محوا تعريفه لأنه ارتكب الإثم الأكبر فحرموه من هويته وتقديس روحه.

عاد يحدق إلى جانب عنقها ورأسها المنخفض، وكأنها عاجزة عن النظر إليه حتى لا تضعف وتهتز صورتها التي بالكاد بنتها أمام جنودها.

قال بصوت أجش: «كوني بخير ولا تندفعي، ابقي سالمة من أجل روحَينا».

همستها يائسة بائسة بحبه واسمه: «أوناس، وجه القمر وسر وجودي...».

لا مصيبة أعظم من الجهل، لكن أحيانًا تتعاظم المصيبة بالمعرفة، وتأتي الهزيمة باليأس والتخلي عن المقاومة ليوم آخر ويصبح كل شيء في الدنيا لا يستحق.

بعينَي ذئب متربص وجَّه أوناس جنوده أخيرًا للهجوم متبِعًا تكتيكًا استراتيجيًّا، فوضع الصفوف الأولى من أضعف فئة في جيشه، ليس للتضحية بهم، ولكن لإغراء العدو ودفعه بتهور ليقدِّم أفضل ما عنده فيهدر طاقته، لظنه أنه قادر على هزيمة أول فوج.

اندفع المشاة بسيوفهم ورماحهم واصطدموا براكبي الضباع والجياد من جيش العدو ونشبت معركة شرسة نال فيها أوناس هدفه.

صرخ إيزي: «وجب تدخلنا الآن، سيبطشون بهم».

هتف محب بقوة خشنة رافعًا يده باستعداد بإشارة بينهما: «اهدأ، صبرًا».

تحفزت إيزيس تطفو فوقهم في الأعلى تفرد جناحيها الذهبيين وتتحكم بجيش ضخم من الوحوش والسباع وترتب هجومهم.

وقف طائر أبو منجل فوق كتفها يهمس لها بسر جعل عينيها تتألقان.

أمرته: «تجول بين الممرات وتفحص الموقع وآتني باليقين».

فرد الطائر جناحًا واحدًا وأحنى رأسه باحترام قبل أن يُحلق في السماء.

«الآاااان».

صرخ أوناس مندفعًا على رأس فرقة العجلات الحربية ومحب أمامه يقود العربة، وهو بالخلف يوجِّه سهامه ببراعة ودقة نحو العدو، مدافعًا عن الفرقة الأولى، التي رغم إحداث العدو الفواجع بها لم يجرؤ أو يفكر جندي واحد في الفرار، بل تشبثوا بأرضهم وإيمانهم.

تخللت العجلات جيش العدو وتسللوا بينهم بحرفية وجسارة، وتبع سلاح العجلات فرسان الأقواس الذهبية يضربون بسهامهم العدو ليحموا سائقي العجلات.

لم يكن جيش جان الضخم بالعدو السهل، وقد أحدثوا فيهم خسائر فادحة في أول ساعتين من الاشتباك.

واجه محب صعوبة في توجيه العربة، إلا أنه لم يفقد السيطرة عليها، فأوناس درَّبه لأيام طويلة للتحكم فيها.

هدر بيأس: «الضرر أكبر مما توقعتُ يا أوناس، لن ننجو ليومٍ آخر».

سحب أوناس من فوق ظهره سهمين بسرعة جنونية ووجَّههما نحو جنود اقتربوا منهم بشكل محموم، ولم يرُد، عقله كبصره، مثبتان على هدف لعين لن يتزحزح عنه، وبإشارة أخرى منه للقائد إيزي خليفته كما اتفقا إن نالت منه نيران العدو، هجم إيزي بفرقة أخرى من راكبي الجياد واشتبك بشكل مباشر مع من مثلهم من جانب العدو، لكن الغلبة كانت لساكني الأدغال، وبخاصة لإدخالهم العنصر الحاسم، الأفيال!

هجمت أفيال ضخام سحقت بوجهها الصاحبَ قبل العدو، دعست الرجال، دمرت العجلات، بينما راكبوها يوجِّهون الرماح ويلقون بالخناجر وحتى الأحجار على رأس وقلب الجنود.

ازداد وطيس الحرب من كل حدب وصوب مختلطًا غير مفرِّق بين عدو ومناصر، حتى إن بعض الحراب والسهام نالت من صفوف كل واحد لجيشه!

تشبثت آسينيت بدرعها الحربي وتاجها الملكي فوق رأسها تقاوم ألا تتقدم وتشتبك معهم.

أوقفتها بهية بكلمة وكتابها بين يديها: «دورك لم يأتِ بعد».

نهرتها بغضب: «لا أملك القدرة على الصبر».

قصفتها بهية محذِّرة: «لا تعبثي بالمكتوب حتى لا يخونك وتكون الهزيمة من نصيبك».

طارت إيزيس بوضع أفقي فوق رؤوسهم كعقاب ماهر مترصد وصائد مفترس.

وقالت: «لكن أنا أستطيع اللعب به».

في اللحظة التالية كانت تلال من الرمال تتفجر كالبراكين من كل جانب تلتهم الكثير من معدات العدو وتوقِع بهم أكبر قدر من الخسائر البشرية.

تبعتها عاصفة رملية التهمت ما تبقى على الجبهة، ثم أمرت إيزيس بهجوم ضارٍ من الوحوش تفتك بلا رحمة بأعناق الفيلة والضباع قبل جنود العدو.

صرخ سينغو متجهًا بجنون نحو أوناس: «الغش والسرقة من طباعكم! تستعملون السحر!».

قفز سينغو عن ظهر أحد الفيلة بمهارة على عربة محب وأوناس، وقفز الأخير ملتويًا في الهواء مصطدمًا بسينغو، فطار الاثنان مشتبكَين لا يعلو على صوتهما إلا صوت صليل السيوف.

قال أوناس: «لا مبادئ في الحروب يا خسيس».

تصادما وتبارزا وهبط الاثنان أرضًا مصدرين صرخة بصدى محموم.

قال سينغو: «نحن لم نستخدم السحر».

مستندًا بيد على الأرض واليد الأخرى ممسكة بسيفه، رأسه منحنٍ وشفته المشقوقة مرسوم فوقها أبشع ابتسامة قد تظهر في الحياة.

قفز ليهبط على ركبة واحدة وأمسك سيفه بكلتا كفيه وأضاف: «بعد!».

تصدى أوناس لضربته والتف بقدمه حول نفسه قبل أن يستوي صارخًا ويقول: «أعرف أنكم ستفتشون الصحراء حجرًا حجرًا والأدغال شجرة شجرة لتجدوا كل وسيلة خسيسة تمكِّنكم من سرقة ما ليس لكم».

رفع سينغو سيفه من جديد إلى أعلى وتلقاه أوناس.

قال سينغو: «أنت بالذات لا يمكنك أن تلومنا، بل تتفهمنا، وقد أخذت ما ليس لكَ قبلًا وتنعمت بسحره وامتلاكه».

كشر أوناس عن أسنانه وقفز أمتارًا إلى الأعلى بغتةً ووجَّه سيفه نحو نحر سينغو.

وقال: «هي دمي، والدم سيبقى انتماؤه إلى صاحبه».

أصابه وشقَّ جرحًا آخر بجانب الجرح القديم ولكنه لم ينل منه، فسينغو لم يكن الخصم السهل حين استلَّ خنجره وألقاه قاصدًا صدره، ولكن الضربة لحسن الحظ أصابت كتفه وتدفقت الدماء.

علا صليل السيوف المشتبكة بحرب طاحنة انتهت بدق طبول ونفير أبواق تعلن انتهاء الجولة الأولى وانسحاب كل طرف إلى موقعه.

ورغم عدم تخليهما عن نيتهما في الفتك بالآخر، حتى إن الاشتباك انحصر بينهما فقط، فإن إيزيس وضعت كلمتها النهائية عندما فرقتْ بينهما عنوة، مرسِلة سينغو بدفعة واحدة من الرياح إلى صفوف جنوده.

صرخ أوناس بغضب محموم رفضًا لتدخلها، ضاربًا بسيفه الهواء.

هدرت إيزيس بصوت علا على الجميع بتلك النبرة الضخمة التي تخضِع الحيوانات والحجر قبل البشر: «حافظ على رباطة جأشك أيها المحارب، الرقصة الأخيرة لم يحِن وقتها بعد».

***

اجتمع الكل في الخيمة الرئيسية يعدون قتلاهم قبل الأحياء.

جثت آسينيت على ركبتيها أمامه تهتف بأمر: «الأطباء، أين الأطباء؟».

أمسك أوناس يدها مبعِدًا الخرقة التي استخدمتْها لوقف تدفق الدماء وقال: «لم أرِدْ طبيبًا، أردت رأس الوغد».

تهاوت اللهفة والقلق وحل النفور، فقالت: «لماذا تهاجمني؟! توقف عن دفعي يا أوناس، هذا لن يجدي نفعًا».

رفع أوناس عينيه إلى عينيها البائستين وهاله تعبير الخذلان المزلزِل بهما، وفي هذه اللحظة رمى صحوة ضميره جانبًا ونزاعه بين الواجب والقوانين وبقي الحب الذي دفعه إلى أن يتجنب الحذر من الأعين المسلَّطة عليهما. مد يده ممسكًا رأسها من الخلف مع حفنة من الشعر الغجري الخالي من الزينة والتاج، فآسينيت في هذه اللحظة فقط الضعيفة العاشقة التي تحتاج إلى أمانه وإيمانه.

همس مواسيًا: «أردتُ رأسه حين تجرأ ورفع إصبعه نحوك، رغبت بكل جوارحي في فصل عنقه وشج فمه الذي تجرأ عليكِ، والتمثيل بجسده قبل هدر دمه وإن كان هذا آخر ما أفعله في حياتي».

ضحكت رغم الألم والقلق، تخضبت وجنتاها وقلبها غرَّد بأعذب الألحان، وكأنه ألقى عليها أعظم أبيات الغزل لتوه.

ساد الصمت وتسلل الأمان إلى فؤادها، رفعت كفها من جديد تغطي جرحه، وأغلقت عينيها وهمت بهمس تعاويذها، ولكنه أوقفها بحسم لا يقبل الجدل.

قال: «لا، لن تستخدمي سحرك الشافي، أرغب في وجود أثر لكل جرح فوق جسدي».

فتحت جفنيها من جديد تنظر إليه بغضب، عيناها تتقلبان تضويان عتمة الليل وتحرِّكان المياه الراكدة، تحوَّلتا إلى عينين مكحلتين بالحب.

تابع: «سأسمح لكِ بممارسة كل ألاعيبكِ كما تلاعبت عيناكِ بقلبي بعد النصر».

ابتسمت من بين دموع أخفتها في صدره حين دفنت رأسها هناك بلا خوف ولا تكلف، بينما ضم رأسها إليه بكل قوة وكم تمنى أن يضمها كلها ويزرعها بين الشريان والوريد فلا يفترقان أبدًا.

تمتمت بجزل: «على الأقل وعدتني لتوك أنك ستبقى معي لنفخر بنصرنا معًا».

(كيف أعدكِ بما لا أملك؟ لا أحد قادر على هزيمة الموت)، همسها العقل والقلب يغلي بأفكاره.

***

بعد انتهاء نهار طويل وليل أطول حُصِر عدد ضحاياهم، ورفضت آسينيت بتضامن مع الجميع أن يتركوا جنودهم الشهداء للطيور الجارحة ووحوش الصحراء المتوحشة، بل جلبوهم فوق العربات حتى يحظوا على الأقل بدفن يليق بشجاعتهم وتضحياتهم، وتولى مجموعة من الكهنة أصروا على القدوم معهم مراسم الدفن، كما لو كانوا في أرضهم، ثم دفنوهم في مشهد مهيب وأُطلقت الأسهم النارية تشق عتمة الليل احترامًا وتقديرًا.

ومن جديد اجتمعوا ليحددوا تكتيكاتهم العسكرية. انقضَّت إيزيس فجأة بغضب هادر، واتقدت مشاعر سلبية من جهة أوناس نحوها، وقد اعترض على تدخلها لإنهاء النزال مع سينغو.

قالت: «لم أرَ نجاح خطتك الأولى لتبدأ في وضع أخرى!».

فكر محب بصمت: (هل إيزيس تهاجمه فعلًا أم تستفزه ليبوح بالمزيد؟).

الاحترام والتبجيل لم يغادرا صوت أوناس رغم حنقه: «بل فعلت، ووصلت إلى ما أريده تمامًا».

اندفعت نحوه تطفو في الهواء ومالت برأسها قائلة: «عدد الشجعان الذين ودَّعناهم لا يخبرني بهذا».

قال أوناس من جديد: «خسائرهم في الأرواح والعتاد أكبر بكثير، كما أن الجواسيس أكدوا على اهتزاز صفوفهم وتعاظم شك جنودهم في ملكهم، وهذا ما أردته وسعيت إليه قبلًا».

حرك حاجزًا طويلًا ثم ضربه بجنوده وقال: «فالحروب لا تُربَح من أول جولة يا إيزيس العظيمة».

ضيق محب عينيه ودفع جسده الضئيل بين الأجسام الضخمة وأضاف: «هدفتَ إلى استنزاف وإضعاف العدو لأبعد درجة ممكنة، لم يكن هدفك من البداية ربح الجولة الأولى».

رفع أوناس عينيه إلى آسينيت المتكئة فوق معقد فضي يضاهي العرش في أون وقال: «الغرور كان ما يغذي خط الهجوم الأول لجان، أليس كذلك؟! وها أنا ذا منحته نصرًا مخادعًا ليزيد من حطب تهوره، فلا يتوقف للتفكير وتغيير استراتيجيته لظنه بضعف عتادنا، معتقدًا أنه فهم طبيعة قواتنا، معميًّا تمامًا عن الخسارة الفادحة التي حدثت في صفوفه».

تدخل إيزي موضِّحًا بتفكير عميق: «ولكن تبقت عقبة الكائنات الضخمة، ستظل عقبة ويجب أن نجد لها حلًّا باترًا».

حك أوناس جانب فكه بإبهامه وعيناه تتوهجان بناره المستعرة القاتمة.

وقفت آسينيت تبادل إيزيس النظر قبل أن تومئ لها الأخيرة بالسماح بما أخبرتها به قبلًا وقد نقله الطير.

أخذت نفسًا طويلًا قبل أن تقول: «يمكننا القضاء عليهم تمامًا إن استطعنا جرهم إلى هذا المضيق بين الجبلين».

وأشارت إلى الخريطة تحدِّد الموقع.

أسرع إيزي مشكِّكًا: «طُرِحت الفكرة قبلًا، لكن هذا يعني التضييق على قواتنا أيضًا، وستكون الخسارة متبادَلة».

لمعت فكرة سريعة في رأس أوناس فقال: «ليس إن استطعنا جذبهم وبقينا نحن بعيدًا، فرقة محدودة العدد منا ستقابلهم، بينما حاملو السهام والرماح المهرة يشرفون عليهم من قمم الجبلين في سرية بحيث لا يشعرون بهم، ولا يتدخلون إلا عند إشارة محددة».

ابتلعت بهية ريقها وقد ذهب الجبن والسلبية، وإن بقي الحذر ناحية إيزيس.

قالت: «لماذا... لماذا لا تستغلون علمنا في المستقبل؟ نستطيع...».

هدرت إيزيس: «لا، لا يحتاجون إلى خدع المسافرين».

ساند محب بهية بقوة: «لن نستخدم خدعًا، بل معلومة علمية لن تكون سر الظفر في الحرب».

قال أوناس بنبرة قاطعة قاتمة: «الملك أوسركان ترك القيادة المطلقة في يدي، لذا القرار لي في النهاية».

هدرت إيزيس محذِّرة: «لا تتحدَّني يا فتى».

– لا أتحداكِ، بل أكن لكِ احترام المحارب وخضوع الحفيد.

كشرت بابتسامة ملتوية وقالت: «أنت لست حفيدي».

الغضب لوَّنه وأفصح: «لماذا تدخلتِ؟».

رغم الصرامة كانت هادئة جدًّا وهي تقول: «وعدتُها بألا تكون ملكة مفجوعة مكلومة أخرى، لن أسمح للموت بهزيمتي من جديد».

فغرت آسينيت شفتيها قبل أن تلعقهما بطرف لسانها وهمست: «ممتنة لكِ أيتها الأم العظيمة، ما زلتِ على عهدك، تحميننى رغم رفضكِ للمقابل».

ابتسمت واكتفت بقول: «طفلتي الجاهلة، من ينسَ الماضي يُلعن بتكراره».

لم تستوعب رسالتها ومقصدها، وبقيت عيناها على أوناس الذي وضع قناع الصرامة والأسرار الدفينة الملعونة، كارهًا الحماية، وخائفًا من مستقبل يخصها وحدها، أليس هذا ما يوجع القلب حقًّا؟! لا يهاب الموت ويخاف حبها!

هتف: «حاملة الكتاب، لديك ما تنصحيننا به؟».

طارت بهية كالريش في الهواء، العقل منفتح والقلب صاخب والروح تطفو بشعور القيمة، هناك من يبجِّلها ويستمع إليها، ينظر إليها بكونها أكثر من فتاة يجب أن يُغلَق عليها ألف باب ولا تُسأل أو تُبدي اعتراضًا أو رأيًا، قيمتها هنا أكبر من أن تُحصَر في لقب عانس تنتظر الفارس المتعوس ليمنحها عقد زواج يُعلي من قيمتها!

هكذا شعرت وهي تقول بحماس: «في زماننا نطلق عليها فيَلة، ورغم أنه حيوان ضخم مخيف فإنه لطيف والله!».

هتف محب بضيق ملاحِظًا عينيها اللامعتين أمام وجه أوناس ورغب في فقئهما: «للمعلومة يا كل اللطافة، ليس هذا وقت كيوبيد والدِّببة والفيَلة».

التفتت إليه بحنق وقرف قبل أن توضِّح على مضض: «الفيَلة تملك حاسة بصر ضعيفة، لذا ترهب من أي شيء صغير يمر حولها. المشكلة ستُحَل بحفنة من الدجاج أو الفئران، أو حتى إن استطاعت إيزيس التحكم بالذئاب والسباع ليحوموا حولها».

أنِس أوناس وإيزي للفكرة، أما آسينيت فلم تحتج إلى النظر ليعرفوا أنها تناصرها دائمًا!

***

مر زمن لم تهدأ الاشتباكات بينهم، مرة منتصرون ومرات منهزمون، مذهبهم الجديد استراتيجية الاستنزاف وإن زادوا عليها الخدعة، بوهم النصر، وما أسوأ الوهم على نفس الإنسان! فيشعِل غروره

ويسلب عقله عن رؤية ما حوله.

هدف أوناس لم يكن نصرًا سريعًا ودحر الأعداء لبلادهم، ليعودوا بعد لملمة شتاتهم فيهاجموا مصر الحبيبة، وتتأخر خطوات استئناف النهضة بالاقتصاد والنماء، ونشر الخير بين ربوع الشعب قبل طبقة الحكام والأرستقراطيين.

هدف أوناس وآسينيت هو الهزيمة الساحقة للعدو وإعادته إلى حجمه الطبيعي، تفريق جمعهم وتشتيت أحلامهم وهمتهم، هزيمة ليس بعدها قيام، يجرُّون ذيول الخيبة، ودحر بزوغ أمل آخر، بل حرق كل آمالهم قبل جسد ملكهم وقوَّاده!

اشتعلت عينا أوناس من بين الظلام الحالك ينظر إلى البعيد لهدف محدد، وكأن بصره سيلتقط تقدم العدو على طول الطريق، بعد أن تقهقر بقواته إلى الخلف بقصد أن يوهم العدو بهروبهم من أرض المعركة وقد باتت هزيمتهم حتمية.

قال محب: «أتظنه التقط الطُّعم؟».

لم ينظر إليه أوناس وقال بجفاف: «أنت الدليل القادم من المستقبل، أخبرني، هل فعلوا؟».

حك محب جبهته وضرب حجرًا تدحرج أمامه حتى سقط على ضفة النهر الممتد، وقد تمركزوا عنده على قمة جبل لجر العدو لمعركة حاسمة على ضفاف المعطاء مانح الحياة.

قال محب: «ما سُجل على جنبات الموقع الذي وجدناه مخالف لما يحدث الآن».

الظلام دامس وقد اقترب وقت بزوغ الوهج الأول لشعاع شمس يوم جديد، يوم حاسم سيخلِّده التاريخ.

قال بخفوت: «على الأقل سينتهي بالنصر!».

عقله يغلي بأفكاره وكل ما يحدث مجهولٌ له بعد المعرفة، ما أسوأ الجهل وما أعظم قهر الرجال دون المعرفة بعد اليقين! الشك عدو متربص وفتاك ينهش بقاياك ويأكل إيمانك بنفسك قبل الناس، فيضيع بصيص الضوء المنبعث أملًا في الحياة والمستقبل.

– أخشى أن تصدق نصيحة إيزيس (لا تُلاعب القدر حتى لا ينقلب ضدك).

رفع أوناس بصره من فوق سلاحه المستريح عليه وقال: «اجلس يا محب، أريدك في أمر لن آمن سواك عليه».

قرفص محب بجانبه ينصت إليه باهتمام وفضول، سكن الصمت الأصم حولهما، حتى الرياح العاتية توقفت، والنسمة العليلة المحمَّلة بروائح النيل الآتية من كيميت الحبيبة تصبِّر قلوبهم على وحشة الغربة شحَّت، ولكن صوت القلب الخافق بتسارع لم يهدأ.

قال أخيرًا بصوت أجش خالٍ من الغلظة والقوة المعهودة: «غدًا سيكون يوم الحسم، والاحتمالات ليس لها ثالث، إما نصر وإما...».

ابتلع ريقًا صعبًا كصعوبة التفكير في احتمال الهزيمة، هو من لم يخسر حربًا دافع فيها عن بلده قط، لم يخذله سلاحه ولم يخُنه قوسه في النيل من عدو طامع وجبان.

تابع بهدوء رغم غليانه: «إن حدث مكروه أريدك أن تناصر آسينيت وتدعم قضيتها لتكمل مسيرتها، وأن تقف في وجه القادة والكهنة من بعدي لأني أعرف أنهم سيسارعون إلى إعادتها إلى الملك أوسركان، وسيعصون إصرارها على الاستمرار».

لم يتجاهل النخزة المنغرسة في قلبه، نخزة عقيمة مؤلمة خوفًا ورهبة.

عجز محب عن الرد لثوانٍ، فقال أوناس مبتسمًا: «أنت الدليل، ولكن من الواضح تناسيك لتاريخك عمدًا، الكتب لم تذكرني إلا بالميت دون اسم أو هوية».

أبعد محب وجهه عاجزًا عن النظر إليه، لقد أحبه كأخ من دمه وكأنه يعرفه عمره كله، حديثه عن الموت وتسليمه بقدره يهيِّج قلبه ومشاعره.

فقال بأسى: «تناسيتُه وودتُ لو محوتُه من عقلي منذ أول دقيقة أدركتُ فيها أنك المقصود، لأنك صاحب ورفيق سفر ورحلة... أخ للسلاح».

- كل مبادئنا وأحلامنا تنهزم أمام صديق نُكِن له المشاعر، وننجر وراءه رغم إدراكنا لوعورة دربه.

زفر محب: «لم أرك تائهًا أو متخبطًا، بل رجلًا يعرف ما يريده، يحارب من أجل قضية، وتبعتك لأنك تعرف الوفاء وليس المصلحة».

تباطأت ابتسامة إدراك على وجهه وقال: «تبعتَني إلى آخر العالم غير مبالٍ بمصيرك وأمل عودتك إلى زمانك، لأنك في أعماق قلبك تحلم بأن ترى الرجال في زمنك مثلي!».

ورغم موافقته بألف نعم ونعم على قوله غلبته السخرية السوداء فقال: «غروركم يجب أن يُدرَّس في الكتب، لقد أبدعتم في توثيق كل شيءٍ بما يعظِّم مكانتكم، لكن أزلتم غروركم البغيض».

ضحك أوناس بصوت عالٍ وقال: «جاهل! فقد فعلنا هذا بمبالغتنا في البناء، وذِكر تقدمنا وازدهارنا، وحجبنا عنكم الأوقات الصعبة العصية، لا أعتقد أننا وثَّقنا هزائمنا مطلقًا».

لن يحرق عليه التاريخ الحماسي، ربما هو محق، فالتاريخ ذكر بشكل عرضي وقت الهزائم وأرفق الفخر ولذة التضحية والنصر!

قال محب بصوت أجوف: «توقعت أن توصيني بأن أعيدها، لا أن أدفعها إلى مواجهتهم حتى تلاقي مصيرها!».

رفع أوناس يده يتحسس صدره الهائج بالرعب، رعب عاشق، ثقته بها شيء وخوف قلب المحب شيء آخر.

وقال: «حاملة الكتاب ذكرت أنها حربها ونصرها مؤكد، وأنا أعرف جيدًا الملكة التي درَّبتُ والمرأة التي أحببتُ».

مال فم محب بابتسامة جانبية مع ظلمة عينيه، ورغم السخرية فإنها مختلفة هذه المرة، حيث صاحبتها الحسرة والمرارة.

قال: «وهذه أيضًا ثقافة يجب أن تُنشَر وتتوغل في مجتمعنا، ثقتك في المرأة وإعلاؤك منها، بل تأكديك على نصرها وتفوقها دون محاولة عرقلتها والتقليل من شأنها ومقدرتها، وأنا من تساءلتُ كيف أصبح أحفادك بعصري!».

رفع أوناس ذقنه ببطء يتأمل ملامحه ينظر إلى انعكاس الصورة المشوَّهة للفئة التي يشير إليها.

ويقول: «من لا يحترم المرأة التي تمثِّل أمًّا وزوجة، أختًا ورفيقة، محارِبة وملكة شريكة في الأرض والإعمار، ليس حفيدًا لي وليس من دمائنا يا محب».

هدر محب: «نحن أموات، ماتت مشاعرنا وحواسنا ورجولتنا اللعينة، ماتت البذرة الصالحة في بلد عظيم في كل عصر كان».

صحح أوناس بخشونة: «أنتم تتألمون، والألم يستجلب الموت».

أطرق محب يتنفس بهوجاء، وعندما رفع رأسه للرد سحب نفسًا عميقًا حانقًا وقال: «كالموت الذي تسعى إليه دون أدنى مقاومة؟».

- لا أسعى إليه، رغم أني لا أخشاه.

قال محب بوقاحة مهاجمًا بدافع الحرقة والألم: «بل تسعى إليه بخطوات حثيثة لأنك لا تستطيع أخذ قرارك، مشكلتك أنك وقعت تحت ضغط هدفين لا يجتمعان، الحب والواجب».

لم تهتز عضلة في وجه أوناس، وعندما فتح فمه للرد طارت الحروف حين أغرقتهم سهام العدو الطائرة بجنح الليل الأسود!

***

لقد كشفوا موقعهم فوق التبة العالية المواجهة للنيل الجاري.

حرب هوجاء باغتتهم وقد اتضح أن العدو اتبع تكتيك الهجوم المفاجئ بغرض إرباكهم، وما غفلوا عنه أن الفخ قد أُعد سابقًا، وفي لحظات كان الجنود المتيقظون يتدفقون بأسلحتهم من كل جانب.

في الأسفل فرقة صغيرة تُحشَر في الممر الضيق، وأخرى تمتد على الضفاف لتحجب تمركز سوبيك بجنوده المتخفين، وأخرى على قمتَي جبلين مختبئين أيضًا.

هجم العدو بعدد كثيف من قواته يمتطون الأفيال والضباع، هاجموا كسرب جراد ينوي حرث الأخضر واليابس تاركًا الأرض الخضراء متصحرة.

الرماح تُلقى من الجانبين وصوت الحيوانات يزلزل القلوب ويلقي فيها الرعب، اشتعل آخر الليل لتشرق الشمس قبل موعدها، وقد تحولت أرض الموقِعة إلى ضوء شديد الصفار وكأنهم في وضح النهار.

قفز وأمسك قوسه يطلِق السهام ببراعة لم يرَها محب في كل الأفلام التي حكت عن أبطال خارقين للطبيعة، ولم يقرأ ما يضاهيها في صفحة واحدة في التاريخ، رمى ورمى وكأنه يحمل مدفعًا رشاشًا يُفجر الأرض تحت أقدام العدو لا قلوبهم.

قفز بساقيه الطويلتين متحكمًا بجسده بمهارة كالأحجار تحت قدميه، لم يتعثر ولم تزل خطواته، حتى وصل إلى الأرض الصلبة شامخًا مفترسًا وضاريًا كما وصفتْه إيزيس، هجم نحو عدوه وتبعته فرقة من الأشداء.

وجد محب إيزيس تحوم فوق رأسه، وقبل أن يستوعب ما تفعله، ضربت بجناحيها المهيبين في الهواء وحملته بكل بساطة وهبطت به إلى الأرض أمام عجلة أوناس الحربية.

وأمرته بصرامة: «اتبعه».

قفز محب دون كلمة واحدة وأمسك اللجام ناهبًا الأرض دون ذرة تفكير.

وهدر صوت إيزيس مزلزِلًا الجبال حولهم: «رخ-خم...».

لم تحتج إلى قول آخر حين قفزت فرقة من المدفونين تحت الأرض ونبشت في صفوف العدو يضربون بأعين معمية يدفعون راكبي الأفيال إلى طريق واحد لم يجدوا غيره بديلًا.

وأطلق بعض الجنود حيوانات صغيرة احتجزوها في التبت «صناديق»، فاندفعت الأفيال تطلق نهيمًا مجنونًا فضح ذعرها، وجرت إلى الممر الضيق رغم محاولة الراكبين لجمها.

هاجموا ولكن كل محاولاتهم باءت بالفشل الذريع، وغفلوا أنهم من كانوا يُستدرجون إلى الفخ.

احتُجزت الأفيال وتزاحمت مصطدمة ببعضها بعضًا تدعس أجسادها كما راكبيها، وهنا كانت آسينيت أخيرًا كما تمنت أن تكون، تقود حربها الرابحة بنفسها كمحارِبة جبارة وذكية.

صرخ صوتها المزلزل من فوق جوادها: «رخاااا».

تشير بسلاحها إلى الأمام كإشارة لاندفاع الجنود دون تباطؤ، واشتبكوا بحرب حامية مع الناجين البواسل بطريقتهم رغم الجروح التي حملوها، وعلى رأسهم سينغو المبتسم بتشفٍّ وبغض، رغم أشباح الهزيمة وإدراكه لفخ الخديعة.

دارت الحرب المحتدمة وقتل سينغو عددًا لا بأس به كما فعلت آسينيت، وأخيرًا تواجها بصراع دافِعه البغض والانتقام!

تكلم سينغو بنبرة همجية: «لن تربحوا كل شيء، أردتم أرض الإله فلتنعموا بها قليلًا، فسيأتي من بعدي من يحرِّرها منكم، ولكن أنتِ...».

سخرت ترفع سلاحها عاليًا وبدأت الهجوم قائلة: «لك يا صاحب الشفة المتدلية؟!».

- بل للموت يا أميرة المحتلين الأوغاد.

وقفت بهية بعيدًا في مكان آمن نسبيًّا يحيطها عدد من الجنود كما أمرت آسينيت، تكتب وتكتب ما تراه بأنفاس متسارعة ويد ترتعش، ورغم ذعرها المحموم شعرت للحظة بالضحكة المجذوبة عند معايرة آسينيت، من الواضح أن التنمُّر يجري في عروقهم بالفطرة!

احتدت السيوف دون تنازل، لا منهزم ولا منتصر، واشتعلت في الممر الضيق حرب من نوعٍ آخر، حرب البقاء والحق يقابلها الحقد والانتقام.

***

همهم سوبيك: «أخيرًا، أخيرًا».

وقد اندفع الجنود للاشتباك بعد كشفهم موقعه. خرج سوبيك وتمهل قبل أن يندفع وقطع الضفة اللينة بالطمي، حتى لمست أربعته الأرض اليابسة الخضراء رغم صحرائها المترامية. لبرهة أغلق عينيه متنعمًا بما حُرِم منه لسنين، نخر كاشفًا عن فكه المرعب الجاهز للهجوم مع أولاده وجنوده من خلفه، زاحفين متأهبين.

وقف سوبيك بكل بساطة على قدمين اثنتين وكأنه من البشر، وأمر باختراق صفوف العدو، أفكاكهم المميتة لم تفرِّق بين حيوان أو إنسان، يقضمون عنق هذا ويقسمون ذاك، أما الضباع فتحولت إلى خبر كان، ومن بقيَ منهم حيًّا يئن ككلب جريح، وانقلب الجنود من فوقهم وشردوا مختفين في الرمال، ولكن أتباع سوبيك لم يتركوهم، بل طاردوهم إلى النهاية المحتومة، واشتدت النيران أكثر وأكثر وتجمع الطير والوحوش من جديد، تقودهم إيزيس تجمِّعهم وتفرِّقهم، يهاجمون بأمرها آخر صفوف العدو.

وظهر جان أخيرًا فوق ضبعه الضخم يهدر بغضب أحمق يملأ وجهه، يضرب بسيفه ضربات متهورة هوجاء، تحفر بجانب نهر الحياة نهرًا من الدم النازف لأبنائه، وكأن نهر الحياة يُدافع عنه نهر من دم الشهداء!

وكان ظهور «أنوبيس» حتميًّا، وجه ابن آوى يزمجر وجسده البشري يزمهر بالغضب.

هبت إيزيس تدور حوله تُعلن: «شككتُ في ظهورك في الوقت المناسب».

زمهر رغم احترامه وانحنائه للساحرة العظيمة: «ناديتِ ونحن بين يديكِ مطيعون».

لقد أرسل إليها كل من هم تحت إمرته، وسخَّر لها كل من تحت طوعه.

احتل السخط ونظرة مريعة مخيفة وجهها وهدرت مستنكرة: «لن تصطحبهم إلى رحلة الحياة الأخرى».

رد بوجل: «نحن نحترم الموت قبل الحياة».

انقضَّت قاطعة: «الاحترام المبالغ فيه والتمسك بمبادئك وقيودك الأخلاقية تُريح الأوغاد القميئين فيظنون بضعفك، حان وقت تلقينهم الدرس بأقسى الطرق».

رفع أنوبيس خطَّافه وبكل بساطة امتد سحره إلى طول عظيم، وضرب فيلًا ضخمًا قد فلت عقاله وتوجه نحو فرقة من الجنود المشتبكين.

قتله في الحال رغم قوله: «أنتِ السيدة العظيمة أمُّ السحر وملكة الشمس، ولكني حارس الموت إيست ولا أستطيع خيانة الموت».

دارت حول نفسها بعاصفة رفعت معها التراب وخلعت العشب والأشجار على ضفتَي النيل، رفعت يديها بشعاع أزرق يحيطه لون أحمر متوهج من شعاع الشمس الحارقة تحطِّم فرقة كاملة بمعداتها، اقتلعتها من الأرض وطارت أجسادهم إلى الأعلى قبل أن تضربهم مرة واحدة فوق الصخور.

قاصفة: «لا تبدأ بالحديث عن الموت، أنا أعلمُ منكَ به وبقدرته على هزيمة الجميع وإخضاعهم لإرادته».

أحاط الظلام بجسده وازداد وهجه المنبعث ليغرِق مجموعة من الهمج، يفتك بهم دون أن يقطع حواره معها بنبرة خفيفة أقرب للمزاح: «أحاول نصحك عن سوء الانتقام».

ارتفع جسد إيزيس إلى أعلى وأعلى حتى خُيِّل إليه ملامستها السماء، وفردت جناحيها ليحيطا قرص الشمس الذي بزغ ومحا الظلام ونشر نوره.

كررت بتكلُّف خبيث: «سوء الانتقام؟! ولي أنا؟ أنا من أخضعت الانتقام بذاته وأخضعت الخبث بذكائه وهزمته شر هزيمة!».

لم يكن سؤالًا ينتظر إجابة، بل تقريرًا.

رد بصوته المهيب وإيماءات احترام لذكرها ما كان: «ألم نتعهد ألا نتدخل في أمور أحفادنا من جديد؟».

ضحكت بصوت مجلجل وعيناها تلمعان وكأن الشمس التي تكلِّل رأسها الآن سكنت مقلتيها.

قالت ببساطة: «من المضحك أنك تذكِّرني بما أقررتُه أنا وفرضتُه عليكم رغم قدومك ومشاركتك».

هز كتفيه العريضتين.

بدا مهتمًّا رغم قوله القاطع بصوت مدوٍّ: «إلا مصدر الحياة، إلا نهر النيل، وحده القادر على إطلاق استغاثته ونحن ما علينا إلا تلبية النداء».

انتهى وانطلق يشرع خطاف الموت ليحصد كل ما في طريقه كما فعلت إيزيس تمامًا!

وهناك بين جنون الحرب والاشتباكات التي استمرت لساعات فقدوا إحساسهم بها، قفز أوناس وراء محب على العربة، يضرب بجسارة ويحصد أرواح العدو حتى تصادم أخيرًا مع جان-تتديم، وتقابلا رجلًا لرجل، محارب جسور يدافع ضد ملك متهور وطامع، جسداهما الضخمان متساويان تمامًا، ولكن مالك الحق يملك جرأة تهزم كل مهارة. لم يتبادلا الحديث، فوقع السيوف والغضب كان له الصدى الأقوى.

قفز أوناس عن العربة ولم يملك جان-تتديم حرية الارتجال حين فوجئ بضربة من رمح محب، تبعها هبوط سيف أوناس على عنق ضبعه يطيِّر رأسه، فكان له الوقع الأكبر لإجباره على الهبوط. هدر جان

وقفز ودار يرفع سيفه واشتبك بقتال ضارٍ علم منه أوناس بسهولة أنه يملك قوة ومهارة تفوق سينغو، وإن لم يجد في ضربات سينغو التكتيكية ثغرة. التقط بسهولة نقطة ضعف جان، وهي الخوف على حياته!

تعجب كيف لملك متهور جمع كل رعاع القبائل وطمع في إكمال مسيرة أبيه وأجداده علَّهُ ينجح بما فشلوا فيه -أن يكون جبانًا حريصًا على حياته!

ولكن لطالما عرف أن الجبناء أكثر الناس وقاحة وخسة، تقودهم المطامع وفلسفتهم الخاصة إلى دفع الشجعان إلى الحروب ليكسبوها وينسبوها إلى أنفسهم.

اتحدا، صرخا، واشتعل تبارزهما المهلِك، من يراهما يظن ألَّا رابح أبدًا. وجد أوناس ثغرته ووجَّه ضربته الأخيرة عندما انحنى على الأرض متدحرجًا حتى أصبح تحت جان، ومرَّر سيفه الحاد يقطع بخفة ودقة شرايين كاحليه قاصدًا جرحه وشله وليس موته، لقد وعده وهو لا يتخلى عن وعد يقطعه أبدًا.

زمجر جان وبدأ يضرب بسيفه بعشوائية حتى انهار تمامًا راكعًا. استقام أوناس بجسده مستويًا على قدميه ينظر إلى ملك الرعاع المتبجحين بعلوٍّ وشموخ، صدره يلهث بجنون، فمه مضموم وأسنانه تصطك من شدة الانفعال.

يستمع لصرخة جان الذي يأمره بكل تبجح وكبرياء: «اقتل، اقتلني».

لوى عنقه رافضًا، ولم يحتج إلى إعادة وعده بالأسر في بلده.

رفع جان سيفه ينوي قطع عنقه بنفسه، ولكن أوناس وقف كاللقمة في الحلق المعذَّب وأطاح بسيفه من يده، صرخ جان حتى شقَّ حلقه، وأشار أوناس نحو سوبيك الذي وثب بخطوة واحدة يقطع المسافة، وهبط بمخلبه على ظهر جان فمنحه علامة دامية، ومنح إشارة لتمساحين ليحيطا به ويأسراه حتى لا يتجرأ قومه ويفكروا في مساعدته.

قال أوناس قبل أن يقفز إلى عجلته: «سوبيك، لقد وعدتُ الملك أن يعود إلى بلاده مع جيشنا الذي سيتكرم ويضم مملكته كلها إلى أرضنا، فيعلنها أرضًا كيميتية تحت راية أوسركان المعظَّم و...».

صمت وكشر مضيفًا بكيد: «وملكتنا آسينيت الفاتنة ونسلها خالص الدماء الكيميتية من بعدها».

ارتج جان بقهر والظلام يعمي عينيه، لقد انتهى كل شيء بعد أن كان النصر حليفه، وحلمه بأرض الإله كان وعدًا محققًا.

قال: «ربما انهزمتُ، ولكن نسلي سيعود ويطالب بالأرض، سيحصل عليها بالحق أو الزيف، نسلي سيعود يا أوناس وسيملأ الأرض بصراخه، سيعيدها بالمكر كان أم بالكذب والتدليس».

احتلت السخرية وجه محب وهدر: «في هذه أنت محق، ما زال نسلك يصرخ ويدب بقدميه كالأطفال، بالحيلة الهزيلة والاستعطاف يستهدف عالمًا مريضًا لنُصرته ليحتل الأرض الطيبة، ولكننا لهم بالمرصاد كما كان أجدادي من قبل أن يكتب التاريخ صفحاته الأولى».

تحولت بهية بعد يأسها أن ترى خطة حصارهم تُكلَّل بالنجاح، ما زالوا مشتبكين ولم تُعلَن هزيمة أي الفرقتين المحشورتين في الممر الضيق. تراجع جنود آسينيت بينما تدفق الأوغاد تحت راية سينغو الذي لم يتعب كما لم تتراجع آسينيت.

وجدت نفسها ترمي الكتاب والقلم وتمسك الشيء الوحيد الذي يفهم العدو لغته، السلاح. أمرت حراسها بالانضمام ونُصرة إخوانهم الشجعان ولم يترددوا للحظة.

رفعت بصرها كما يديها، وأخذ لسانها يكرر التعاويذ التي حفظتْها، وانطلق طائر العُقاب متوهجًا جامحًا من شعاع قلبها قبل أصابعها المتحكمة يلقي بناره على كل ما يقابله، وإن واجهت صعوبة في توجيه ناره نحو سينغو لتضره دون المساس بآسينيت، فأخذت تنال من الجنود وكل حيوان تبقى من ضواريهم.

صرخت بهية صرخة مزلزلة باسم آسينيت التي رأتها تسقط عن صهوة جوادها، وطار العقاب فوق رأسها حائمًا دون أن يختفي هذه المرة كما يُفترض ولم ينقطع سحرها. صرختها ترافقت مع رمح سينغو يوجَّه إلى قلبها.

رعبها لم يَطُل، إذ ظهر أوناس أخيرًا وقفز بعلو رهيب قبل أن يهبط ويسحب سينغو معه، حين صارع محب للوصول إلى آسينيت يساعدها كما فعلت بهية موجِّهة طائر العقاب الناري لتحمي محب وآسينيت معًا، فتشعل النار في كل من يحاول التقرب منهما، سحبها باتجاه رجالها وساعدها لالتقاط أنفاسها، والجبَّارة لم تأخذ دقيقة! وعادت تقف على قدميها تخطف سلاحًا من يد أحد الكهنة المشاركين معهم، وأسرعت لتحارب من جديد.

سأل محب بهية من بين أنفاسه: «هل أنتِ بخير؟!».

وجَّهت بهية رأسها نحوه، فانطلق العقاب نحو جسد محب قاصدًا الهجوم.

توسعت عيناه وصرخ بضيق: «ما مشكلتك تحديدًا؟ حتى سحرك يتمنى الفتك بي؟».

تحكمت بالطائر بسرعة ووجَّهته نحو جندي متوحش.

ثم قالت من بين أنفاسها أغبى تبرير يسمعه: «قالت إيزيس إن سحري يحركه قلبي، أي إن العقاب يقرأ مشاعري وينفِّذها، لذا أنا بريئة».

أقسم أن هذه الدوامة التي وقعا بها لم تصبه بالذهول مثلما فعل ردها الغبي، مشاعرها ترغب في قتله فعلًا! ولكن لماذا العجب إن كان هو الآخر يرغب في هذا؟!

ضغط وضغط على أسنانه وابيضت مفاصل يديه، ونفرت عروق الغضب في سواعده.

رسمت على وجهها تعبيرًا غبيًّا قبل أن تهرب من أمامه وتمتمت: «أنا بخير، شكرًا للسؤال».

ابتسم قلبه من بين الغضب قال: «وهذا كل ما يهم فؤادي يا ساحرة العقاب».

وضعها فرارها أمام عدو يائس صَوَّب حربته إلى صدرها، هاج صراخ محب كجسده الطائر ليفديها، فازداد جنون بهية، ليس خوفًا على حياتها وإنما ذعرًا على محب الذي نالت منه الحربة، وسقط كما سقطت بجانبه جثة المعتدي الذي أطاح منجل محب الحاد بعنقه.

أنفاسه اللاهثة لم تحجب مرحه، إذ قال: «أخذتُ بثأركِ قبل أن يبرد أخيرًا».

سقطت على ركبتيها باكية تضغط بكفيها المخضبتين بدمائه تكتم جرحه.

قالت: «ماذا فعلت؟!».

– ما رغبت فيه بكل جوارحي ودمي الحامي منذ أن علمت أن هناك قدرًا وضع إصبعًا عليكِ.

رمشت تبعِد دموعها دون نجاح، وصوت أوناس المشتبك مع سينغو يزلزل الأبدان خوفًا على صديق الرحلة ودليل الفلاح.

همست بهية في لحظة ضعف: «لم أرِد التضحية بك، رجاءً لا تكن حلمًا رائعًا يودعني ككل أحلامي الموءودة».

ضحك ومازحها: «هذا أمل يا با-هية ووعد سألزمكِ به».

رفرفة جناحَي إيزيس دفعتها إلى رفع رأسها وكأنها تستعطفها وتتوسل إليها نجاته.

وجاء أمر إيزيس صارمًا: «افتحي قلبكِ، استبصري بجوارحكِ، سحركِ سيحميه».

أمسك محب يدها يضغط بقوة وهمس بأنفاس متحشرجة: «يكفيني لهفة عينيكِ الآن، إن مت سأكون راضيًا».

كزَّت على أسنانها وأتحفته برد لاذع: «كان يجب أن تكون ممثلًا دراميًّا محترفًا، لن تموت يا محب، أتسمع؟ فلا تعِش الدور».

– منكِ لله، طعنتِ الرومانسية في مقتل.

اشتعلت عيناها وطاف ألف لون فيهما، فمها يردد وقلبها ينير لينفِّذ، سقط عُقابها فوق جرح صدره بودٍّ ليس مهاجمًا، يشفي ولا يقتل، بل يجدد الأمل، وهرب شبح الموت وطاف وهج الحياة.

ابتسمت إيزيس بفخر ملقية خطابها لأبونيس: «بناتي المنقذات أنقصن عدد الأرواح في قائمتك».

صاح أبونيس بصوت مهيب رغم مزحته: «لم يكن الدليل فيها».

هدرت بهية تدفعه ليستقيم عن حجرها: «فِز ولا تستحلِ النومة، أرأيت يا عاشق الدراما؟ لم تحن ساعتك أصلًا».

تأوه معتدلًا مستسلمًا يكتم بقايا جرحه بكفه لاعنًا حظه الأسود الذي أوقعه في كتلة السماجة والبرود هذه.

ربما السحر أوقف النزيف، ولكنه لن يطبب الجروح المميتة المتربصة بمصائرنا.

***

تعبا حقًّا ونال منهما التباري، فألقيا سلاحيهما وتواجها بالأيدي بصراع انتقامي. تبادلا الركلات والقبضات حتى اختفت معالم وجهيهما، حاما حول بعضهما بعضًا منقطعي الأنفاس، حتى إن القتال حولهما انحصر تمامًا وكأن الجميع يراقب لمن سيُحسَم الصراع.

رفع سينغو قبضته والعروق تنفر من عنقه المفتوح وقال: «سنعود، لن نتركها لكم يومًا، وسنثبت أنها كانت وستكون لنا».

نظر أوناس إلى محب نظرة العارف الساخر، متذكرًا حكايات محب عن قوم من الزنوج يدَّعون ملكًا لأجداد هُزموا بكل صورة وشكل على مر العصور.

قال محب بصوت خطير هازئ رغم أنين جرحه: «الآن علمت من أين جاء الأفروسنتريك اللعينون بتلك الادعاءات الغبية. ورثوا الأحلام الحمقاء. أخبرني، هل هذه القصص التي تلقونها على مسامع الأطفال ليلًا؟ عرقنا سيسود، مياهنا ستعود إلينا، سنحجزها عنكم ونعطِّشكم وندفعكم لتوسل قطرة ماء؟»

وقفت بهية بجانب محب وأوناس واصطفت جانبها آسينيت وظللت عليهم إيزيس بحمايتها.

وقالت بقوة وطائر العُقاب يرفرف بلون أحمر زاهٍ وأبيض وأسود على رأس العدو: «نهر الجنة حق ووعد، وسيبقى في مصر إلى يوم الحق مهما ابتدعتم من مؤامرات».

لم يفهم سينغو لسانها، لكنه في لحظة شعر بالاهتزاز والرهبة، وبخاصة أنهم شكَّلوا طوقًا مترابطًا لا تحله المؤامرات، وبطريقةٍ ما اصطف جنودهم خلفهم، أما جنوده فحُشروا في الممر عاجزين عن التراجع وبقي أوناس وهو في المنتصف.

وقع بصره بغتة على خنجر لامع وقد دُفن في التراب في أثناء صراعهما، ثم نظر إلى آسينيت بحقد لاهب ووثب على يديه وخطف الخنجر متوجهًا في لمح البصر.

قبل تداركها لوثبته نحو أوناس المجرد الآن من أي سلاح عاري الصدر وبيدين فارغتين هدر بحقد: «ستحصلين على التاج ويؤخذ قلبك، هذا عدل وثمن ضئيل أمام أرض الإله».

حُبست أنفاس آسينيت حتى عن الصرخة، وتدخُّل إيزيس لم يكن سريعًا بما يكفي ولا حتى اندفاع محب المحموم!

آخر من توقعوا أن يهبَّ لنجدته هو سوبيك، ظهر من اللامكان وألقى بنفسه وقلبه لا حراشفه أمام خنجر سينغو، وأصابته الضربة الغادرة مباشرةً، وكأنه يسعى إلى الموت كما تحرر اليوم أخيرًا من سجن لعنته ولمس الأرض الحرة، وانهار التمساح الحكيم، المتوحش الشرير، الطيب الرحيم، واختفى العقاب أخيرًا قهرًا.

وضعت بهية يديها على فمها وانهارت دموعها التي لم تجف بعد، حتى السحر لن يفلح هذه المرة.

هزت إيزيس بنحيبها المتفجع أشجار الأرض قبل أحجارها، وهاج النيل بجنون متدفقًا بفيضان عجيب وعظيم التهم الأجساد وطهَّر الأرض من الرعاع.

هرع كلٌّ من محب وآسينيت إلى التمساح الملعون، أما أوناس فوثب وثبته الأخيرة وبيده العارية نزع حنجرة سينغو من عنقه. وضع سينغو يديه الاثنتين على نحره وعيناه جاحظتان وفمه يخرخر، جسده دار من حلاوة الروح ثم سقط أخيرًا ميتًا تحت قدميه.

أحاط الجميع بجسد سوبيك ونقلتهم إيزيس في لمح البصر فوق قمة أحد الجبلين، واندفع إيزي ليردم الممر مع جنوده ويقضي على آخر جندي وفيل وضبع حي منهم.

جلست آسينيت وأخذت رأس سوبيك فوق صدرها، مررت يدًا عطوفة على فكه المفترس، بينما تربت بهية على حراشفه باكية، فقد وقعت في حب وحش مخيف!

لم تترك عينا سوبيك وجه إيزيس الجميل.

وقال بصوته الفخيم المتحشرج: «عشت لآلاف السنين، رأيت من الأيام الصالح والطالح، لكني لم أحظَ بلحظة سعادة قط كهذه وأنا أنظر إليكِ وأنتِ آخر وجه ستغلق عليه روحي قبل عينيَّ».

طوت إيزيس جناحيها خلفها وهبطت تلامس الأرض بركبتيها جانبه، بفخامتها وعظمتها تكلمت مبتسمة دون وجه زائف.

قالت: «تتحدث بلسان العاشقين».

- ومن يقاوم عشقكِ يا سيدة السحر؟

أطرقت إيزيس وشعور يتعاظم داخلها بالتعاطف والغفران، وحام فوق رؤوسهم أنوبيس بمفتاح عنخ وخطافه، لم يتحدث، بل احترم ساعة الرحيل.

رفعت إيزيس عينيها بعد فترة صمت تخللها بكاء بهية العاصف، وكأنها تنعى عزيزًا غاليًا، حتى إن محب أمسك كفها يضغط عليها بحنان ومؤازرة، ولم تهب وتمنعه، فبعد ما خاضته كانت تحتاج إليه وبشدة لتشعر بالاطمئنان.

بدأت إيزيس تترنم بصوت عذب رقيق بنغمات تفجُّعها، فهذا الشيء الوحيد الذي تستطيع منحه ليرافقه في رحلته الأخيرة.

زفر سوبيك مرتاحًا وأسبل الأحراش فوق جفنيه وهدأت نيرانهما، لقد تحرر من حياة علق في بؤسها وألمها وتحول إلى جبار نذير شر، علَّه بقضائه على الملعونين تهدأ آلامه، ولم تختفِ آلامه إلا عندما منح العاشقين فرصة حُرِمَ منها.

فتح أحراشه من جديد يقلِّب عينيه اللتين بدأت تغرب منهما الحياة بوجه أوناس وآسينيت.

وقال: «لا تهدرا تضحيتي هباءً، يا محارب، لا تطلق سراح قلبها، أمسكه بكل ما أوتيت من قوة. وأنتِ أخبري آسري-نارتي أنني نجحت في حماية قلب جوهرتها المكنونة ولم أحوِّلها إلى عاشقة متفجعة تحيا

برمادها».

هزت رأسها بجنون والحزن وألم الفقد يشقان قلبها بجرح عميق.

قالت: «سأخبرها، سأخبرها أن نهرنا لم يحمل الشرور يومًا، بل منح الحياة كما علمتني، لقد عرفتْك، هي الوحيدة التي عرفتْك».

تقسم إنها رأت الفك القاسي يبتسم، والعينان اللتان انطفأتا هلَّلتا لإزاحة الذنب عنه أخيرًا.

مالت وشيء داخلها دفعها لتقبِّل دمعته العالقة بعمق، وعندما رفعت رأسها اختفت دمعة الندم، وأخيرًا منحته الراحة الأبدية! وأغلقت الأحراش إلى الأبد تمنح قلوبهم أحاسيس من نوع آخر.

سكتت إيزيس عن تفجُّعها ونظرت إلى أنوبيس وأمرته بنبرة خشنة متحشرجة: «خذه إلى أسفل النهر، اصطحبه في رحلته ولا تتركه، أرشده ليعبر إلى حقول القمح، لقد قدَّم التضحية الكبرى وخلَّد العشق الذي بدأتُه أنا وجعل أسطورته ممكنة».

ابتسم وجه ابن آوي أخيرًا وقد أعلن نيله من إيزيس في جدالهما السابق، يعرفها ويحفظها، وجه متلاعب وظاهر، قاسٍ ساخر، وقلب لم يعرف يومًا إلا عظمة السماح ومنح العِبر لرعاياها، تنشر الحب والسلام اللذين يجلبان الرخاء والنماء.

اقترب أنوبيس من جسد سوبيك وهمس بتعاويذ لتظهر سحابة بيضاء نقية، ومد يده وكأنه يمسك بيد شخص، ثم دار حول نفسه وهبط مختفيًا بين صخور الجبال.

أمر أوناس قادته والرهبان الذين تجمعوا: «سيعود جسده إلى أون ليكرَّم كالعظماء، وسيُدفَن بكرامةِ بطل منتصر».

أحنى الجميع رؤوسهم دون جدال، النصر لا يصنعه العائدون من الحروب برايات النصر فقط، بل من ضحوا بأرواحهم ليُخلِّدهم التاريخ في صفحاته إلى أبد الآبدين، علَّ تضحيتهم تحثُّ ذريتهم على القتال والدفاع عن كل ذرة تراب في أرضهم حتى آخر قطرة من دمائهم.

***

شهور طويلة مضت لم يتراجع فيها أوناس عن نيته، لاحق الناجين ودخل القرن الإفريقي دخول الفاتحين، وفتح كل قرية وأرض على ضفاف النيل، حتى وصل إلى منبعه وأعلن السيادة المصرية عليه.

لم يتخلَّ عن إيزي وقادته وجنده المخلصين، أما آسينيت فوضعها أميرة تحمل راية والدها وتزرع في كل بقعة يفتحونها أعلام كيميت لتعلنها سيادة مصرية خالصة.

وبالطبع لم تترك بهية حاملة الكتاب جانب آسينيت وإيزيس، ولم يترك محب الدليل جانب أوناس كمرشده وناصحه.

وعادوا بعد شهور يحملون النصر إلى مكان البداية والأرض التي ستظل إلى النهاية بسحرها المغري، دخلوا بمهابة وشموخ واستقبلهم أوسركان استقبالًا يليق بالمنتصرين، يعرفون بالدليل أنه لا توجد أرض

أخرى تضاهيها في جمالها بجنوبها وشمالها، بزرعها وخضارها وصحرائها، كل بقعة فيها تغوي وتحكي سرًّا لا يفهمه إلا العاشقون المخلصون من أبنائها.

وبعد زوال الخطر بدأ السؤال يطفو بقلق، هل سيعود كل شيء كما كان عليه سابقًا؟ هل سيأمر الملك بوجوب افتراقهما؟ والسؤال الأكثر خطورة عاد يطرح نفسه وبقوة، هل ستخسر حبها في أرض الحب وتعيش بلا قلب يعشق رغم وجود سيدة العشق التي تدعمها؟

وقف أوسركان عن عرشه يستقبل ابنته بفخر شديد وزهو، تقدمت حتى ركعت بإجلال عند قدميه فانحنى أوسركان ورفع ابنته يدفعها إلى الشموخ برأسها والتخلي عن القواعد الملكية، ضمها إليه بقوة ثم أبعدها لينظر إلى وجهها الجميل قبل أن ينطق بكلمة عصفت بالمتبقي منها.

قال: «أثبتِّ أنكِ ملكة قوية ومحارِبة جسورة وحكيمة، قادرة على اعتلاء عرش بلادك، وحان وقت تنصيبك كملكة بالقانون بعدي، لقد اخترتُ لكِ زوجًا يليق بملكة، وليصبح النصر نصرين ستتزوجين بنائب الملك».

انتفضت آسينيت وهبَّت عيناها بلهيب أزرق عنيف قاتم، ونظرت إلى أوناس، انتهى كل شيء بالمرارة وقد وُضعت كلمة النهاية، كان حراس الملك المخلصون يحيطون به من كل جانب وكأنهم يأسرونه، وعد والدها بتركه حتى النصر، وقد انتهت الحرب وعاد حقده وغضبه وإحساس الخيانة طفا على السطح.

***

«روتي»

الوهج الأخير

ضرب الهواء العليل صفحة النيل المحرَّر من كل جانب، وقفت إيزيس بكامل بهائها وسحرها الآسر، بجانبها أوسركان بلا تكلف بمظهره الملكي، فهي الأم والكل بين يديها خاضع خضوع المحبة والتقدير ورفعة المكانة لا الهوان والضعف.

الحراس بردائهم الذهبي وبأقنعة وجه «روتي» يحيطون بهما على صفين، بينما آسري-نارتي وقفت بعيدًا بخطوتين، يداها معقودتان على بطنها، رأسها محني احترامًا، ووجه جامد بلا مشاعر، وعيناها غائرتان بحزنها تحدق إلى مكان سوبيك القديم، لقد أحضروا جسده وحُنِّط بواسطة الكهنة ثم دفنوه في مقبرة الملوك بمراسم مهيبة.

الوقت مر ولكن الحزن العظيم لم يمر، وبخاصة بعد أن وصلت إليها رسالة من آسينيت، مولاتها وربيبتها الحبيبة.

سمعت الملك يتحدث بهدوء: «انتظرتك أن تأتي منذ ليالي لتؤكدي دعمك لهما، ولكن من الواضح أن حكمتك واحترامك للتاج غلبا تعاطفك».

تفحصت إيزيس وجهه لدقائق طويلة، تدب بصولجانها الأرض بتوالٍ وبرود.

هست بقسوة: «من الواضح أنك نسيت من أنا يا أوسر».

يعرف من هي جيدًا، فسيرتها يُستَمد منها إيمان يلهم الملوك قبل العوام، تملك الكثير من العِبر والمعاني لامرأة مخلصة ضحت من أجل الحب، لكنها أيضًا مصدر إلهام بقوتها وحماية مُلك ابنها وذكائها وحكمتها في استرداده.

أحنى أوسركان رأسه بمهابة معتذرًا وقال: «طلبتِ مقابلتي؟».

صححت: «أمرتُ».

ابتسم بلا غضب وقال: «ونحن لكِ ملبون».

ترفعت قائلة: «ابنتي لا تُهان بالحبس».

دافع بحكمة: «ما كنت لأعرِّضها للنفي من جديد، آسينيت أظهرت بما لا يقبل الشك أنها قادرة على اتخاذ قراراتها بحكمة موازِنة بين القلب والعقل».

– أعرف، وكشفتُ خططك منذ أول لحظة نطقتَ بحُكمك، ولكن لا بد من سَن قانون رادع لكل من تُسوِّل له نفسه بوضع حفيداتي خلف الجدران أو تحديد خطواتهن وحظر أحلامهن.

ساد صمت مهيب تخلله لمحة تفكير عميق على وجه أوسركان، فهم لم يهينوا الفتيات يومًا، هناك إيمان قديم قدم الأزل برفعة ومكانة المرأة، من الواضح أن ما فعله مع آسينيت أصبغ ندبة عار على قوانينه، وهذا ما دفع إيزيس لهذا الطلب خشية أن يقلِّده الكثيرون!

قال: «سيكون قانونًا غير قابل للتفاوض».

أسبلت أهدابها ونهرته بخشونة: «لا تشك في قرارك للحظة، جاء أوناس بما وعدك وأثبت أنه محارب جبار ويدك العُليا وسلاحك الباتر لأي معتدٍ أو طامع يفكر في زعزعة البلاد، وكرجل هو حسن الخلق وعاشق مخلص لم تَقُده الأحلام إلى المكانة الرفيعة، بل فقط الحب».

ومن سيدافع مثلها عن الحب المجرد؟ الحب من أجل الحب ذاته!

ابتسم وجه أوسر وسأل بخبث: «أخبريني يا سيدة العشق وملهمة العشاق، هل الحب قرار أم قدر؟».

لمعت عيناها بنور الشمس وغشيت بندى كقطرات المطر تشيح بوجهها إلى معبد الحبيب أوزوريس.

أجابت: «قدر لا يمكن تغييره، لغز للقلوب لا يمكن حله، عين تعمى بصيرتها يقودها عقل يُسلِّم مفاتيحه وينفي حكمته إلى أقاصي الأرض».

تنهدت بلوعة ثم عادت إليه ومنحته ابتسامتها النادرة قائلة: «وقرار إجباري يلزِمه العقل على القلب ليُغالب بحكمته سلطان الفؤاد ويُرى بعين البصيرة، للحب أشكال متعددة، أروعها الذي يسلبك كل شيء، ويقودك إلى مغامرة رغم غزو الألم لروحك، وأنتَ من تُقرر أيهم يمكنك احتماله».

أطرق أوسركان برأسه، وجهه جامد خالٍ من أي شعور إنساني.

سأل بنبرة قاتمة: «أخبريني بلا حماية، أيهم يقود ابنتي؟».

صمت ثقيل أرخى ستائره بينهما، ثم قالت: «إن سألتَني يوم وصولي لأخبرتك أنها معمية بالعشق، فتاة فقدت حكمتها ويقودها قلبها إلى بئر مظلمة ملأى بالأفاعي السامة».

سكتت وأخذت نفسًا عميقًا وعيناها تعودان إلى مراقبة قبر الحبيب.

ثم تابعت: «لكن الآن أخبرك بصراحة ووضوح أن كليهما يقودان آسينيت، فقد وجدتْ بطريقة ما حلًّا لمعضلتها الصعبة، وازنتْ بين القدر والقرار، لهذا عزمتُ على مناصرتها فلا خوف عليها».

أطرق أوسركان بوجه أكثر قتامة، يزفر نارًا، يصارع بين الواجب وبين حب الأب الذي لا يريد إلا سعادة أبنائه.

وكأنها فهمت تفكيره، فقالت بحكمة: «نحن ندعم قرارات أبنائنا، نرشدهم وندفعهم ليكونوا أفضل منا ومستقلين عنا، ولكننا نكذب لأننا لا نريد تحريرهم من أقفاص أسرهم أبدًا ليحققوا أحلامنا نحن ويمشوا على نهجنا. ببساطة حرية الأبناء كاذبة، لأننا لن نكون مستعدين مطلقًا لإطلاق سراحهم».

أبعد عينيه عن نظرات عينيها الكاشفة ودافع بارتباك: «هذا غير صحيح، سأغيِّر القوانين لأجعلها ملكة تحكم وأنا على قيد الحياة».

هاجمته ببرود: «هذه الكذبة التي قصدتُها، ترغب في مساومتها بمُلك أوضحتْ تضحيتها به قبلًا، والآن ترغب في الضغط عليها بعد تفهمك أن اهتزاز الحاكم يطمِّع الرعاع في الأرض».

انقبضت يدا أوسركان وتقلصت ملامح وجهه وأجاب بشراسة: «لم يعرف الخوف إلى قلبي طريقًا، لم أخَف من أي شيء في حياتي إلا بعد أن حملتها بين ذراعيَّ».

تبسمت وتهدجت نبرتها: «هذا ما يفعله بنا الأبناء حين نحملهم على صدورنا أول مرة، يزرعون بنا رُعبًا لا يهدأ أبدًا».

ارتخت ملامح أوسركان قليلًا، فصراعه على وشك الانتهاء لصالح الأب لا الحاكم.

قال: «أردتُ لها الأفضل، أن تبني منزلًا قويًّا».

قصفته ببرود: «وكيف للبناء أن يشيَّد إن كان الأساس معطوبًا؟! كيف ستمنح الأم الحب والرعاية وقلبها مفطور؟!».

أطرق من جديد بتفكير عميق ولم يرُد.

فنصحته بحكمة هادئة: «أنهِ المعضلة دون أن تهدم بناءك، فرض سيطرتك لم يجلب إلا الوبال، اكسب طفلك العنيد بالحب وادعم قراره ليتبع الطريق الصحيح، ولا ضير من تقويم طريقهما معًا ما دمتَ تعرف في قرارة نفسك أنها لم تختر رجلًا خسيسًا».

رفع وجهه وابتسم بتوسُّع وأعلن بغموض: «هذا ما سأفعله، لكن احتجت إلى أن أسمع منك تأكيدًا أني على صواب».

مالت بجانب رأسها تقديرًا وعيناها تبتسمان.

أشارت إلى معبد تفجُّعها بحنين وأنين قائلة: «أحب أن أرى الفرح يزوره، أن يُزرَع بزهور الحب والسعادة بعد أن صحرته دموعي».

قال بعطف: «لهذا أكدتُ على الكهنة أن يتم الأمر هنا وليس في مدينة أون كما يُفترَض».

تهلل وجهها بالسعادة، سعادة أمٍّ سيهدأ قلب ابنتها أخيرًا.

التفتت نحو آسري-نارتي الشاردة الحزينة ونبَّهته: «أرى أن هذا الوقت المناسب أيضًا لتقديرها».

هز رأسه موافقًا وأشار لآسري التي اقتربت بمشية هادئة متوازنة.

تقدم إلى جانب الملك القائد إيزي يحمل بين يديه وسادة صغيرة من المخمل الأبيض يستقر فوقها وسام الذبابة.

قال: «اقتربي أكثر ست-آسري».

الدهشة كللت محياها وظهرت خطوط الزمن رائعة الحسن تزين وجهها بحنان الجدات. انحنت بجسدها قليلًا ويداها ما زالتا متشابكتين، وأخذت إيزيس بنفسها الوسام وعلَّقته على صدرها.

ارتعشت أنفاسها وملأت الدموع عينيها.

تمتمت بوقار: «هذا شرف عظيم، لكني لستُ جنديًّا».

قال أوسركان بصوت مهيب: «بل كنتِ وما زلتِ الجندي المخلص الأمين، ناصحة جوهرتي المصانة بجهدك، ولكني أمنحك الوسام لأنكِ استحققتِه لمساعدتك في جمع تفرقنا وتوحيد صفوفنا لمواجهة عدونا، وحميتِ المملكة من خطر الأحقاد، ذكرتِهم أننا بنيان واحد في وجه جميع المدنسين الطامعين، لقد عرف العدو أن أبناء هذا البلد سيبقون يدًا واحدة تضرب عند الخطر، وسيظلون شوكة في حلق كل من يأخذه غروه طامعًا في تاريخنا العظيم».

أحنت وجهها من جديد ورددت باختناق: «شرف عظيم، لكني لم أطمع إلا في رؤية شعبنا يدًا واحدة، وأن يبقى مصدر الحياة حرًّا من الطامعين».

ربتت إيزيس على كتفها وتبادلت نظرة مع الملك وقالت: «لم يجد الملك أفضل منكِ لتكوني حاكمة «سونو»، ورغبته وافقت رغبتي، سأكون مطمئنة بعد رحيلي أنكِ حارسة منزلي وحامية بيت أوزوريس».

وأشارت إلى الجزيرة بعينيها.

لم تتعجب من الأمر، يبدو أن الملك منحها هذا التكريم كهدية لإيزيس أيضًا، فهي من جعلتْه ممكنًا في الماضي وأقرت تولي المرأة لمكانة عُليا، في الواقع لم تكن المرأة الأولى التي تحكم «سونو»، بل الثانية، فالأولى قد تولتها إيزيس بنفسها في زمانها.

همهمت بسعادة ولكن انتابها خوف عظيم من مسؤولية كهذه.

ارتفعت إيزيس إلى الأعلى دون فرد جناحيها، وشملت المكان بنظرة أخيرة مودِّعة.

اقترب موعد الرحيل، فهمست بشجن: «أتمنى أن تُعيديها إلى صورتها الأولى، لقد كانت جنة ليس لها مثيل أقامها أوزوريس من أجلي».

سألت آسري رغم معرفتها السابقة: «ما الذي حوَّلها إلى صحراء جدباء؟».

ارتفعت أكثر وقالت بنبرة تحرق الصدر قبل أن تختفي تمامًا: «ملَّحتْها دموعي ولعنها فؤادي المكلوم وأحرقت ترانيم تفجُّعي ما تبقى من خضارها».

فكر أوسركان بصمت وقد رحل عنه شبح التردد: (لن أندم على ما فعلت، فمن الظلم أن يرى الآباء انتهاء أبنائهم ببطء).

***

أصدر الملك قرارًا بحبسها سرًّا، وأعلن أن أميرته المنتصرة العائدة من حرب توسيع مُلكِهم والقضاء على شوك أعدائهم المزعج تحتاج إلى الراحة! كانت تدور في أرجاء الغرفة كنمرة شرسة هائجة، تغرس أصابعها في شعرها الغجري وقد تخلت عن زينتها المعتادة.

تهدر بغيظ من بين أسنانها المصطكة: «لا أصدق أنه فعلها بي من جديد!».

امتعضت بهية ورمتها بنظرة فارغة مستفزة قبل أن تدفن رأسها في مذكِّرتها تكتب وتكتب ما استطاعت تذكره، كما هو الحال منذ أُجبرت على مرافقة آسينيت في محبسها لأسبوع مضى.

فاقتربت آسينيت وجذبتها من يديها مهاجِمة: «حدِّثيني، قولي شيئًا، أعطيني نصيحة».

هزت كتفيها بسماجة وقالت: «أنا حاملة الكتاب ولستُ ناصحة، عادةً أنتِ من تتشدق بالجمل الحكيمة منذ أن تقابلنا».

زمجرت قاصفة: «لا عجب الآن من رغبة محب في دق عنقك».

رفعت كتفيها من جديد باستفزاز، وهدأت آسينيت فجأة كما بدأت ثورتها وقد كان هذا حالها مؤخرًا.

همست باختناق: «لا أستطيع البقاء هنا، لم أعد أحتمل الأسر المرفَّه، لا يليق بي الأسر».

مطت بهية شفتيها بكل برود وكأنها تقصد جلطتها حين قالت: «حسنًا اهربي، لا أظن أن هناك حارسًا يستطيع منعك».

تجاهلت آسينيت استفزازها وفكرت أنها لم تقاوم أباها حين حجزها في غرفة نفيها من جديد، ليس لعجزها أو استسلامها، وإنما...

- لا أستطيع، لا أستطيع، إن قاومتُ سيقتله، نفس الحيرة والحسرة القديمة، فأسري من اختياري، قبلته كل مرة بإرادتي.

- إن أراد قتله لفعلها منذ زمن، ولكننا لم نسمع خبره حتى الآن.

ضغطت آسينيت على ضروسها وهذه المرة لم تقاوم الصراخ: «كم أتمنى أن أسمع خبرك أنتِ يا با-هية بعد أن أخنقك بيدي!».

رفعت بهية حاجبيها وقالت بحيرة أكثر استفزازًا: «ولماذا تسمعين خبري وأنتِ من قتلتِني؟ هل حُبًّا في الأخبار الحزينة مثلًا؟!».

زمجرت بشراسة مقاوِمة ألا تقتلها، فعلًا محب لديه حق، هذا الكائن مستفز لأبعد صورة، توقظ رغبة وحشية في نهش حنجرتها دون ندم.

ابتعدت عنها حتى لا تفقد أعصابها أكثر، هدأت كما على الملكة أن تفعل، وجذبت بهية مذكرتها العزيزة وغرقت بين صفحاتها، فالكتابة تُهدئ روعها وتُسكن آلامها، وتمحو هواجسها حين تقرأ مشاعرها بين السطور.

قالت آسينيت: «ألستِ حاملة الكتاب المطلعة على قدري؟ أخبريني يا با-هية على الأقل بمن سأتزوج».

تبدد البرود أخيرًا عن وجه بهية وقالت بصوت أجوف بعيد: «لا أعرف، كل ما حدث مخالف لما اكتشفناه، مؤكد هناك أشياء تغيرت».

جلست بموازاة بهية تمسك يديها بقوة وتقول: «أنتِ صديقتي الوحيدة التي حظيتُ بها في حياتي دون زيف أو تملق، دون رهبة من مكانتي، أخبريني الصدق».

لاح التعاطف في عينيها وقالت: «لا أعرف يا آسينيت، فكل ما سُجل هناك عن انتصارك وحكمك المزدهر وعدلك، وإخلاصك لمحبك و...».

صمتت ترفض البوح بما تعرفه، لقد ظنت بعد انتصار أوناس وعودته معهم حيًّا أنه ربما تغيِّر قدره ولن يموت ويُمحى اسمه، ولكن بعد أسر الملك له مؤكد أن هذا قدره، ومن نحن لنهرب من أقدارنا؟ فمهما ابتعدنا ستلاحقنا إلى النهاية.

تابعت: «لم ننتهِ من التنقيب بعد، كما أنكم قصدتم طمس أحداث كثيرة، لذا دائمًا معرفتنا بكم منقوصة».

ارتفع حاجباها قبل أن تقف من مكانها مبتعدة، با-هية لم تنطق بالمحتوم ولكنها عرفتْه، ضمت خصرها بقوة تمنع ارتجافها واضطرابها، وصرخ قلبها المفطور، لن تخاف وستجد طريقة لإنقاذه حتى... حتى وإن ساومت والدها على أن تتخلى عن عشقها مقابل حياته، ولكنها لن تتزوج أيضًا بغيره، لن تستطيع أن تكون بين ذراعَي آخر حتى وإن أرادت وأوناس يحتضن قلبها.

قالت: «لن أتزوج، أستطيع الحكم دون هذا الشرط، سأستغل نصري لأكسب ولاء الكهنة».

ردت بهية كأي صديقة أصيلة تُذكِّرك بمصيبتك الكبرى: «آه، لا أظنكِ تملكين هذا الطموح، لقد كسروا الكثير من القواعد لأجلك، كما أن والدك أوضح بشكل غير قابل للتفاوض أن زواجك قريب».

سحبت آسينيت سكينًا عن خصرها زُينت قبضته الذهبية بمجسم صغير لإيزيس.

وقالت: «سأمزقه قبل أن يبدأ بلمسي، سأقتله لمجرد تفكيره الأحمق في زواجي به».

قالت بهية بسخرية لاذعة: «عادةً يا حبيبتي نُعبئهم في أكياس سوداء بعد الزواج وليس قبله».

نظرت إليها بذهول قانط وقالت: «با-هية، هل وجودك معي لتؤازريني أم لتتسببي في قتلي؟!».

وقفت بهية تشرح بصدق رهيب: «الصديقة الجيدة تواجه رفيقتها بالحقيقة حتى وإن كانت ستجلطها، وأنا هنا أحاول إخبارك أن اختياراتك محدودة».

تعبت منها ومن كل ما يحدث، وبخاصة أن إيزيس لم تظهر لمرة واحدة، وكأنها سحبت دعمها فجأة.

قالت آسينيت: «فقط ليكن حيًّا».

– تعلمين أنه بخير، وهناك شيء مريب يحدث حولنا وإلا ما كنتِ استسلمتِ، خبرتي معكِ تؤكد أنكِ لستِ من النوع السلبي البغيض، تبقين في مكانك تنتظرين أن يقرِّر أحدهم مصيركِ ويسرق منكِ أحلامك، تأتين الدنيا وتغادرينها بلا بصمة ولا هدف أو حتى سعادة استحققتِها.

مهلًا! هل تتحدث عنها أم عن نفسها؟!

توقف حديثهما بعد طرق الباب، سمحت آسينيت بنبرة قوية وقد استعادت تحكمها.

دخل الحارس مُطرِقًا أرضًا باحترام وأعلن: «نائب الملك يطلب الإذن بالدخول».

هدرت بصوت صلب صخري لا يحمل أي مشاعر: «فليدخل».

انسحب الحارس بظهره وفتح الباب يفسح الطريق، حينها فقط انمحى تحفز آسينيت وحلت مكانه مشاعر كثيرة تداخلت، جمود، وغضب، وحقد، وانتصار، والفهم الصحيح أخيرًا.

بينما علقتْ على وجه بهية تلك النظرة الحالمة الحمقاء، تتأمل الهيئة السمراء الساحرة بملابس تنتمي إلى الطبقة العليا مع تاجٍ رفيع يوضِّح مكانة حامله.

دققت آسينيت به وسألته بصوتٍ بارد لا يتناسب مع خفقان قلبها: «لماذا الأسير المنفي يرتدي زي الرجل الثاني في المملكة؟!».

عيناه بركتان من القسوة وحاجب واحد مرفوع بغير رضا وكأنه مكرَه، وفمه ملتوٍ بابتسامة شر.

أجاب: «لأتزوجكِ».

وقطع الحرب المستعرة بينهما تقافز محب من حوله وفوقه محاولًا إلقاء نظرة إلى الداخل، لوى أوناس كفيه فاقدًا أعصابه، لقد قطع هذا المجنون حلاوة اللقاء بعد حرمان وقد استبدت به الأحلام بتخيُّله.

هدر يقصفه: «توقف عن الطواف حولي كذبابة طنانة مزعجة».

تجمد محب بغضب هاتفًا بسخط وكبرياء في محاولة بائسة لإنقاذ جبهته: «أنا ذبابة؟! كيف تجرؤ؟ أنا من يُدير مئة رجل مثلك بنظرة وكلمة مني في زماني».

التفت إليه بغضب وقال: «لكنك لست في زمانك، بل في زماني، فاصمت يا فتى أفضل لك».

ونظر محب إليه باشتعال متمنيًا الاشتباك معه، ولكن بكل حسرة، فالخسارة محسومة، كيف يتفوق على طرزان القلوب هذا؟

تمتم بأسى: «سامحك الله، أنت مثل جدي وأنا لن أمد يدي على رجل كبير».

قال أوناس ببرود: «بل لأنك تخاف أن أهرسك بقبضة واحدة كالذبابة».

ضمت بهية فمها تكتم نوبة ضحك ثم أطلقت سراحها: «قصفك ونال منك».

صرخ محب بقوة: «لم يفعل، ولا يجرؤ، أنا سامحته لأنه جدي».

أكدت آسينيت: «لقد سخر منك يا محب فعلًا، وأرى أن تنقذ كرامتك وتغرس سلاحك في قلبه».

ارتفع حاجبا أوناس بتعجب مدركًا أنها حاقدة عليه، ولكن لماذا؟!

رد على مضض: «أسامحه».

ظهرت إيزيس خلفهم تقول بشماتة: «تسامحه؟ بعد أن نال منك؟!».

انفجرت بهية بضحكة أكثر شماتة وإجرام تقول: «لا أطيق صبرًا للعودة وإخبارهم كيف نال منك».

زمجر يضرب كفًّا بكف متسائلًا: «ما بالها تلك المعتوهة؟».

سيُجن لرؤيتها والاطمئنان عليها وهي لا تصدق أن تجد موقفًا لتشمت به! يحب معتوهة وليسامحه الله على هذه الجريمة في حق نفسه.

قال محب: «مؤكد هذه دعوة أمي في الفجر بعد أن أغضبتُها، أن يوقعني الله في مصيبة عظيمة، وقد ابتلاني الله بكِ».

زمَّت فمها جانبًا ولم ترُد، وعم صمت آخر وكأن أحدهم لا يجد ما يقوله غير النظرات المحترقة الغاضبة الدائرة بين أوناس وآسينيت.

تدخلت إيزيس بهدوء وأشارت إلى محب وبهية وقالت: «أتيت للبحث عنكِ، فقد حان وقت حديث أُجِّل بيننا».

انسحبت بهية ببطء وكأنها تخشى أن تلاحظ آسينيت وتبقيها جبرًا.

وعندما وصلت إلى جانب محب همست مازحة: «يبدو أن إيزيس تُخلي الأجواء لجدينا العاشقين».

تنهد محب بوضوح قائلًا: «العاقبة عندكِ لتُخلى لكِ الأجواء».

قالت إيزيس ببراءة: «لا، با-هية عانس وستظل عانسًا إلى آخر العمر».

امتقع وجه بهية بالحرج والحنق، وقال محب بحنق: «حتى هنا أطلقتِ على نفسكِ سمعة! تستحقين قصفها لجبهتك. لن أتعاطف معكِ».

- ومن طلب تعاطفك أصلًا؟

- سخيفة.

- معتوه.

ابتعد أوناس بملل عن شجارهما ودخل الغرفة.

قال: «حبيبتي».

هدرت بصوت جبار، صوت ملكة: «بل مولاتك».

أطرق قليلًا قبل أن يخلع التاج عن رأسه كما كان دائمًا في حضرتها.

لم تقاوم بهية أن تهمس لمحب بهدنة لحظية: «لديك حق، جينات النكد متأصلة فينا، نبحث عن المعاناة وضيق التنفس بمنقاش».

رد باستياء: «بلاء الحب امرأة».

ردت بسخط: «وغباؤه رجل».

تقدما أمام إيزيس ونقارهما المعتاد يشتعل وكأنهما على وشك الفتك ببعضهما بعضًا.

توسعت عينا إيزيس بقوة تتأملهما وسؤال مجنون يطوف بعقلها: هل أخطأت بمحاولة تقريب الاثنين من بعضهما بعضًا حتى يجددا قصة عشقهما؟! كيف تسمح لهما برابط الزواج المقدس وهما على وشك الفتك بعضهما بعضًا؟ بل ما الذي حدث للرجال والنساء في ذاك الزمن ليتحول التعبير عن الحب بينهما إلى عداء صريح؟ ثنائي كهذا ما طبيعة النسل الذي سينجبانه؟!

لقد قالتها قبلًا، يبدو أن أحوال أحفادها تدهورت كثيرًا، حتى الحب تحول إلى ساحة حرب. استدارت عيناها تراقبان النار المتقدة بين أوناس وآسينيت.

هتفت ساخرة: «من الواضح أن الحب قد تحول إلى ساحة حرب منذ زمن بعيد، ساحة حرب ليس فيها منتصر أو مهزوم».

أشارت بإصبعها تغلق الباب بقوة لم تؤثر فيمن في الداخل، وانقضت عليه بلسان لاذع.

قالت: «ظننتك لا ترغب في المناصب، ولن تتخلى عن حربتك وقوسك أيها المحارب».

رفع عينيه بملامح جامدة ولاحظ عينيها الساخطتين فقال: «ضحيتُ بما أرغب لأحقق إرادتك أنتِ».

سخرت وهاجمته بقوة: «اعتقدتُ أنني هدف ولستُ فرصة لكسب منصب مرموق».

أظلمت عيناه وتجمدت ملامحه من الاتهام، حوَّلته إلى مجرد طامع خائن أغواها لمكسب شخصي كما اتهمه أبوها وحاشيته قبلًا.

– تعلمين جيدًا أني لم أحتج قلبك كطريق للنفاذ إلى السلطة، إن أردتُها لاكتسبتُها منذ زمن طويل مستغلًّا كفاءتي ومكانة آبائي وثقة الملك.

هتفت بحدة تخفي مشاعرها عنه، لقد عانت الخوف والقلق والرعب، فكرت في التضحية من جديد بمكانتها وعرش أبيها وإرثها، لم تعنِ التشكيك في حبه ولن تجرؤ يومًا، ولكن حقدها على خطة أبيها جعل غباء الكلمات الفارغة تتحكم.

فقالت: «لكنك اكتسبتها في النهاية مستخدمًا قلبي كما هو واضح».

نفخ بتعب محاوِلًا مهادنتها: «آسينيت...».

قاطعته بجنون طفلة متهورة نزقة: «لا تنطق باسمي».

ابتسمت عيناه واقترب دون حذر يهمس بخفوت أجش: «مولاتي، سيدة قلبي ومنزلي، امرأتي التي أحب، فتاتي ومحارِبتي وكل ما تعنيه كلمة «ست» بحياتي».

تأففت وعضلة قلبها الخائن ترتعش وتصرخ لتلبية النداء، أبعدت عينيها عن مرماه للهرب من سحره.

قالت: «كيف أصبح ملكة أحكم بلدًا عظيمًا وشعبًا أصيلًا وهو يأسرني كلما أحب إبعادي عن الصورة متخذًا قراراته وعليَّ تنفيذها؟! لقد قرر أن يمنحك تاجًا سخيفًا حتى يُمكِّنك مني، يُرعبني بأسري في غرفة كرهتها. أبعد كل ما فعلتُه ما زال يشكك بي؟!».

أمسك رسغيها قبل أن يقرِّبها إلى صدره، لكنها قاومت بكل ما ملكت للابتعاد، إلا أن شيئًا فيها أضعف محاربتها، ليس حبًّا ولكن يأسًا.

قال: «حبيبتي وجه الشمس ووهج النجوم، رغب في إبعادك حتى تكوني خارج صراعه مع الكهنة، ومنحي هذا المنصب كان عفوًا ملكيًّا وفرصة من والد يرجو لابنته السعادة، لقد أقر الجميع أنكِ جاهزة لتولي الحكم بجواره، إيمانه بكِ جعل كل كاهن في القطر يُقِر بأنكِ قادرة على اتخاذ القرارات بحكمة، لذا لم يعارضوا اختياركِ لزوج من خارج العائلة الملكية».

لم ترُد ولم تحاول التحرر أيضًا، قرَّبها أكثر حتى لامست جبهتها قلبه، وأجاد لغة الحب بينهما مبتعدًا عن اللغة المعادية التي تجيدها المرأة كلما أرادت شيئًا فنطقت ضده، هو يفهمها دون شرح وهذا ما أوقعها في غرامه في المقام الأول!

تابع: «حاربنا المستحيل دون أمل في توحُّدنا يومًا، أقررنا بالموت لا الحياة. فلماذا عندما تحققت المعجزة ترفضينها أنتِ؟».

تأوهت بصوت مكسور خافت ويداها تقبضان على قميصه، بداخلها وحش جبار ينبش بمخالب معميَّة حاقدة عليه، على والدها، على...

هي حتى لا تعرف على ماذا بالضبط! ولكنها غاضبة كنار مشتعلة في حقول القمح ولا أمل في إطفائها.

قالت: «قبلتَ بعرضه وحققتَ رغبته غافلًا عن رأيي، ربما أردتُك محاربًا كما أنت، قائدي الذي أثق به أكثر من حياتي».

أسندت يديها فوق قلبه الخافق بتسارع مرتجفًا لضمها وتابعت: «أُجبرتَ على التخلي عن زي المحارب وسلاحك من أجلي، أعلم أن سلاحك روحك يا أوناس، دونه لن تشعر يومًا بالسعادة».

رفعت رأسها من فوق قلبه وإن ضمها بيديه بقوة، أصابعه متشبثة بملابسها والنظرة المحمومة على وجهه شديدة القتامة.

كرر بهمس خشن: «سأتخلى عن أي شيء لأجلك، أنا دونكِ لا شيء، معكِ كل السعادة التي أريد».

هزت رأسها نفيًا بقوة وقالت: «ليس هذا!».

قرَّبها منه أكثر، وذراعاه الجادتان تضغطانها بصدره الرحب فتذيب عظامها كصوته.

وهمس قرب أذنها: «لقد ضحيتِ بالكثير من أجلي، وهذه تضحيتي سيدتي فلا ترفضيها».

كبرياء الملكة ترفض تقبُّل تنازله!

رفعت وجهها حتى لامس كتفه وقالت: «لم أرِد تضحيتك».

- لا تُبنى علاقة سوية على تنازل طرف دون الآخر، ولا حتى تنازل مناصفة، بل كلا الطرفين يجب أن يتنازلا عن كل شيء من أجل بعضهما لتنجح علاقتهما.

رفعت رأسها وأخيرًا لمعت عيناها بسعير الحب ووهج العشق، أخفض رأسه لتقابل شفتاه شفتيها.

نبرته أطاحت بها وكادت تُحطم آخر ذرة مقاومة: «مر-إك مولاتي، مر-إك سيدة منزلي».

كادت أن تسلِّم وتغرق معه في حلاوة القبلات، لكن وحشها الصغير الحاقد عليه لجعلِها تعيش الرعب وهو يتبختر مستلمًا مهام منصبه الجديد دون أن يُكلف خاطره ويطمْئنها كان له الصوت الأكبر. أزاحت يديه فجأة فتسببت في تعثر خطواته.

صرخت بجنون أثار حماسه لا سخطه: «وأنا لا، أنت قبلت المنصب ورضيت بالقيود لإرضاء الملك، إذن اذهب وتزوجه».

هل يضحك الآن؟ فقد استوعب رغبة محب الملحة في الفتك ببا-هية رغم اعترافه بحبها!

- ومن الأحمق الذي قال إني سأترك سلاحي أو سأقبل بلا مولاتي؟

زمَّت فمها بغضب، اعتدل أوناس ومشى متخايلًا ثم أمسك تاجه وعدله فوق رأسه وقلد تلك الحركة المستفزة لمحب.

إذ غمز بعينه وقال مؤججًا حنقها: «على كلٍّ فضلتُ إخبارك بنفسي عن رغبة الملك في إتمام زواجنا غدًا، سأنتظركِ في المعبد مولاتي».

انحنى مستفزًّا ثم غادر متفاديًا حامل الشموع الذي ألقته خلفه وتحطم على الأرض بدل أن يحطِّم رأسه.

***

إيزيس تدق الدفوف...

وُضعت المشاعل وعُلقت الزينة في كل الشوارع والدروب، عقود الفل والخزامى نُشرتْ مختلطة بأزهار الياسمين (زهرة الجنة) بين الطرقات وعلى كل حوائط وأسطح المنازل الممتدة حتى معبد «بيلخ»، تألقت ضفتا النهر بالمشاعل الذهبية على شكل زهرة اللوتس، الرائحة العبقة الزكية ملأت الأجواء لتبقى ذكرى الزفاف الملكي إلى الأبد.

هذه المرة الأولى التي يُسمَح فيها لأميرة باختيار زوج خارج الدم الملكي، معجزة تحققت وقانون آخر جعلته إيزيس ممكنًا، وأعلت من شأن المرأة وقدرتها على تحديد مصيرها، ولم يعد مقتصرًا على الرجال.

نُشرت المئات من آلات القيثارة على الطريق المؤدي إلى المعبد، يعزف عليها أمهر الموسيقيين من الرجال والنساء الجميلات بملامحهن الخمرية الخلابة، وكان لآلة الناي النصيب الأكبر في العزف السعيد، وليس أنين وحزن العشاق، أما الآلة الموسيقية التي تفردت وزفت آسينيت فوق صهوة فرسها حتى وصلت إلى أعتاب المعبد كانت «مزهر إيزيس»، بجلبة منتظمة ترنو لها القلوب قبل الآذان، تُحيي الحياة بتعقُّل وتدب النبض في قلوب اليائسين. لم ينقص التخت المصري شيء، حتى المايسترو الذي يقود الموسيقيين إلى العزف وينظم انطلاق موسيقى النصر والفرح.

ترجلت آسينيت بردائها الأزرق الجميل المحبوك على جسدها المتمايل كأنه رُسم بريشة فنان، وفوق الرداء وُضعت عباءة من الحرير الشفاف الناعم بذيل طويل، ودار حول خصرها حزام من الذهب مرصَّع بجواهر من الياقوت الأحمر، تدلى منه طرفان طويلان متشابكان شكَّلا زهرة الأقحوان، وجهها بكامل زينته، عينان تضويان مكحَّلتان كبركة مملوءة بالرغبات، فوق رأسها شعر مستعار ناعم بلون أسود خالص، وزُيِّن رأسها بتاج يُجسِّد قرون الغزلان.

لقد كانت غزالة شاردة بالفعل، هائجة هاربة من أسر الصيادين ووقعت في فخ شباك هواه لا غيره، جسده يرتعد، قلبه بين ضلوعه يرتعش بعمق، وهياج أنفاسه لا يساعد على التحكم في انفعاله.

همس محب بروح سخرية الصديق: «تماسك قليلًا يا فتى، ستتسبب بفضيحة توثَّق على جدران المعابد».

لم يهتم أوناس وهمس بتحشرج: «أحبها، وكأن الصانع لم يخلق نساء سواها».

روحه الساخرة أرادت قصفه بشدة، ولكن صوت القلب الذي هام ببهية المتألقة بثوب الجدات كان له الوقع الأشد.

قال: «أصدِّق إحساسك، فرؤى القلب متطرفة رغم تداركنا أنهن عنيدات معتوهات».

تقدمت آسينيت بخطوات متقنة متمهلة ودقيقة مرفوعة الرأس حادة العينين وجسد منتصب لا يعرف الانحناء، ترافقها إيزيس بنفسها، التي انحنى لها جميع الحضور على الطرفين، تزاحم الجميع لحضور الزفاف وإلقاء نظرة على السيدة العظيمة والساحرة المبجلة قبل رحيلها.

توقفت خطوات آسينيت وراء أبيها الذي وقف بدوره أمام الكاهن بجوار أوناس حتى تتم المراسم، التفت الملك أخيرًا ينظر إليها بمشاعر أب لا ملك، اقترب منها ودون كلمة مال يلثم جبهتها مبارِكًا ومانحًا عفوه الكامل ورضاه وارتياحه لاختيارها بفخر.

قال: «الليلة انتهت أمنيتي في الحصول على وريث ذكر يكون خليفتي، ما كنت لأستبدل بك عشرة من الورثة، أنتِ الملك الذي أردته من بعدي».

لانت ملامحها وابتسمت بارتجاف.

قال: «لا دموع يا ملكتي».

قالت: «لا دموع ولا حزن سيعرفان للقلب طريقًا يا أبي وأنتَ بجانبي».

امتلأ صدر أوسركان بالرحمة والحب والسعادة قبل أن يتركها لتتم المراسم.

سلَّم الكاهن لأوناس حلقة البعث (خاتم الزواج) الذي باركه وطلب منه أن يُلبسه للعروس، وبدأ بتوثيق الزواج شفهيًّا، تراجع أوناس ينظر إليها بنظرة جمَّدتها، نظرة وهمية يانعة بكل أحاسيس الجمال المهلِك.

أمسك أصابعها بين يديه ورفعها نحو فمه يقبِّلها مسبلًا الأهداب منشرح القلب، وعندما حررها ليضع الخاتم في إصبعها لم يفهم للحظة ما حدث رغم شهقات الحضور وهمهمتهم المذهولة، نفضت آسينيت يدها من يده كما نفضت كل ملابسها وتجردت من مظهرها الخلاب كعروس وبقيت أمامه بدرعها وتنورتها الحربية، يدها التي من المفترض أن يزيِّنها خاتمه تتشبث بحربتها، عيناها تتلاعبان بشراسة نمرة كما يدها اليسرى التي تشير نحوه باستفزاز.

قالت: «أقدِّر تضحيتك والملك، ولكني أرفض تسليمي كطرد ثقيل، ترغب في زواجي؟ هيا اقترب».

توسعت عينا الملك بدهشة، لكنه يعلم تمرد وتطرف ابنته، لذا لم يتفاجأ كثيرًا.

تكلمت بهية من طرف فمها لإيزيس: «قلتِ إني الحفيدة التي أصابتكِ بالخذلان، ماذا عن حفيدتك المجنونة؟».

ضحكت إيزيس بهدوء أنيق وقالت: «سأخيِّب ظنك، لأني أفضِّل حفيداتي المتمرِّدات».

زمَّت فمها بغضب وهاج غضبها حينما اقترب محب وقال وكأنه يلقي أمرًا: «عندما نعود ستمحين من رأسك هذا المشهد، لأني لن أسمح لزوجتي بالتطرف إلى هذا الحد يوم زفافنا، أريدك هادئة وعاقلة وسمجة كما أنتِ».

ردت: «في أحلامك».

- عادةً أسعى لتحقيق أحلامي، وأنتِ أشد أحلامي رغبة وتطرفًا وجنونًا.

أخفضت وجهها وللغرابة ابتسامة نابضة بغيضة توسعت في قلبها.

حركت آسينيت رمحها ورمته إلى الأعلى ثم قفزت مستديرة والتقطته من خلف ظهرها، وأصابعها لم تتوقف عن الإشارة له بالاقتراب.

قالت: «تعالَ يا محارب واكسب حقك بامتلاكي، أم تخافني؟».

إن ظنت أنه تخلى عن درعه فلم تعرفه حقًّا، بقبضة واحدة مزق رداءه الملكي وظهر زيه الحربي، وكأنه توقع هذا!

تعالت الشهقات وبخاصة مع اقترابه والتقاطه لحربة معلَّقة بيد أحد التماثيل، نظر إليها بطرف عينه أخيرًا مبتسمًا بخبث لذيذ، تبًّا، لا شيء يستطيع التأثير على سحره.

وحين تكلم كان صوته مطالبًا بصرامة: «ما صفقتكِ؟ تعلمين أني لا أرفع سلاحي إلا لشيء ثمين يستحق النصر».

ابتسمت بمكر تنظر إلى عينيه بنعومة وقالت: «عادةً ترفعه للدفاع عن ممتلكاتك».

ستقتله وجه الشمس بعينيها الساحرتين، ساحرة مغوية تقوده إلى حتفه، اقترب بسرعة وأمسك ذراعها الحرة يصدمها بصدره، وارتفع وجهها بسرعة أشد تنظر إلى عينيه المبتسمتين بعنفوان.

قال: «وقلبك مملكتي ساحرتي ومولاتي».

لهثت للحظة وكادت أن تتنازل وتصرخ في الكهنة ليتمموا المراسم، ولكن بقايا عناد جعلتها تدفعه بقوة ضاهت قوى الرجال.

هدرت بصوت وحشي: «إذن دافع عنه، إن انتصرتُ لن أتزوجك وسأحصل على تاجي دون شرط الزواج».

صمتت وحدقت إلى أبيها الذي نظر إليها بملل، من الواضح أنها أصابته بالبرود بعد أن كادت تتسبب في جنونه.

دارت بعينيها على وجه أوناس وأضافت على مضض: «وإن ربحتَ أنت سأتزوجك».

لوَّح بسلاحه يراقصه بالهواء بكل مهارة وببرود وقال: «لن يكون الأمر صعبًا، إذن لا بأس من بعض الإثارة».

فتحت آسينيت ساقيها عن آخرهما، واحدة للخلف وأخرى للأمام، وانحنت كتفاها في وضع الاستعداد وأصابعها المستفزة تشير إليه بالاقتراب.

قالت: «من دواعي سروري الترفيه عنك يا محارب».

واشتبكت الحِراب بقتال محموم، لم يرحم أحدهما الآخر، الناظر إليهما دون معرفة قد يصدق أنهما أرادا الفتك ببعضهما بعضًا حقًّا.

همست آسري-نارتي محرِّكة فمها يمينًا ويسارًا باستياء: «من يراها وهي تنوح كل ليلة لا يصدق ما تفعله، وضعتُ أصابعي منها في الشق».

للحظة حدقت إليها بهية بدهشة، وكأنها تقف في حضرة والدتها المتذمرة!

سحبت بهية نفسًا متشنجًا عند ذكر والدتها وندبت بحسرة ورعب: «إن تركني والدي رحمة وحبًّا فلن ترحمني أمي، ستغزل من جلدي معطفًا وربما وسادة مريحة لتجلس فوقها، يا مصيبتي!».

كان قتالهما متكافئًا بشكل لعين أصابها بالضجر والتعب وهو لم يتأثر، بل علقَتْ ابتسامة متعة على وجهه استفزتها أكثر.

ابتعدت ترفع إصبعها وقالت بأنفاس لاهثة متعَبة: «هدنة».

رفع حاجبًا وأخفض آخر قبل أن يهجم عليها.

هتف بعناد: «لا، هل نسيتِ القواعد؟».

القواعد التي وضعها بنفسه عندما درَّبها، كانا يشتبكان في نزال كهذا وبلا رحمة، سقاها فنون القتال والخداع حتى إعلان النصر.

النذل يستمتع على حسابها، من الواضح أنها أثارت ذكرياته الحماسية بدلًا من أن تعاقبه على فِعْلَتِه بتركها ليالي طوالًا عاجزة عن معرفة مصيره.

قاومت بكل قوتها تضربه بغل واكتفى بالدفاع، وهذا أثار حفيظتها أكثر. دفعت قدميها عن الأرض وقفزت إلى الأعلى ثم هبطت بحربتها وصرخت بهجوم تلقَّاه بكل ثبات، وقف كلاهما يلهث رغم همهمات قصيرة من بعض الحضور وصليل الحراب الذي ألهب الأجواء.

همس من بين أسنانه: «استسلمي».

أجابت بعناد: «أبدًا».

دارت حوله مرة أخرى تضرب سلاحه من الأسفل بحركة خادعة وفقد حربته أخيرًا، فاستغلت الفرصة بسرعة ووضعت نصلها الحاد فوق عنقه بعد أن ضربت قدمه ليسقط منبطحًا على ظهره، كلل وجهها النصر وكلها محني فوقه، عيناها لا تفارقان عينيه، شعرها الغجري حر طليق يغطي وجهيهما معًا، بينما راحة النعيم المنطلق منها بعثرت المتبقي من تماسكه.

رغم قولها الساخر بشماتة: «من الواضح أن منصبك الجديد أثَّر بك سريعًا وأفقدك مهارتك أيها المحارب، ماذا بعد زمن؟ هل سينتفخ بطنك وتفقد رشاقتك وتتحول إلى واحد ممن سخرتَ منهم قبلًا؟».

حرك أصابعه ودفنها في خصلات شعرها، عيناه لا تتركان حصار عينيها.

وهمس بخفوت شديد: «أريد تقبيلك الآن وليحدث ما يحدث، لقد مارستُ حيل ضبط النفس طويلًا وما عاد بي أي قوة للتحمل».

عيناها ثابتتان لم تتأثرا، بل قالت بخبث: «إن ظننت أنك ستؤثر بي فقد فقدت عقلك».

رفع ذراعه من مكانه على الأرض بأريحية، ولفها حول خصرها يضمها بقوة وكأنهما نسيا الجمع المتفرج تمامًا.

قال: «لا أرى أحدًا فقد عقله هنا إلاكِ».

– حديث رجل مهزوم.

لم يفقد هدوءه وهو يقول بعذوبة: «تتناسين أني من علَّمتك كل حيل الخداع مولاتي، وهذه الحيلة أبسطها وأعقدها».

نظرت إليه بشك قبل أن تتفحص موقفها، نصل رمحها على نحره، بل ضغطت عليه بقصد فتسببت في جرح يقطر بعض الدماء، جسدها مسجى فوق ركبتيها تحاوط جذعه، إحدى ذراعيه تحيط خصرها و... توسعت حدقتاها بسرعة باحثة عن موقع يده الأخرى، وزمجرت بيأس عندما اكتشفت ثبات خنجره على صدرها في موقع قاتل وفعال، إن أراد قتلها حقًّا ستكون له الضربة الرابحة قبل أن تفكر في النيل منه.

همس بمكر: «أنا رحيم عنكِ، فلم أضغطه بينما أنتِ شريرة قليلًا».

قفزت على قدميها وقالت: «لن أستسلم حتى النصر».

ارتفع هو الآخر قبل أن يدور حولها واشتبك معها دون أسلحة، قاومت بجنون في عراك حقيقي ولكنه في لحظة لفَّها كلها حول نفسها وثبَّت جسدها مسيطرًا عليها وشلَّ حركتها، ظهرها التصق بصدره، حُشرت بين ذراعيه واحتضن خصرها بتملك ونصله اللامع فوق نحرها.

قال ضاحكًا: «هدنة؟».

هتفت: «أبدًا».

– لقد انتصرتُ يا آسينيت، استسلمي.

– لا.

مرَّغ وجهه في طيات شعرها ثم همس بجوار أذنها بخشونة: «إذا تعشمتِ في انتصار وتفوق فلن يكون على الرجل الذي علمكِ كل خطواتكِ وحفظَكِ كخطوط يده».

أغلقت جفنيها وهمست باستسلام اليقين: «أخبرني مجددًا، لمَ أنت هنا؟».

– لأني أريد إسعادكِ بكل الطرق الممكنة لأحظى بالسعادة ولو بشكل ضئيل، أنتِ أولًا ودائمًا وأبدًا.

هدرت أخيرًا آمرة: «أكمل المراسم، الآن ونحن بهذا الوضع».

توسعت مقلتا الكاهن بصدمة وزادت قرعته لمعانًا من تعرُّقه حين سمع أوناس يقول بسخط: «سنتزوج وأنا آسرك تحت سلاحي؟».

عاندت: «نعم، أريد للرعايا أن يتذكروا كيف قُيِّدت ملكتهم حرفيًّا للزواج بك».

رفع حاجبًا شريرًا وأخفض وجهه نحوها وذراعه تضمها أكثر مسببًا لها الألم بقصد والعنيدة كتمته.

قال: «من ناحيتي ليس لديَّ أي مانع مولاتي».

نفخت إيزيس بتعب وقنوط، حسنًا لقد رغبت في حفيدات قويات حكيمات وملكات، ولكن مؤكد لسن معتوهات بالحب، سيتسببن في قتل أزواجهن قبل الأوان، وعلى مضض شديد ضبطت نفسها تنظر إلى

محب بتعاطف، إذ حفيدتها الذهبية الحكيمة المدلهة لم تسهِّل الأمر على معشوقها، فماذا ينتظر محب من بهية؟!

سأل الكاهن بشك كلًّا من الملك وأوناس: «هل نبدأ؟».

فأشار الملك بالسماح واكتفى أوناس بابتسامة ظفر وتنهيدة ارتياح.

***

عندما زج الباب بقدمه ودخل يحملها بين ذراعيه، أدارت رسغيها حول عنقه بمضض، وفور أن تمركز بالغرفة ووقعت عيناها المعلَّقتان على الفراش ماجت بين ذراعيه تقفز بعيدًا.

فزفر بقنوط: «ليس قتالًا آخر، لا أملك الصبر لمجاراتك».

رفعت كتفيها بلا مبالاة قائلة: «في كل الحالات لن تحصل على ما تريده لا الليلة ولا ليالي أخرى».

اقترب منها حتى وصل إليها، ثم مد يديه يحيط خصرها يقرِّبها منه وهمس بنعومة: «تبادلنا العهود وانتهى عصر القيود».

- ومنذ متى قُيِّدتُ بعهود أو قوانين؟

يداه تتلمسانها بقلة صبر وهوس وهو يقول: «حاربتِها من أجلي وتحررتِ منها، فلا تحرميني الآن من حلم مضنٍ أرَّق مضجعي طويلًا».

عاندت متمنية أن تداري نبرتها ارتعاش نبضات قلبها المذعورة: «ليس هناك قانون واحد يجبرني على تحقيق أحلامك ورغباتك».

ضمها إليه أكثر وجبهته استندت فوق جبهتها وأخذ نفسًا عميقًا وكأنه يبتلع رحيقها بنهم.

قال: «ليست رغبة وإنما حلم طويل مستحيل وتحقق، مر-إك».

رفعت ذراعيها وطوتهما فوق صدره وجسدها كله يتحفز للهروب، لكنه لم يمنحها الفرصة والتقط ورد شفتيها وشلَّ تفكيرها قبل حركتها، عاصفة عاتية ضربتها فنسيت نفسها ومخاوفها وتذكرت تمنيها الطويل لكسر القيود وتخليه عن أخلاق المحارب وضمها إليه وتقبيلها مُعبِّرًا عن عشقه.

دارت الدنيا بها وأطاحت بها عن قدميها فاقدة الإدراك، متوهجة المشاعر، تستعر كحريق إحساسه وهمس يخطفها عن الأرض قولًا وفعلًا.

- مر-إك.

حتى شعرت بتمددها وأصابعه العابثة تستبيحها دون رادع، روح القتال برزت ووجدت نفسها تقفز وتدفعه بعيدًا، استلقى جانبها دون أن يتخلى عن سحقها عليه أكثر دون أن يقطع قبلته التملكية.

أبعدت فمها وهتفت: «لا».

ولكنه لم يستوعب وهمس بأنفاس غير ثابتة: «أنتِ ملكي، سيدة منزلي».

قاومت حتى ارتفعت فوقه، يدها على عنقه وكأن المجنونة تتخيل سلاحًا وهميًّا كما حدث في المعبد.

زمجرت: «بل مولاتك».

قال ببراءة مخادعة مهادنًا وجذبها إلى مكانها الأول بكل سهولة: «لقد أثبتِّ فشلك بالتفوق عليَّ مولاتي».

- لا تشعل جنوني، ما زلتُ أملك السحر اللازم للقضاء عليك أوناس.

شفتاه وجدتا مكانًا على العِرق النابض بجنون بنحرها.

قال: «لا أخشى ثعابينك يا وجه الشمس».

سخطت: «يجب أن تخشى شيئًا!».

أخرستها النظرة العاشقة الواهمة وكأنه ينظر إلى كل ملذات الحياة فعلًا.

قال: «أخشى حرماني منكِ، هذه نقطة ضعفي الوحيدة».

رجف قلبها بين أضلعها وحينها توقف العالم وأخرس وحشها المعترض إلى الأبد، وتألقت العاشقة المدللة لتمنح المحبوب دون قيود.

قالت: «وأنتَ لست نقطة ضعفي، بل حبك كل نقاط القوة التي ملكتها يومًا».

مرر أصابعه على ملامح وجهها كأنه يرسمها داخل قلبه، وهمس بذهول خشن: «أنتِ جميلة، رائعة الحسن بشكل لا أتحمله».

قاومت عندما انحنى بمشاعر عنيفة يمتلك كل ذرة فيها من جديد: «أوناس، لا، انتظر».

رفع وجهه قليلًا ضاغطًا على أسنانه بلهجة مهدِّدة: «كفى دلالًا وعنادًا، آسينيت، لقد تأخرنا كثيرًا».

تساءلت بحيرة: «على ماذا؟».

اندفع من جديد يغمرها بعنف أشواقه ورغباته ويقول: «صنع أولادنا، هناك أحفاد مساكين ينتظروننا في المستقبل، إن لم نبدأ في صنعهم في الحال لن يكون هناك محب ولا با-هية، وبالتالي لن يأتوا إلى هنا ولن نُمنح المعجزة و...».

شعرت للحظات بتوقف عقلها وعدم استيعاب مقصده تحديدًا.

همست بذعر: «لا، أرجوك لا تقل إن محب حفيدٌ لنا».

نظر إلى عينيها المذعورتين ووجهها المتورد وفسر أخيرًا مماطلتها: «نعم أحلى وأشهى من لا المتهربة مولاتي».

وقبل أن تستطيع النطق بنعم هبط ينهل من ثغرها الوردي وجسدها البض، لم تنطقها ولكن مؤكد أن يدها الملتفة حوله وعينيها المسبلتين بدمعة فرح منحتاه إجابتها.

- مر-إك يا وجه القمر وحسنه سيدي وسيد منزلي وقلبي.

لقد نزع الشوك من وهج عشقها أخيرًا، انتصر الحب على كل الشرور واستقرت جوهرة الملك فوق تاج من يستحقها.

***

وقفت آسري-نارتي أمام منزل المامسي تضع تاجها الجديد وقد صُنع خصيصى لحاكمة سونو الكبرى بهيئة ثعبان ورُصِّع بجواهر قولِبَت لتجسِّد التمساح.

بانحناءة كبيرة ودعت إيزيس، وبدموع الفراق والدعاء المخلص نظرت إلى محب وقالت: «ليبارك الصانع طريق دفاعك الطويل».

تراجع محب وانحنى على ركبتيه ممسكًا بيديها وقال: «سأشتاق إليكِ آسري، وكأني أتذوق مرارة فقد جدتي من جديد».

هبطت دموعها فوق رأسه تمسد على شعره وتقول: «سأفتقدك بني، انتبه إلى الجميلة المشرقة با-هية».

ابتسم بتملك واعتراف بالحب دبَّ على قلبه وقال: «قلبي لها وطن، ورحلتي معها إلى حياة جديدة ونهاية سنين النزاع».

أومأت بهدوء مطمئنة، وعبرَ الغرفة من جديد يتبعه أوناس وقد سمحت له إيزيس أن ينضم إلى رحلتهم الأخيرة برفقة آسينيت، ستنتهي رحلتهم كما بدأت، أربعة دروع للحب بعد شفاء القلوب من المعاناة.

أُغلق باب المامسي المخفي وغمرتهم إشراقة الشمس الذهبية وكأنها استوطنت الغرفة، ضمت آسينيت بهية والدموع تتسابق في عينيها دون مفر من لحظة الفراق.

وقالت: «حلمتُ أن تبقي معي يا با-هية، مستشارة بجانبي ورفيقة تدفئ قلبي».

ردت: «وأنا لم أحظ بصديقة بدرجة أخت قط يا آسينيت، لقد تسللتِ إلى دمي، بجانبك كنت أنا التي لم أعرفها».

ضمتها آسينيت بقوة رغم فرق بنيتيهما، ولكن تلك الغمرة المحبة المراعية لشقيقتين دمجتهما في كيان متأصل.

- ستكونين بخير يا با-هية، يجب أن تكوني، سأحدِّثكِ عند كل وهج للشمس.

وقف محب مواجهًا لأوناس الذي قال بنبرة أجشة: «يصعب عليَّ فراقك».

ضيَّق زوايا عينيه في محاولة يائسة لمنع مشاعره وردَّ ساخرًا: «لا تقل إننا سنفتعل مشهدًا دراميًّا مثلهما».

هز رأسه دون تصنع الجمود وقال: «دون تدخلك من يدري إلى ماذا كان سيؤول مصيرنا!».

- حزين لفراق الدليل إذًا؟!

أمسك أوناس برسغ محب وأحاط مرفقه بحركة رجولية وقال: «لم تكن دليلًا، بل رفيق السلاح، رفيق رايات النصر بعد حرب أشباح الهزيمة».

– وكأني عرفتك منذ زمن يا أوناس!

قال بلهجة غريبة: «لقد عرفتني بطريقة ما، في صفحة مسطورة بتاريخك عرفتني يا محب».

انتقل الإدراك إلى محب، وبدوره أكد: «صحيح، ولكن الحمقى ما زالوا يجهلون».

– عُد وحارب ظلام الجهل، نقِّب في الأرض واظفر بمعرفتك لتاريخنا.

أدار محب عينيه في أرجاء الغرفة حتى وقعتا على إيزيس الواقفة مبتسمة بشموخ وهدوء.

قال: «سأفعل، فلا تزال مصر تبوح بأسرارها وكنوزها كل يوم».

تقدمت إيزيس وواجهت أوناس وألقت نظرة حنان نحو آسينيت متذكِّرة رؤيتها أول مرة ووجهها المشرق بنوره، الآن شتان بين قلب كسير وفؤاد انتصر بدعم أبيها وحمايته.

قالت: «لن أوصيك على هدية إيزيس، لأني أعرف أنك ستحمي قلبها الخافق بروحك».

أحنى رأسه واستل قوسه ووضعه أرضًا أفقيًّا وركع تحت قدميها لأول مرة منذ رؤيتها.

وقال: «عطفكِ كان كبيرًا أيتها الأم العظيمة».

رفعته إيزيس بكفيها بهدوء وقالت: «لا أقبل بركوع المحاربين، أبناء كيميت الشجعان لا يسجدون ولا يستجدون، حتى ملكتهم».

اعتدل وحاول الرد لكنها لم تمنحه الفرصة، لمع بين أصابعها عقد مميز دقيق الصنع والجمال تتدلى منه تميمة لصقر.

ورغم قوة النبرة سكنت المشاعر الناعمة وجهها وهي تقول: «مِنحتي لك، كان يزين عنق ابني رضيعًا، وسيسكن صدرك حتى تسلِّمه إلى ابنتك الأولى، إرثًا خاصًّا يُذكِّر نسلك بمن كنت حتى لا يضيعوا بين الأسطورة والخيال، يعرفون الواقع ويتمسكون بالأصل».

ارتجف جسد أوناس ممسكًا بالقلادة بين أصابعه محدقًا إلى آسينيت التي وضعت كفها تغطي بطنها بأصابع مرتعشة، لقد زرع بذرته في مليكته بما لا يقبل الشك!

ابنة! ستكون له أميرة خمرية شديدة الجمال كأمها التي تقف تتوهج بالعشق، تتزين بحُلي تتلألأ على جبينها الأسمر فتسحر الأعين ببهائها.

اكتفى بالابتسام مقتربًا من آسينيت يضمها تحت ذراعه وسكنت إلى صدره، يراقبان أخيرًا رحيل زوار الفجر وجالبي وهج الشمس دون الشوك.

كان أوناس غافلًا عن نظرة محب المذهولة وأنفاسه اللاهثة، إذ دقَّق من جديد في علامة الولادة المميزة على ظهر أوناس والقلادة العتيقة حول عنقه، قلادة يعرفها وقد زينت صدر جدته وجدات جداته متفاخرات بإرثهن العائلي العتيق، وهو باحث التاريخ منقِّب الآثار الهمام، لم يأخذ حديثهن على محمل الجد يومًا!

نظرة واحدة من إيزيس دون خبث أو غموض أكدت له ما عرفه يقينًا، وبرسالة صامتة: (لا تتلاعب بالماضي حتى لا يخونك المستقبل)!

احترم النصيحة وأمسك بيد بهية التي تململت قليلًا محمرة الوجه بخجل فطري وهمس: «الرحلة لن تكون سهلة».

هزت رأسها بموافقة، ثم قالت مرتبكة متمنية لو كسرت عظم وجع الفراق: «أتمنى أن أعود وأعيش هنا بين عظمة الحضارة وجمال خلق القدامى، ولكن أمي حقًّا ستصنع من جلدي أذنَي مقطف».

ضحك من كل قلبه متسائلًا: «لا أعرف ما مشكلتكِ مع المقاطف! ولا، والدتك لا تبدو لي شريرة إلى هذا الحد».

زمَّت شفتيها بفتور وقالت: «أنتَ لا تعرف والدتي، الشر بذاته ينحني أمام أفكارها حين يتعلق الأمر بي».

رف محب بعينيه وهو ينظر إلى الوجوه لمرة أخيرة وقال بأسى: «أنا أيضًا أحلم بالبقاء هنا وعدم العودة أبدًا».

اقتربت إيزيس منهما ولمست الأحجار تفتح الممر العاصف خلفهما وهدرت: «لكن يجب أن تعودا، المهمة التي تنتظركما هناك أهم، ويجب أن تكملا الحرب، وتُزيلا الخطر، وتوصِلا رسالتنا بعلم اليقين».

ازداد عنف ضربات قلبه ينقل عينيه بين إيزيس وأوناس: «ليتكِ تكونين معنا يا إيزيس، ليت أوناس يرافقني في حربي».

ردت: «ليت لن تمحو آثام الكذب والتجني، هذه مسؤولية أُلقيت على عاتقك وباهية، أعرف أنكِ بقدرها، فإحدى بناتي كفيلة بمؤازرته في الدفاع عن ميراثنا».

قال مساومًا بمرح: «ألن تغيري رأيكِ؟ ثقي بي، في زمننا ستجدين الكثير من المرح لممارسة ألعابك المفضلة بالسحر والإرهاب».

ساد صمت طويل وللحظات شعر ببارقة أمل ولكنها أنهت الأمر: «لقد انتهى زمن السحر يا محب».

ومع نطقها اندفع طائر العقاب من صدر بهية يدور في الغرفة بقوة وشموخ، حتى وقف وأحنى رأسه إجلالًا أمام بطن آسينيت.

– ولكن لم ينتهِ زمن الكتابة!

تذكر حواره معها عن الكثير من الوثائق بغموض، علا صوتها بقوة وثقة وتمنٍّ بينما دفعتهما نحو البوابة ووضعت حدًّا لنهاية البداية.

وقالت: «نحن نكتب لنحيا بين السطور».

التفتت إلى بهية وعصفت: «تذكري، كوني أنتِ كما أنتِ، لا تتصنعي ولا تختبئي وراء الأفكار المدنَّسة».

أراد محب أن تكون الكلمة الأخيرة له قبل أن تغلق بوابة الأزمان، فقال: «لم ينتهِ، بل سحركِ باقٍ داخل بناتكِ المصريات، مهما كسرتهن الدنيا وتعاقبت عليهن مرارة الأزمان يهببن للدفاع كتفًا بكتف وبعزم يفوق الرجال، حفيداتكِ المصريات يثبتن قوتهن وتفوقهن في كل مكان وزمان».

منحت إيزيس نظرة وداع أخيرة لمحب وباهية ثم لآسينيت الباكية رغم شموخ رأسها المستند على أوناس، ثم التفتت بردائها الساحر ووجَّهت القرنين حول قرص الشمس والتفتت إلى بوابتها واختفت تمامًا تودِّع هذا العصر، وعادت إلى الوراء لآلاف السنين بعد أن أرسلت أحفادها إلى المستقبل بعد آلاف السنين.

– نعم، لم ينتهِ سحر حفيداتي، بل هو باقٍ حتى البعث!

كررت آسينيت قولًا قديمًا بلا ألم وإن كان الشوق سيزيد: «عندما نصل إلى النهاية دومًا ما نتذكر البدايات».

أعادها إليه عابثًا قليلًا، حارًّا كثيرًا وخشنًا جدًّا غير مبالٍ بالباب الذي فُتح ولا بالوصيفات والجند الذين يملؤون القصر.

قال: «أنتِ النهاية وأنتِ كل البدايات يا امرأة كل العصور، يا كيميتية استحققتِ كل المعاناة مولاتي».

***

لفها الدوار وشهقة عالية غادرت صدرها، كانت مستندة بكلتا كفيها على رسغَي محب، عيناها تدوران في المكان بتركيز شديد، لا شيء تغير منذ ليلة رحلتهما الطويلة، الظلام الدامس نفسه وصفير الرياح المخيف، التمثال الحارس القابع بعينيه الزرقاوين المشعتين.

قال بتلاعب غامزًا: «أظافرك يا باهية غرزت في عظامي، لن أتذمر إن أعجبك التمسك بي».

زفرت بقوة وقفزت بعيدًا عنه لمسافة ونهرته: «لا أسمح لك».

ضحك بصوت عالٍ قائلًا: «بعد كل ما كان ما زلتِ ترددين جملتك الغبية».

عقدت حاجبيها تفكر في رد لاذع ولكنها فشلت، أم ربما عادت إلى الجبن والخنوع وقد ودعت شجاعتها وجرأتها هناك في زمن الملكات الجبارات!

رمشت بعينيها عدة مرات وتذكرت مصيبتها العظمى، أهلها وكلام الناس، كيف ستبرر اختفاءها مع خفيف الظل ذي الغمزة المريبة؟ دبت يدها سريعًا في جيب سروالها الخلفي تخرج هاتفها رغم علمها بنفاد بطاريته و...

توسعت عيناها بذهول أشد حين وجدته يعمل والبطارية بإشارة الامتلاء مثلما غادرت تمامًا! الوقت والساعة يشيران إلى الزمن نفسه، وكأنهما لم يغادرا.

أسهبت لحظة وفتحت سجل الاتصالات فمؤكد والدتها تركت ملايين الرسائل الصوتية، ولكن لا شيء إلا مكالمتها في المخيم قبل أن يجرها محب إلى هنا.

هتفت بحيرة مخالطة للذهول: «لا أفهم! لا أفهم!».

دفن كفيه في جيب بنطاله ورفع كتفيه وتمتم بلا اهتمام: «توقعتُ شيئًا كهذا».

- بمعنى؟!

أخذ نفسًا طويلًا ووضَّح: «بمعنى أن رحلتنا لم تحدث قط يا بهية، وإذا تحدثنا عنها سنُتهم بالجنون أو أسوأ».

شعرت بالدوار فجأة والبرودة تسري في أوصالها.

واتسعت حدقتاها تهمس بخيبة: «آسينيت، وأوناس، وإيزيس، والملك والحرب، كل هذا سنُخفيه؟! لن أذكر آسينيت من جديد؟ لا أستطيع محوهم بسهولة!».

خاطبها بهدوء: «يجب أن تفعلي لمصلحة الجميع با-هية».

حركت رأسها برفض وقالت: «لكن قصتهم تستحق أن يعلم بها الجميع».

- سنجد طريقة، دائمًا الحقيقة تجد طريقها إلى النور مهما طالتها أكاذيب المنافقين والمدلِّسين.

زفرت بأسى والتفتت نحو البوابة تتلمس الأحرف التي فتحتها في السابق وكأنها تتمنى أن تبتلعهما من جديد، وبعاصفة عواطفها لمعت الأحرف وتبدلت الرموز.

اهتزت عيناها وهمست بانبهار: «محب!».

همس بيقين بعد ضلال: «قلب محب النابض».

أراد إعلانها، لكنه اكتفى بالاقتراب وتتبع ما أشارت إليه بدهشة نالت منه، بالفعل تغيرت الرموز وظهر بجانب اسم إيزيس اسمان لم يحتاجا إلى البحث ومعرفتهما، لف اسم إيزيس رأس أفعى وفي منتصف جسدها نُقش اسم آسينيت بتاج ملكي يُشير إلى حكم القطرين شمالًا وجنوبًا، من منبع النيل إلى مصبه، وبذيل الأفعى المستدير كان اسم با-هية المذهب مؤطرًا ومُزينًا بطائر العقاب.

تمتم بدهشة: «هذا لم يكن موجودًا قبلًا مما لا شك فيه، أيعقل؟!».

هتفت بلهفة: «دعنا نجرب ونرى، ربما هذه إجابة إيزيس التي وعدتكَ بها».

أومأ برأسه لتفعل، فوضعت بهية كفيها فوق الباب وأخذت تتلو التعاويذ التي تعلمتها، أطلقتها مستعينة بكلمات تفجُّع إيزيس بغير معنى والآن أصبح كل المعنى.

انطلق نور أبيض من منتصف قلب بهية، وخرج معه صوت العقاب مدويًا مرفرفًا بجناحيه الناريين، وتقلَّب نوره بالأسود والأحمر والأبيض بالتتابع، واهتزت الجدران الحجرية من حولهما والأرض تحتهما، وصدر صوت مدوٍ وكأن قطعة من جبل تتحرك! قبل أن يعود العقاب لاختراق قلب بهية ثم خرج بسرعة مخترقًا الباب الموصَد، واختفى وراءه تمامًا كما هدأ كل شيء وانطفأ ضوء الأسامي الثلاثة في دائرة الأفعى!

راقب محب محاولة بهية المستميتة لاستعادة طائرها وتميمة سحرها ولكنها فشلت، غشيت الدموع عينيها.

وأخيرًا رددت بيأس: «انتهى زمن السحر».

زج محب الباب على أمل ولكن الباب الموصَد لم يفتح واحتفظ بأسراره!

ابتعد ووضع قناع الجدية هاتفًا: «لا أمل، توقفي يا بهية».

بهتت كل الألوان في وجهها في لحظة وقالت: «لا يمكن أن ينتهي كل شيء بهذه البساطة».

دقق النظر والسمع نحو الباب من جديد قبل أن يقول بصوت هادئ عملي: «لكنه انتهى ولم نعد نملك من أمرنا شيئًا، لذا دعيني أفكر فيما هو أهم».

– وما الأهم مما يحدث؟

– سُمعتُكِ ما يهمني، لا أحب أن يراكِ أحد معي وينال من أم أولادي بالباطل.

لم تهتم بثقته الرهيبة وكأنها وافقت على هذيانه رغم اضطرابها من التصريح.

قالت: «سُمعتي؟! لقد اختفيت معك لأشهر، أشهر يا أستاذ، اعقِل الكلام».

– هيا أمامي ودعينا نكتشف ما حدث، ربما لم يعد هناك عالم نعرفه بالأساس بعد ما مررنا به هناك.

أومأت على مضض رغم كل المخاوف التي ضربتها، وخرجا بحذر في جنح الليل يتأملان شموخ المكان بلهفة، الأهرامات الثلاثة بعجائبها كما هي موجودة بسحرها، أبو الهول يقف حارسًا جبارًا وكأنه يتجهز للانقضاض على كل عدو يفكر في الاقتراب، يؤكد أن كل مستعمر مصيره الهرب بذيول العار والهزيمة!

سار محب أمامها يمسح الطريق بعينيه وعقل متيقظ، وعلى البعد لاح معسكر التخييم كما هو، حتى النار لم ينطفئ جمرها بعد! ضربهما العجب وعدم الاستيعاب، وقد كان فك شفرات عودتهما أقسى بكثير من سفرهما إلى الماضي.

قالت: «لم يتغير شيء!».

رد: «ادخلي الآن واقبعي مكانك، وفي الصباح سنرى ما سيحدث».

– وماذا عن الأثر؟ أتصدق أننا لم نترك بصمة؟! وآسينيت؟ كيف سأطمئن على مصيرها؟

مصيرها؟! هل تمزح أم تعلُّقها بالفتاة جعلها تتناسى أن كل من قابلهما أصبح ترابًا من عبق الماضي؟!

تساءلت بهذيان: «كيف يمكنك التماسك ونسيان كل شيء في لحظة وكأنهم لم يكونوا قط؟!».

اقترب محب مبتسمًا ببطء ممرِّرًا عينيه حولها، ورغم جنون مظهرها بعد الرحلة لم يتذكر إلا بريقها هناك، كل مشهد لشجاعتها وجرأتها وسحرها اختزنه في ذاكرته وسجَّله ليبقى حيًّا، عفويتها وشغفها حين داعبت الصبيان ذوي الغمَّازات والابتسامة المشرقة.

قال: «كوني متأكدة أني سأجد الطريق إلى هذا، نحن هنا لأنهم كانوا هناك يا با–هية».

***

أثر الفراشة!

«لا يمكنك إزالة حبة رمل واحدة من مكانها

دون تغيير شيء ما عبر جميع أجزاء الكل اللامحدود».

- يوهان فيشته.

ربما كل شيء كما تركاه تمامًا في الظاهر، ولكن هناك شيئًا مختلفًا استشعرته في أعماقها، أم ربما تغيرها إلى النقيض طغى على أحاسيسها!

سألتها زميلتها مروة باهتمام ملاحِظة تشتتها: «هل أنتِ بخير؟».

كيف ستخبرها عن التخبُّط الذي تعيشه وأنها تشعر بعدم انتمائها إلى هذا الزمان رغم يقينها الثابت الآن بترسخ جذورها في هذه الأرض منذ فجر التاريخ؟ لن يصدقها أحد، ستُتَّهم بالجنون كما قال محب.

قالت: «بخير».

لم تقتنع بالإجابة رغم استمرار هبوطهم إلى الموقع، كانت بهية دون ابتهاجها أو شغفها المعتاد، بداخلها هوة كبيرة تعلم سببها، افتقدت آسينيت بوجهها المشرق صباحًا وحديثهما الممتع، ضحكاتهما ومواعظها واندفاعها، الروح تهفو إلى إيزيس وظهورها الدائم على غفلة، حكمتها وغموض حديثها، وحثها على التحرر من قيودها العقلية لتظهِر جوهرها الحقيقي.

حين وطئت أرض الموقع قفزت تقريبًا من فوق السلم الخشبي واصطدمت عيناها بعينَي محب، وكأنه ينتظر ظهورها، ارتجفت لبرهة تأثرًا ومر بعينيها طيف كلماته الواعدة واعترافه بالحب! هل اعتراف محب كان حقيقيًّا وسيبقى؟ أم سيُمحى ذكره وكأنه لم يحدث كرحلتهما إلى الماضي؟!

ساد الصمت لدقائق طويلة وعيناه لا تحملان إلا الجمود وقد خلتا من العبث.

قال بحزم الرئيس: «تأخرتِ».

اعتذرت بهدوء وكأن كل ما مرا به لم يكن: «آسفة».

هز رأسه بلا معنى وأعطاها جهازًا لوحيًّا يسجلون عليه ملاحظاتهم، استلمته بوجه شاحب قبل أن تدور عيناها أخيرًا في أرجاء المقبرة، صححتْ: (لا، بل معبد العاشق، معبد أوناس).

انقلبت رسوم الجدران الجنائزية إلى أخرى سعيدة، رسوم لفرقة موسيقية تعزف وأخرى جسدت إيزيس تحمل دفًّا، لهثت أنفاسها وأسرعت نحو تجسيد آخر تتلمسه بحنين وانتصار.

وقالت: «آسينيت! آسينيت ليلة زفافها يا محب».

نظرة محذِّرة وإن زاره الإشفاق هي كل ما منحه لها بصمت.

ورد أحد زملائها ضاحكًا: «وما الجديد؟ وكأنك لم تترجمي قصتها المكتوبة بنفسكِ!».

تشككت: «أي قصة؟».

رد آخر بمرح: «يبدو أن الأخت بهية ليست في كامل تركيزها اليوم».

أشار نحو تمثالين موضوعين لعاشقين، رجل في زي محارب يشهِر قوسه بذراع، بينما ذراعه الأخرى يحيط بها امرأة ترتدي تاج إيزيس، تجلس فوق العرش!

هزت رأسها برفض، هذان لم يكونا هنا، هي متأكدة أن الموقع كان شحيح التفاصيل يختصر الحكاية بسرد حرب ربحتها آسينيت، وتمثالاهما هي ومحب، الآن تعرف بيقين أنها حاملة الكتاب وهو الدليل الممتزج بجسد سوبيك.

اختطفت نظرة نحو التمثالين ووجدتهما ما زالا وإن زاد على تجسيد محب امتزاجه بسوبيك ووضع تمثال لتمساح شامخ خلفهما وإيزيس تحيطهم.

همست بنبرة حزينة: «سوبيك!».

تسمرت مروة بجانبها من جديد وقالت بقلق: «بهية، ما بكِ؟».

أشارت بحزن قائلة: «هذا سوبيك ملك النهر الذي قدَّم روحه لأوناس فداءً».

ردت مروة بحيرة وأعين الجميع معلقة بها: «نعرف يا بهية، وقد فهمنا بعد معاناة أنها أسطورة أخرى جسدت معبوداتهم».

هاجمت بشراسة: «لم تكن أسطورة، ولم يكن لهم معبود إلا الله الصانع الواحد».

الجميع ينظر إليها بحيرة متصاعدة متسائلين، هل انهار عقلها وخلط بين الواقع والخيال؟ فهذه حالة نفسية يدخل فيها العديدون من المنقبين عن الآثار!

أجفلت عندما واجهها محب بنظرة تحذير أن تصمت.

فهمست بصوت لم يسمعه سواه: «هذا لم يكن موجودًا قبلًا، أنت تعرف، فما مررنا به لم يكن حلمًا!».

لقد شكت بادئ الأمر أن يكون فعلًا حلمًا تداخلت فيه مشكلاتها الخاصة، ولكن نظرة الاعتراف والتأكيد في عينَي محب قطعت الشك باليقين، لا يمكن أن يحلما بالحلم نفسه معًا.

طلب بهدوء: «اتبعيني يا أستاذة با-هية».

وبدل التخبط والحزن اللحظي من رسميَّته أشرقت كالشمس عندما تلامس غيوم الخريف وتبعته.

أخذ نفسًا عميقًا ونشر أمامها مخطوطات وملاحظات عديدة بخط أيديهم، تفسيرات عن أسطورة خيالية تحكي عن حرب بطولية، حرب هجوم لا دفاع.

هزت بهية رأسها بالرفض تحدق إليه بعجز وتقول: «تعلم أن هذا جديد. قبل سفرنا لم نصل إلى هذه الحقائق، لم تكن أسطورة يا محب!».

- أثر الفراشة. أتعرفينه؟ تدخُّلنا غيَّر الكثير من الأحداث ودفعهم إلى تسجيل كل شيء بوضوح وصراحة هذه المرة.

ردت بحنق: «ولكنه لم يؤثر في المُدعين الأوغاد، ما زال الأفروسنتريك واليهود يدَّعون ملكهم لأرضنا! يجب أن نُخبر العالم بما رأينا وبالدليل».

ساد الصمت للحظات طويلة أخرى قطعها بنبرة خشنة: «لن يصدقنا أحد، ما مررنا به لم يحدث قط يا با-هية».

تلاشى العجز والسلبية وحل الجمود فوق صفحة وجهها وسألته: «سنصمت إذن ونترك لهم تزوير تاريخنا، هل هذا ما أمَّنك عليه أوناس؟!».

- سنجد طريقة لإثبات ما نعرفه.

«معروف للقاصي والداني أن مِصر أول دولة مركزية في التاريخ، ولن يؤثر في حضارتها حفنة من الرعاع سارقي الهوية».

دارت بعينيها من جديد في أرجاء المكان كما فعل محب تمامًا، كللت وجهه ابتسامة حنين وضاءة وتذكر أول مرة قابل بها أوناس، كان يستند على هذا العمود يعزف الناي للطيور والجوارح الساجدة بين يديه!

أخرجت بهية دفترها تُقلب فيه بلهفة صفحة صفحة بحرص شديد.

ثم وضعته بين يدَي محب وهتفت بمحاولة أخيرة: «لم يتغير من صفحاته شيء، ها هي ذي تسجيلاتي القديمة قبل أشهر طوال، وهذه رسوماتي وكل التفاصيل عن الحرب، كل ما مررنا به هناك يا محب».

حرك رأسه بأسى من محاولتها معدومة الأمل، وهتفت بيأس: «كان حلمًا إذًا وانتهى بغير عودة».

قال على الفور بصوت أجش: «أكثر ما يخيفني منذ إدراكي لرجوعنا أن يكون واقعنا هناك بين الرخاء والنماء والاتحاد على حب الأرض والهوية، وأن هذا المستقبل ما هو إلا كابوس مريع مرعب علقنا فيه إلى الأبد».

تفهمه، فما قاله هو أكثر ما يرعبها منذ استيقاظها من غفوة كريهة، هي لا ترغب في أن تنتمي إلى هذا العالم، وأن تنتهي في هذا الزمان!

زمن المدمَّرين المجاهدين في عالم مملوء بشرور النفس، عالم استسلم فيه البشر عن الدفاع والقتال لترميم تصدع ترابطهم واعتزازهم بهويتهم، التاريخ يمحو المتهالكين المشكِّكين، والدنيا لا تسلب متاعها إلا من السلبيين المتفرجين.

***

سمح رؤساؤه بانضمام بهية إلى فريق الغرفة السرية عند قدم أبي الهول، لكن كما أخبرها، أثر الفراشة كان واقعًا، إذ تعجب رئيسه المباشر من وصفها بالسرية، فانتماء أبي الهول إلى عصر ما قبل الأسرات معروف ومشهور، لقد بُنيَ منذ ما يتعدى الاثني عشر عامًا بأيدي مصريين قدماء اختفوا لسببٍ ما، ربما لاحتمالات دينية أو تطور طبيعي للأجناس عبر الأزمان، وعادوا بالطبع بعد قرون وجددوا

حضارتهم، وهذا تفسير طبيعي ومنطقي لعظمة الحضارة المعروفة، إذ إنها بدأت من قبل العصر الحديث للأسرات المتطورة واستمدوا من أجدادهم العلم والفن في شتى المجالات.

شعر محب أن لإيزيس يدًا مباشرة في تغيير مصير أبي الهول الذي حيكت حوله الشكوك، إذًا لم يعد مكانًا لتلك النظرية المتعارف عليها أن التمثال يجسِّد الملك خفرع، طبعًا ما زالت لوحة الحلم موجودة وتجديد الملك خفرع له موثَّقًا!

يبدو أنه سيكتشف المزيد من التغييرات إثر رحلتهما، ولكنه الآن في الحدث الأهم، فترتيب إيزيس لرموز البوابة وراءه رسالة لا لغز، ويرغب بقلبه وعقله في منح بهية حفيدتها هذه الفرصة، أن تصنع مجدًا يخصها علَّها تهزم سلبيتها وتنفض قيود أسرتها غير العادلة، ربما هناك تغيير، ولكن ما زالت الأغلال الناعمة المقيدة للنساء لم تُكسَر بعد.

بعد عدة أيام حاول فريق متخصص ومعهم بهية محاولة جديدة لفتح الغرفة التي لم تُفتَح رغم علمهم بها منذ سنين، فشل علماء الآثار في فتحها، حتى الباحثون من الأجانب المعتدين مسلوبي الاحترام لعظمة الأجداد لم يفلحوا في تفجيرها أو إحداث ثقب فيها.

همس أحدهم لمحب مراقبًا بهية بشك: «ما الذي يجعلك متأكدًا من قدرتها دون غيرها؟!».

مط فمه بلا معنى وأجاب باختصار: «لديَّ حدس».

راقب بهية التي وقفت مع باقي الفريق المختص تتفحص الباب وكأنها تراه لأول مرة.

وتابع بجفاء: «كما أنها أثبتت قدراتها، الأستاذة تجيد عدة لغات قديمة بعضنا يجهلها في الأصل، ترجمت كل كتابات المعبد هنا وفي موقع أسوان، وقد أقر العديد من الخبراء هنا وفي الخارج صواب ما فسرته».

سأل زميله بهدوء: «هل تصدق بالفعل أمر التعويذة المرصودة؟! إن فعلتَ فلن نكون علماء، بل دجالين».

ضحك محب وردد في عقله مقولة أوناس: (الجهل شر يقيِّد إرادة الإنسان ويمنعه من تحقيق حلمه، الجهل سبب دمار الأمم وضياع تاريخ الأوطان).

لا يعلم كم ساعة مرت وهم بالأسفل، كما لم يعرف أحد في هذه اللحظة ما الذي حدث بالضبط، ولكن محب يعلم!

قرأت بهية، كتبت وكتبت، رتبت، علَّلت وشرحت النقوش المكتوبة بكل بساطة، وفي لحظة أخرى راقبوا أصابعها التي تتلمس النقوش البارزة، وكأنها تغازل حبيبًا طال شوقها إليه قبل أن تتوقف يداها فوق دائرة إيزيس تتلمس اسم آسينيت.

وهمست: «أفتقدكِ. ليتك هنا لترشديني».

هواء ساخن وبارد لفحها وطيَّر الأدوات الثقيلة كريش يتمرجح في الهواء، ريح غير مفهومة هزت وجدان الفريق كله وأصابتهم برعب حقيقي، بدأ بعضهم يبتعد وكأنه يستعد للفرار، وبخاصة عندما اهتزت بهية كلها وابيضت عيناها اللتان ارتفعتا إلى السقف وخرج من حنجرتها صوت ثقيل مرعب وهي تردد كلمات تعويذة غير مفهومة لهم، تعرَّف محب عليها، فقد سمعها من إيزيس قبلًا و...

أخيرًا تحركت البوابة وأصدرت ضجيجًا مدويًا نعر له تمثال أبو الهول وملأ الدنيا بصوته معلنًا عن اكتشاف كنزه الأعظم، وأن ما هو آتٍ سيقلب مجرى التاريخ!

أدخلوا الآلة المصوِّرة، واختبروا بمعداتهم الخاصة خلو الهواء من السموم، وتأكدوا من عدم وجود فخاخ مميتة وسُمح أخيرًا بعد يومين أن تخطو أول قدم بشرية الغرفة الموصدة منذ آلاف السنين. لفتهم الرهبة وقدَّموا قدمًا وأخَّروا عشرًا.

تشرفت بهية بهذا الحدث العظيم يسبقها قلبها وكل خلية فيها، واقتحمت دون رهبة، للحظات تسمرت وأمنية تداعب قلبها، هل ستجد طائرها في مكان ما قابعًا هنا؟! الحلم والتمني شيء وما وجدته كان له مذاق الانتصار الأجمل.

مخطوطات عتيقة لم يُستخدَم فيها ورق البردي، بل شيء آخر ما بين البدائي والمطوَّر، مادة جديدة مؤكد سيعرفونها لاحقًا، مجسدات للملوك، وربما أشخاص تميزوا في ذاك الزمان، ربما لم تكن متقَنة الصنع كالآثار المشهورة، لكن الطابع المصري فيها، الدقة وجمال التفاصيل وروعة الألوان وتناسقها، ذهب خالص وتيجان للملكات متراصة هنا وهناك، لكن لا أثر لمومياء وكأن الغرفة أُعدَّت كخبيئة لكشف المستور، لدحض كل ادعاء من معتدٍ جبان برسمٍ مكشوف لنهر النيل ومعركة دارت حوله!

إذًا الخطر أقدم حتى من عصر آسينيت وأوناس! ثم تجسيد لتمساح يهاجم على قدمين.

قال محب خلف ظهر بهية: «سوبيك العزيز، هذا يفسر قوله حاميًا لسنين».

فضحكت ثم بكت بكل ما يُعتمل في قلبها.

وهمست: «مهما قلتُ شكرًا لن أوفيك حقك».

تأمل وجهها بتمعن وهدوء وقال: «لم أفعل شيئًا يا با-هية، فالبوابة لن تفتح دونك».

لمست حجابها بحركة مضطربة خجولة وتمتمت: «ودونك لم أكن لأصل إلى أي شيء، لم أكن لأحصل على مغامرة عمري، وكنت سأعود إلى حياتي وضعفي مستسلمة لقدر أبغضه».

انخفض قليلًا متظاهرًا بالإشارة إلى شيء وهمي وهمس بنبرة خشنة مدغدغة: «ومن أخبرك أني سأسمح لكِ بعد أن وجدتك؟!».

توتر جسدها، جلدها اقشعر وعيناها اضطربتا في إشارة للخطر، إنها غارقة تتمنى النجاة، تحتاج إلى أرض ثابتة لتستقر وتغلق هفوة قلبها.

سمعت أحدهم ينادي: «أستاذة بهية».

قال محب بهدوء مبتسمًا: «اذهبي يا با-هية، حَلِّقي يا ساحرة العقاب بحرية حتى تتعبي وتحطي في مملكتي».

تحركت بظهرها وعيناها منخفضتان أرضًا بحياء، بينما أنفاسها تخرج بهوجاء، وملكت القدرة على الاستدارة أخيرًا وركعت بجانب أحد الزملاء، الذي أشار بحرص رغم الذهول نحو تاج لقرص الشمس محاط بقرنَي بقرة.

قرأت بهية بصوت عالٍ وواضح: «هنا حكمت الست العظيمة إيست أم الملوك راعية الملكات».

تجمد كل من بالغرفة للحظة حتى وجد أحدهم صوته وقال: «كانت أسطورة ولم تكن حقيقة، هذا ما نعرفه».

رد محب بصوت هادر وقاطع يقرأ عبارة مكتوبة على جدار كامل وخُتمت باسم إيست أم الملوك: «لا تسمحوا للخديعة أن تسيطر عليكم، كل الأشياء الظاهرة لا تعكس الحقيقة، ولكي تذهب اللعنة الأبدية عنكم يجب أن تضعوا أيديكم على مفتاح الحقيقة».

***

مضت شهور يتباحثون، يتفحصون ويدرسون بدقة قبل الإعلان للعالم عما عُثِرَ عليه من تاريخ الأجداد بأيدي الأبناء، ليقلب مجرى التاريخ ويدحض الكثير من البِدع التي حُكيَت عنهم.

كما أنهم وجدوا في الغرفة ما يثبت بشكل فعال وقاطع أن جنس الأفروسنتريك بالذات لم يدخلوا إلى أرض طِيبة إلا أسرى مقيدين، وحتى حينها لم يقبل الحكام بوجودهم في السجون أو التعايش بينهم، رغم تاريخ مصر الطويل المرحِّب بالغريب واحتضان اللاجئ!

لكنهم كانوا سمًّا سيتوغل بالمكر الأخطر من حد السيف إن اندمجوا مع أبناء الشعب وتزاوجوا وذابوا بينهم، وحينها سيكون لادعائهم أصل.

أخذت بهية نفسًا طويلًا تُعيد قراءة رسالة كُتِبَتْ لها منذ سنين على ورق البردي، لقد وجدتها هناك وأخذتها خِفية قبل أن يراها أحد.

لقد وجدوا أيضًا بعض الآثار لفترة حكم آسينيت، مما جعلهم الآن يشكُّون في أمر أن القصة خيالية، ويصدِّقون أن قصة عشق آسينيت وأوناس كانت حقيقة مؤكدة، وأيضًا أخبرتهم الآثار التي تركوها أن الغرفة فُتحت في زمانهم.

ابتسمت من بين الدموع للكلمات الرقيقة والداعمة، حتى هنا لم تتركها آسينيت، بل أرسلت إليها ما يقويها، وبخاصة مع الحدث الوشيك.

توسعت ابتسامة أخرى على وجه بهية تقرأ سطور آسينيت للمرة المئة: «أتت أميرتنا الأولى، منحتُها اسمك، با-هية. لا أعرف ما حدث معك يا با-هية أو متى سترين كلماتي، ولكني أوصيكِ بكلمة أخيرة، لا تظلمي قلبك، فالحياة لا تستحق أن نحارب أوهامنا، فهي أقصر من أن تقضيها في البكاء على حلم لم

تسعي إلى تحقيقه بالأساس، محب يحبك با-هية، فلا ترفضيه، بل حين يأتي إليكِ متعبًا لاجئًا أحسني إكرام قلبه».

برطمت بحنق قليلًا: «لم يأتِ، يكتفي بكلمات العشق، يعتقد نفسه أوناس العاشق بسلامته».

مررت عينيها على السطر الأخير ورددت لنفسها قبل أن تخرج إلى المؤتمر الصحفي العالمي: «أرجو أن يكون الخطر قد زال عنكم، وأن تستعيدوا مجدكم، ذكِّريهم يا با-هية، القوة تجابَه بالقوة، الضعف يجلب المصائب، أطرق بيد من نار ودافع بيد من حديد».

أغلقت عينيها قليلًا تتذكر أن هذه الجملة بالذات نُقشت داخل المعبد مع رسم لأوناس ممسكًا برأس جان-تتديم ذليلًا أسيرًا.

ظهر محب يمد يده لها ويقول: «بهية، لقد حان الوقت».

ترددت للحظة في تقبُّلها، لكنها في النهاية لمست بأناملها أصابعه للحظة بسيطة، لمسة كالنار عزفت وعود الحب والإخلاص بما يُغنِي عن مئتي قصيدة.

***

(رؤى العين خداع، ورؤى القلب تيم).

تأملها ببصيرة القلب مبتسمًا بحلاوة وقد ودعت ارتباكها وتوترها مع بدء المؤتمر الذي أعلنوا فيه بشكل رسمي عما وجدوه في غرفة أبي الهول السرية.

حاول أن يمنحها السند والقوة والعزيمة لتنطلق، وقد خط اسمها بحروف من نور ونسب لها الفضل في الاكتشاف، وفتحها للغرفة الموصدة لآلاف السنين، وقد فشل المئات في اختراقها، ورغم كل ما فعله وقاله لم يتبدد خوفها وشكوكها إلا عندما رأت والدها وإخوتها الرجال الثلاثة يتقدمون منها مهنِّئين بفخر يشجعونها لأخذ خطواتها إلى النهاية.

شارك كبار المسؤولين في المؤتمر وعلى رأسهم عالم مصريات معروف بمكانته، وقد تولوا إعلان حقائق ما وجدوه داخل بطن أبي الهول بتصريحات حصرية، وأكدوا أن كل أفراد البعثة هذه المرة من أبناء البلد، ولم يكن بينهم لأي يد أجنبية فضل في اكتشافاتهم.

نقل محب عينيه من جديد بين بهية ووالدها، ونظرة الرجل الحنونة المزهوة بازدهار، رغم عينيه الدامعتين ذكَّرته بطريقة ما بأوسركان.

الأب يبقى أبًا سواء ملك أو رجل بسيط، هو يعلم أن والد بهية ذا الخلفية الصعيدية مثله مهندس متعلم ومطَّلع وله مكانة بين أبناء بلدته، وربما كان هذا العامل الأكبر لتقييد مستقبل ابنته والسماح لها بالخروج عن قيد العادات والتقاليد خوفًا من كلام الناس.

(ألا تبَّت ألسنة الناس وحبهم للخوض في الأعراض دون حق)!

تنبه منصتًا لأحد الصحفيين الأجانب يسأل بسخرية مبطنة: «أنتم تريدون القول إن آلهة المصريين كانوا حقيقيين وإن الأساطير قد حدثت؟».

ردت بهية بهدوء وروية: «بل ما بسطناه أمامك ينفي فكرة الآلهة في المقام الأول، ويثبت وجهة النظر الأولى، أنهم استخدموا لفظ الإله لإعلاء شأن ملك أو عالم حقَّق إنجازًا، ولكن قدماء المصريين كانوا يعرفون جيدًا أن هناك قوة أعظم للخلق».

رفع آخر يده وقال: «ولكن ما نعرفه أن الفراعنة قدَّسوا آلهة خياليين، وكل ما كُشف سابقًا من حضارة لن تنفيه غرفة اكتُشفت حديثًا».

تولى محب الرد الهادئ الثقيل، ببرود أعصاب استفز احتراق بهية على الجمر: «أولًا هم ليسوا فراعنة، ولم يرِد لفظ فراعنة في أي بردية أو نقش على حجر مصري قديم، وكل ما وُثِّق بالأدلة خمسة ألقاب أُطلقت على ملوك قدماء المصريين، «سا-رع، نب-تا-وى، نسو-بيتى، حر-نو، وحر»، ثانيًا الغرفة المكتشفة بها ما يكفي لدحر جميع الاتهامات، تثبت بالدليل القاطع أن تعاقُب الحضارة المصرية ومصدرها كان منذ فجر الإنسان الأول على الأرض وبعرق مصري خالص».

وقف ثالث أسمر البشرة بملامح وجه عِرقية مكشوفة متحدثًا بالإنجليزية متهِمًا بعدوانية: «سارعتَ لخلق القصص حول أجداد وهميين لعِرقكم، زوَّرتم حقيقة واحدة أن إيزيس الإلهة قد أتت من أرض الآلهة أثيوبيا، لذا فإن وجود أبي الهول يثبت أن العِرق الأقدم لم يكن موجودًا، بل سطا محتل غاصب سارق حضارته من أبناء إفريقيا».

صدرت الهمهمات حتى إن بعض الصحفيين ذوي العرق الأبيض دعموا قوله. لم يهتز محب أو بهية وقد ترك لها الرد أولًا.

قالت: «الاتهام والمساس بحضارتنا ليس جديدًا، وقد دعم الإيمان به الجانب الغربي عامةً بعد الحرب الأهلية الأمريكية، وكلنا بالطبع نعلم أن العِرق الأبيض شجع معتقدات العبيد حتى يشعرهم بزيف عراقتهم، دسوا في عقولهم الأكاذيب وبخاصة بعد كتاب «التاريخ الزائف» لإريك دانكن، لذا محاولة الأفروسنتريك المستميتة لم تعد بتلك الأهمية، ودعني أخبرك دليلًا علميًّا على كلامي».

زفرت نفسًا ساخنًا تسيطر على وحشها الصارخ بنهش كل مشكِّك، تلاقت عيناها بعينَي أخيها الأكبر المبتسم بهوادة رافعًا إبهاميه مشجعًا كما والدها الدامع العينين بهدوء.

دعم احتاجت إليه حين قالت: «ملامح العِرق الزنجي معروفة، شفاه غليظة، وعين مستديرة، وأنف عريض، وإن توسعنا بنظرة شاملة لن تجد هذه الملامح على بقعة صغيرة من جدار ينتمي إلى القدماء، وإن أردت حصر النظرة في غرفة إيزيس عليك أولًا تأمل الصور الملتقَطة».

وأشارت نحو شاشة العرض الضخمة التي ثبَّتت صورة لإيزيس وآسينيت بالذات.

وتابعت: «انظر، عينان مسحوبتان بجمال، أنف صغير وشفاه رفيعة، وأما عن لون البشرة فستجد أنهم حاولوا دمج الألوان بصعوبة لتأخذ ألوان البرتقالي أو الخمري كما نطلق عليه الآن، رغم أن اللون

البني كان متوفرًا بكثرة وأسهل!».

أصر بعناد: «مجرد أكذوبة لنفي عِرقنا، ككل أكاذيبكم».

رفع محب حاجبيه إلى أعلى ساخرًا رغم هدوء أعصابه وإجابته العملية المتمكنة: «ربما كانت ستفلح حجتك الزائفة عن العصر الذي تبعهم، لكن ما يحتوي عليه أبو الهول قطع الشك باليقين وأثبت أن العِرق المصري هو من حكم مصر منذ بداية وضع قدم الإنسان الأول على الأرض، انظر وقارن، الملامح نفسها لم تتغير، التفكير نفسه، وحتى المسيرة للحرب ضد المعتدين من الجنوب، بغرض اجتياح الأرض واغتصاب خير نهر النيل، لم تختلف كثيرًا عما احتوت عليه قصة العاشقين بعد عهد إيزيس ومن سبقوها ومن بعدها بآلاف السنين».

صمت وأخذ نفسًا عميقًا وزفره بعنف رغم قوله البارد مبتسمًا: «قصتان في موقعين مختلفين في البقعة نفسها، الفرق بينهما تعاقب أجيال لآلاف السنين، ولكنهما اشتركا في شيء واحد، حب الأرض والفخر بالهوية والدفاع عنها حتى آخر نقطة دم، وترابط جميع الطوائف وإيمانهم بقضيتهم».

- من الطبيعي أن تدافعوا عن خلفيتكم!

ردت بهية بقوة: «خلفيتنا معروفة لا تحتاج إلى الدفاع، بل لدحض الافتراءات، ورغم اكتشاف عظيم كهذا ما زال المشككون لا يدخِرون جهدًا لنشر الزيف والافتراء، والحقيقة أن الأمر كله يختصر أن العِرق الأبيض يتفوق دائمًا، لذا من غير المعقول أن يكون عِرق آخر أقام حضارة كهذه، فكرة عملتم عليها لسنين عديدة وروَّجتم لها بصبر وخبث حتى أصابت أجيالًا جديدة بالشك وتصديق أنهم عِرق أدنى، ومن غير المعقول أنه بنى حضارة عظيمة كهذه، ومن هذا المبدأ أيضًا اعتمدتُ على الترويج إلى أن حضارة شمال إفريقيا المصرية أو الأمازيغية تنتمي إلى الأفروسنتريك، أو أسوأ، إلى بني صهيون».

ربت محب بيده على سطح الطاولة خلسة يذكِّرها بالهدوء والتروي، فهم علماء ويجب ألا ينجرفوا مع الاستفزاز.

وقف مراسل آخر وقال بخبث: «لا أحد يستطيع إنكار أن بني إسرائيل ساهموا في بناء الأهرام كعبيد».

انفجر محب في الضحك الساخر قاصدًا، وتنحنح قبل أن يمسك مكبر الصوت من قاعدته ووقف يجيب ببرود شديد.

قال: «عذرًا، ترديد هذا الادعاء يصيبنا بالضحك، لكني سأجيبك باختصار، أولًا لو اطلع اليهودي المخلص على كتابه لوجد أنهم دخلوا مصر وهي بالفعل دولة مركزية وحضارية، ذات جيش نظامي وحدود يحرسها جنودها، قصورها مشيَّدة ومعابدها وأهراماتها. ثانيًا أنصحك بزيارة المتحف والاطلاع على «بردية ميرير»، التي تقص بالتفصيل مراحل بناء الهرم وكيفيته، وأن العمال والبنائين كانوا مصريين يأخذون أجورهم كاملة، كما أنهم شاركوا بمحض إرادتهم، إذ كان عملًا قوميًّا يُخلِّد ذكرى ملكهم الذي يحبون، أي لم يوجد عبيد هنا بالأساس ولا فضائيون خارقون أو قوم عمالقة، أم أنكم تتهربون منها قاصدين؟».

- هذا اتهام لا أسمح به.

رد ببرود شديد وثقة ولم ينجرف مع استفزازه: «لكنكم تسمحون بالتشكيك في حضارة بلادي ونسبها إلى آخرين بالقوة، عنصريتكم لا تستوعب في الأصل أن هناك من تفوق عليكم وجذوره ممتدة في الأرض، كان أجداده ينشرون العلم حين كنتم أنتم تأكلون لحوم بعضكم بعضًا، وهذا وصف دقيق غير مجازي، «إنسان شيدرمان» دليل حي على كلامي. هذا تاريخنا وهذا تاريخكم، فما ردك غير التشكيك؟!».

صدرت همهمات أخرى مدوية سرعان ما سيطر عليها تدخل رئيسهم المباشر حين قال باتزان وهدوء بارد: «نحن هنا لنجيب عن التساؤلات حول اكتشافنا لتاريخ ظاهر وموثَّق في كل زمان ومكان، هنا ليس مكانًا لمناقشة ادعاءات».

عم الهدوء من جديد وسمح لصحفي أن يطرح سؤاله بلسان عربي أخيرًا: «نحن نحترم الاكتشاف، بل وفخورون به، لكن دعني أوجِّه سؤالًا مختلفًا، ما الذي يحصده الشعب من حضارته في حين أن القوة العلمية هي من تحكم الآن؟».

كان محب هادئ النظرة واثقًا، بارد باستفزاز، يحافظ على رباطة جأشه.

قال: «دعني أخبرك في البداية أننا ندرك ما يُسمى بالأمية الحضارية وانعدام تأثير عمق التاريخ الحضاري للأمة، تفصل حاضره تمامًا عن حضارته الرائدة. الواقع أن أسياد عالم اليوم لا يملكون تاريخًا حضاريًّا، وإنما واقع ريادة العلم والمعرفة، القوة للتقدم العلمي في هذا العصر وليس التاريخ، وهنا نصل إلى نقطة البداية، ما الذي قد يعود علينا بإثبات ما هو مثبَت بالفعل؟! دعني أخبرك بأن دورنا أن نؤكد يقين الناس بتاريخ جمع الحضارة والعلم معًا، نذكِّرهم كيف كان أجدادهم روادًا وأننا لم نكن يومًا جنسًا متدنيًا، بل عظيمًا، علَّنا بتذكيرهم وإشعال همتهم ننهض من جديد ونخلق حضارة أخرى تبهر العالم كما بهره أجدادنا لآلاف السنين».

أتاح لرئيسه الكلام بهدوء مؤكِّدًا على كلام محب: «التاريخ في العالم الجديد سيكون تاريخ العلم، ولكن باكتشافنا هذا قد نستطيع دمج الاثنين معًا، فشعب بحاضر بلا ماضٍ لا مستقبل له».

أشار محب إلى عرض صور أخرى لرسومات جدارية للملابس وبعض الصنادل والأحذية، انطلقت الأضواء تسجِّل ما عرض وقد كشف عنه أول مرة.

سؤال: «هل سترسلون الآثار المكتشَفة للفحص بالخارج؟».

رد الرئيس بهدوء رغم المكر في نبرته: «لقد حدث هذا قبلًا وانظر إلى النتيجة! سطوا على آثارنا وعرضوها في متاحفهم مختالين بتاريخ ليس لهم، لذا لا، لن تخرج أي قطعة أخرى من البلاد».

- نعتبر هذا تصريحًا؟

أومأ الرئيس المباشر موافقًا.

انطلق سؤال آخر: «ما هو تصورك للصور المعروضة وما الغرض من الكشف عنها الآن؟».

تلاعب وجه محب متخليًا عن الوجه الجامد الحكيم حين قال ساخرًا: «كما ترى، الرسومات تعبِّر عن ملك يمسك رأس أحد الأسرى بمطرقته، والأحذية طُبع فوقها صور لأسرى مسلسلين، لذا أنا من يسأل هذه المرة، إن كان الأفروسنتريك حكموا مصر في أي زمن، لماذا يصوِّرون أنفسهم كأسرى مقيَّدين خاضعين منهزمين تحت أقدام المحاربين؟! وسؤالي الحائر بصراحة، إن كانت الحضارة المصرية تنتمي إلى أي عرق من المدَّعين، لماذا لم نرَ هذا الزخم التراثي في أي بلد آخر؟!».

ساد الهرج من جديد ولكنه وقف ممسكًا بيد بهية وردد جملة واحدة: «إن أنصتم جيدًا ستسمعون الماضي يهمس لكم، كل حجر في هذا البلد يحمل سطرًا من التاريخ».

وقف الرئيس معلنًا بهدوء: «لقد انتهى الوقت المخصص وأعتقد أننا أجبنا كفاية. في النهاية نريد الثناء على عالم المصريات السيد محب البوادي، والأستاذة بهية الحوارسي، لولاهما وفريقهما من الباحثين ما خرج اكتشافنا المذهل إلى النور».

همَّ الجمع بالمغادرة لكن الصحفيين طاردوهم بسيل من الأسئلة:

– سيد محب، ما هو شعورك الأول عند اكتشاف المقبرة؟

بهدوء: «لا جديد، ما زال المصريون يذهِلون العالم، ولا تزال مصر تبوح بأسرارها وكنوزها كل يوم».

غمز بعينه بمرح ثم أضاف مصححًا ببساطة: «ليست مقبرة، وإنما مخبأ من الأجداد لإزالة آثار الشوك عن وهج شمسنا المصرية».

– آنسة بهية، هناك من يتحدث عن تعويذة مكَّنتك من فتح البوابة، ما ردك على هذا؟

– غير صحيح، الناس دائمًا تميل إلى خلق الأساطير، الغموض يلهب حواس البشر لتقبل فكرة أكبر من استيعابهم.

سُئلت عن شعورها أيضًا! فنظرت إلى والدها وابتسمت ثم أجابت بفخر: «أولًا والدي من زرع هذا الحب والشغف بتاريخ بلادي في نفسي، له الفضل الأول أن أصل إلى هنا، علَّمني انتمائي إلى تاريخي وإرثي والفخر بكوني مصرية، وإني... إني أتشرف بكل كبرياء لانتمائي الكامل إلى امرأة وملكة كإيزيس وآسينيت، الشعور الوحيد الذي اجتاحني حينها أني أقف في حضرة أم عظيمة وأخت قديرة أعرفهما وعشت معهما عمرًا وأفتقدهما، وها أنا ذي عدت لأتلمس طيفهما بإيصال رسالتهما إلى العالم».

سُمح لوالدها بالاقتراب أخيرًا وقد بدت كسمكة صغيرة وقعت في حوض مملوء بالقروش، سحبها يحتضنها بقوة وخبأها داخل عباءته وحجبها إخوتها تمامًا عن الأضواء وعينَي محب المضطربتين بالخوف والذعر.

لقد حانت ساعة الفراق...

– إجابة أخيرة سيد محب، هل تصدق بالفعل أن الملكة سُمح لها بالزواج بمحاربها رغم أنه خارج الأسرة الملكية؟!

هل بعد كل الأدلة ما زال هناك مشككون؟!

أنهى الحوار بجملة أخيرة بها بعض الغموض: «كم في الزوايا من خبايا! الحب بذاته أسطورة، أسطورة إيزيس التي استمد منها العالم أجمع قصص عشقه».

- سيد محب، سؤال أخير، استفسار آخر...

رفع يده بحركة حاسمة فتقدم بعض الحراس لعزله بعيدًا عن الجمع.

***

هل الحب صديق الألم؟ يأتيان مترافقين كصاحبين يختبئان يحتميان ببعضهما بعضًا، لذا لم ترغب في أن ينبض فؤادها قط بمشاعر إنسانية هشة للغاية، فهي تبحث عن القوة واليقين لا الضعف.

بعد أسبوع وقفت بهية في محطة القطار تراقب آلام فراق الراحلين وبهجة لقاء العائدين، لطالما رأت محطة القطار كالدنيا، الناس تلهث لتلحق بها في وقتها المحدد، تنبض قلوبهم بالقلق مع إقلاعها، هل تركوا شيئًا خلفهم أم لحقوا بالقطار الخطأ؟

- هل كنتِ تنوين السفر دون وداعي؟

جفلت للحظة وتحركت عضلة جانب فمها لترسم ابتسامة حزينة.

ودون أن تنظر إليه أجابته: «كان لديَّ حدس أنك ستأتي».

ضمت شفتيها بندم عقب إدراكها لما قالته، لقد بدت بائسة للغاية، بهدوء جلس جانبها محافظًا على مسافة بينهما، لاحظ ارتباكها واحترمه دون أن يُعقِّب.

ضم يديه على صدره وقدماه ممددتان أمامه وقال: «هل حانت ساعة الرحيل فعلًا يا بهية؟ ستتخلين عن كل ما حققتِه ببساطة؟!».

شعرت بطعم العلقم بحلقها وقالت: «وعدتُ والدي أن ألحق به بعد أن ينتهي عملي».

- بقول آخر استسلمتِ كالعادة؟

زفرت بحنق قبل أن تقول بحدة: «قد يبدو التمرد والخروج عن القواعد مغريًا، طريق مملوء بالورود والأحلام، لكننا نغفل بحمق عن تحول الأحلام إلى كوابيس مفزعة».

سكتت تنظر إلى جانب وجهه واعترفت بهدوء مبتسمة: «قد أحمل كل الصفات التي أطلقتَها عليَّ، ولكن الحماقة ليست إحداها».

لم يرُد وإن انحدرت عيناه يتأملها مما أربكها، بدا هادئًا وخاليًا من السخرية، أدركت الآن بكل حسرة أنها أحبت وجهه الساخر أكثر من هذا الموزون الهادئ.

أشاحت متنهدة: «كثيرًا ما نرغب في التمرد على القواعد، نظن أننا إن تحررنا منها سنحظى بسلامنا المطلق، إلى أن نكتشف أن العكس هو الصحيح تمامًا، وأن حريتنا تنبع من وجود أشخاص يحبوننا ونثق

في رؤيتهم، حتى وإن كانت طريقتهم خاطئة خانقة، الكبار لا يحاولون تقييدنا، بل تجنيبنا أخطاء تجاربهم».

لانت ملامحه وما زال يحدق إليها بكسل رقيق، زاد من إرباكها.

غيَّرت الحديث وادَّعت الانشغال بساعة هاتفها قائلة: «هل تعتقد أن ما مررنا به كان حلمًا شكَّله عقلنا اللاواعي بسبب ما أحاط بنا من الاكتشافات؟».

- لا أظن يا با-هية أن وجودنا لشهور هناك، ومرورنا بالتفاصيل نفسها التي نُقشت في قلوبنا لا عقولنا قد تكون بسبب تطرف حلم مجنون.

همست شاردة والحزن يعصف بها: «أحيانًا أفكر بتطرف في الرجوع إلى البوابة وتكرار ما فعلته، والتضرع بكل ما بقلبي حتى يُعِيدوني إلى هناك، أشعر أنه زمني، مكاني الذي فردت فيه جناحيَّ دون خوف يقيِّدني».

- دائمًا يقفز البشر إلى المجهول ويحلمون بقدرتهم على الطيران با-هية.

ردت: «ألا تحلم أنت؟ ألم يؤثر فيك فراقهم؟».

وجمت ملامحه للحظات وقلادة إيزيس المهداة إلى أوناس والمعلَّقة الآن بصدر والدته تتراقص أمام عينيه.

تنهد بأسى وقال: «أنا أؤمن بفكر أعمق، إن تغير تفصيل واحد في الماضي ما كان وجودنا قط، وإن لم يلتقِ أحد الأسلاف بشريكه المقسوم ما كنا وُلدنا قط».

تعالت ضحكتها وقالت: «ولكننا فعلنا، هل تذكر أثر الفراشة؟».

زفر بقوة وأحنى كتفيه يفرك يديه ببعضهما بعضًا ويقول: «أعتقد أن وجودنا هناك كان مقدَّرًا، لنرسم المستقبل بأيدينا، ربما لم نغيِّر الكثير، ولكننا أظهرنا الحقيقة وأزلنا بعضًا من الشوك العالق بخاصرتنا».

تمتمت بجفاف: «أنتَ محق، هذا قدرنا، ومن يستطيع تغيير قدر مرسوم بدقة؟! ربما هذا هو التفسير الوحيد».

عم الصمت مرة أخرى إلا من صوت القطارات المغادرة تعلن فراق القلوب.

بشرود همست مكررة: «رحلتنا كُتب عليها النسيان، ستموت ككل شيء وتُمحى من عقولنا بعد زمن لتصبح شيئًا خياليًّا إن تذكرناه سخرنا، كل شيء يموت، حتى الذكريات».

ابتسمت عيناه وعاد يتأملها دون أن يظهر عليه أي تعبير رغم قوله الذي أربكها: «كل شيء يموت حتى الذكريات، ولكن الحب يبقى يا ساحرة العُقاب».

توسعت عيناها وقفزت من فوق مقعدها بوجل، لا ترغب في تجديد أمل قد سحبه وانسحب منها منذ عودتهما.

قالت: «قطاري، كن بخير يا سيد محب، وداعًا».

منحته ظهرها وغادرت، فهز كتفيه بلا معنى وتبعها بصمت يخفي يديه المرتعشتين بعيدًا عن عينيها في جيبَي بنطاله.

(لم يقُل إلى اللقاء)، فكرت بمرارة وشعرت بلسعة الدموع تتجمع في عينيها، وشعور عارم بالخسارة يعتريها...

وقف القطار وصعدت إلى عربتها المقصودة.

سمعت صوته خلف ظهرها هادئًا جدًّا وباردًا: «كوني بخير يا با-هية».

تسمرت مكانها للحظة وإحساس عارم يغمرها بأنها كانت على وشك الانتصار، وفجأة أصبح كل شيء مظلمًا مريرًا.

حين لم ترُد أضاف بهدوء: «أنت موهبة وإضافة كبيرة إلى مجالنا، لذا أرجو منكِ مراجعة قرارك والتحدث مع والديكِ وإقناعهما بما ترغبين فيه لحياتك، وحينها تعرفين أن مكانك محفوظ بجانبي».

صمت بقصد قبل أن يصحِّح بخبث: «أعني بجانبنا، لقد أوضح الرؤساء بشكل مباشر أنكِ خسارة لا يرغبون في تحمُّلها».

قالت بسخط داخلها: (وماذا عنه جلمود الصخر؟ النذل الذي عشَّمها حرفيًّا وخلا بها كأي ذكر متحرش؟! ماذا عن الوعود والعهود؟ هل كلام الليل مدهون بالزبدة طلعت عليه الشمس فذاب؟).

لكنها حين استدارت قالت: «إن قُدِّرت لي العودة صدقني سيكون مطلبي الأول عدم وجودي معك في أي موقع، فأنت أيقونة لجلب المصائب، لن أخاطر بوقوعي معك في حرب أخرى، مصيبة أن تكون مذبحة محمد علي مثلًا».

ضحك بصوت عالٍ لمعت له عيناه وازداد وجهه الوسيم جاذبية، منطقة خطر غير مرغوبة، لهثت تقريبًا تكررها لنفسها وأسرعت الخطوات للداخل دون وداع أخير!

وقف محب مكانه متجمدًا وانمحى الهدوء والوداعة من عينيه وظهر الغليان والانصهار، كيف لشيء يُفترَض أنه أخذ قرار بانتهائه أن يثير بداخله كل هذا الألم؟

تحرك القطار فشعر معه بانخلاع فؤاده ودُهس بين سككه، وبقي جامدًا عاجزًا عن الحركة، حتى أطلت عليه تجدُّد فيه أملًا قويًّا يستحق الحرب التي ينوي شنها هاجمًا معتديًا.

صرخت تقريبًا وكأنها تحمل قلبها الهش بين يديها مجفِّفة دموعها بكفيها بنزق: «هل تعتقد أن القدر سيقسم لنا لقاءً لرحلة أخرى؟».

لاحقت خطواته القطار المسرع وهتف بكل نبضة داخل فؤاده: «مع كل وهج للشمس سنلتقي، فقدري الجميل أنتِ يا با-هية».

ابتسمت بأمل وزادت الابتسامة بضحكة من القلب متوهجة دافئة رغم الخجل، ضحكة واعدة تكفي لقلب كيانه بالتصميم لتحقيق الوعد.

وعندما عادت إلى مقعدها أغلقت عينيها ترغب في حجز صورته وصوته ووعده لأكبر قدر من الزمن ولسانها يردد بلا شعور: «ليس كل نجاح انتصارًا، ولا كل إخفاق هزيمة».

ربما لم يُقدَّر لقلبها وأحلامها الانتصار بعد، ولكنها مؤكد لم تنهزم!

حيث يوجد الحب النقي لا توجد هزيمة أو ظلام، والآن تدرك أنها عشقت محب بقدر عشقها للتاريخ وإرادتها لتحقيق إنجاز خاص بها دون قيود أو موانع.

كررت بذهول جاحظة العينين: «لقد أحببته!».

أحبت المستفز ذا الغمزة الكريهة الذي تمنت بكل تطرف أن تملك القوة لتطيِّر رأسه، ثم تبدد الذهول للوجوم والألم... إنها أحبته وفقدته، كل شيء حلمت به يومًا غادرها مودِّعًا.

كل شيء في الحياة إذا بدأ انتصف، وإذا انتصف انتهى، حتى قصص العشاق!

***

انتهى

خاتمة الوهج

ويعود كلامنا في سلامنا يطوف على الصحبة حلواني عصفور محني يغني على الأفراح ومن تاني يرمي الغناوي تقاوي، بعيون صبية بهية عليها الكلمة والمعنى.

***

توسعت ابتسامتها تنصت لتغريد العصافير فوق الشجر، فردت يديها إلى الأعلى تحتضن المساحات الزراعية الممتدة أمامها، ونهر النيل مانح الحياة يجري بسلام يروي الأرض، ويقف الجبل الشامخ كوتد حامٍ يحفظ أسرار جدود الأجداد الأشداء، يحيط بها هالة من نور الشمس، تمنح دفئها للعاملين الساعين للعمار دون كلل أو توقف مهما تكالبت عليهم المصائب وحامت حولهم النزاعات السياسية، يوقنون أن كل ما هو آتٍ بيد رب العباد الذي تعهد بحماية مصر إلى يوم الدين.

لم تكن تتوقع أن عودتها إلى أرضها ستمنحها كل هذا الهدوء والسلام، صراعها للحرية وفك القيود نبع من كره السلبية بداخلها والاستسلام.

أخذت نفسًا طويلًا واستدارت تكمل طريقها إلى المنزل، لم تُخبر أهلها بقدومها قاصدة، ليس تمردًا وإنما إعلانًا مهذبًا أنها قادرة على حماية نفسها ولا تحتاج إلى تلك الحماية المفرطة.

لم تغفل بهية عن الابتسامات الفخورة والترحيب الحار من نساء ورجال بلدتها؛ مؤكد عرفوا بالاكتشاف الذي نُسب إلى اسم ابنة قريتهم.

دقت الباب وفُتِحَ بلهفة وكأن قلب الأم أدرك عودة الطير المسافر قبل رؤيته بالعين.

قالت أمها: «صغيرتي يا قلب أمك، افتقدتك يا نبض قلبي».

ضمتها بقوة وتبادلتا القبلات والدموع، حسنًا لم تتوقع لقاءً حارًّا من والدتها، بل وابلًا من الأسئلة والسِّباب!

تابعت: «فخورة بكِ يا حبيبتي، أحسنتِ، كنت أعرف دائمًا أن اسمك سيلمع يومًا بين النجوم».

شعت عيناها بسعادة أكثر، وسحقتها أمها على صدرها (آه لو تعلمين يا أمي كم افتقدتك، لقد مر أكثر من عام ونصف إذا حسبتُ اختفائي بزماننا هذا).

أبعدتها والدتها تتفحصها إنشًا إنشًا.

أحاطت وجهها بلهفة تقول: «وجهك شاحب وكأنكِ مومياء محنَّطة كالتي تبحثين عنها، لا يهم، لا يهم، ها قد عُدتِ وسأحشيك كالبطة حتى تستعيدي نضارتك».

امتقعت بالرعب من الوصف والوعد.

أكملت أمها بضيق ملوِّحة بيدها تسحبها بعفوية إلى الداخل: «كنت سأموت وأذهب إلى المؤتمر لأفخر بابنتي، لكن الظروف لم تسمح، رغم أني أجبرت كل المعارف والأهل والأحباب أن يشاهدوا التلفاز، حتى في مقاهي البلدة اجتمع الرجال ليشاهدوا ابنتهم التي كُتِبَ اسمها بالذهب».

ابتسمت بصمت وهمست داخلها بمداعبة: (بل بنور إيزيس).

كادت ألا تتعرف على والدتها حتى هبت بوجهها كالمدفع الرشاش: «ولكن هذا لا يمنع أنكِ خائبة الرجاء وستُعاقبين يا بهية، إن أُصبتِ بمس العظمة واعتقدتِ أنكِ قادرة على المُضي بهذا الطريق، امحيه من عقلك تمامًا، لقد عشتُ في رعب عليكِ ولم أكن أنام الليل بسببك».

ظلت صامتة مبتسمة في وجه والدتها بكل هدوء، ربما قبلًا لفكرت كم والدتها شريرة خانقة تُكبلها بالقيود، ولكن بعد رحلتها لم تعد تحلل الأمور بسلبية، بل بنظرة أوسع، قيود الأهل نابعة من الخوف على أولادهم، ليجنِّبوهم الطرق التي قد تضيِّعهم، لا يقصدون التحكم، بل التأكد من حسن اختياراتهم والاطمئنان عليهم، وعندما يلمسون قدرتهم على الاختيار الصحيح والتحليق وخطف ما يريدون من

الحياة نفسها سيدعمون قراراتهم ويتفاخرون بهم، تُدرك أن مخاوف والدتها نابعة من اختلاف الزمن وتوحُّشه في أحكامه، وبخاصة على النساء.

لن تُنكر إعجابها بمكانة المرأة وحريتها في عصر إيزيس وآسينيت، لكن عصرهما انتهى والآن تحكمنا القيود الاجتماعية والدينية التي يجب أن نحترمها، وبخاصة أنه لم يعد كل الرجال أوناس، بل هناك وحوش بأرواح نجسة تتربص بأي فتاة يلمسون بها ضعفًا، أو ليس لها عائلة شديدة تحميها وتسند ظهرها.

لقد توسعت نظرتها ومحت التشاؤم عنها واعية أن للبشر مشاعر ومخاوف يجب أن نتداركها ونحترمها.

قالت أمها: «لماذا أنتِ صامتة كالتمثال؟».

عقدت والدتها حاجبيها بريبة وتوقعت زعابيب التمرد، إلا أن بهية توسعت ابتسامتها أكثر واحتضنتها بحبور.

وقالت: «ارتاحي يا أمي؛ لن أقدِم على أي خطوة إلا برضاكِ عني».

تشككت: «هل أنتِ متأكدة؟ أعرف أن هذا حلمك منذ كنتِ فتاة بجدائل، ستتخلين عنه من أجلي بعد وصولك إليه؟!».

قبَّلت يد والدتها وقالت: «سنجد طريقة تُرضينا كلتينا يا غالية، لا تخافي، با-هية لن تخرج عن طوعك».

رفعت والدتها حاجبيها بارتياب وقالت: «با-هية؟!».

- لا تشغلي بالك. أين الوالد؟

وتبددت كل المشاعر الأمومية وحل مكانها التوحش التام، توحش أسد هائج يشحذ أسنانه لتمزيق عدو متربص يرغب في نهش أحد أشباله.

راقبت والدتها تعصر كفيها وكأنها تخنق عنق أحدهم وتقول: «لديه ضيف ثقيل هبط علينا كالقضاء المستعجل، أقسم أن أكون آخر قضائه».

- ومن المسكين الذي دعت عليه أمه ليستفز الوحش الكامن؟!

كما تنص العادات، غير مسموح لها بدخول المندرة ووالدها بصحبة ضيوفه، ورغم ذلك جرَّتها قدماها كالسحر إلى هناك عندما وجدت والدتها تحمل صينية الشاي وتدخل بنفسها محطِّمة القانون، وما إن دخلت واستدار الضيف ينظر إليها بتلك الطريقة المؤثِّرة في القلب لم تعرف بأي الأسباب يجب أن تُصدَم!

وجوده أمامها؟ أم جلوسه بكل أريحية وكأنه في منزل والده؟ يرتدي أحد جلابيب إخوتها البيتية، متربعًا فوق الطبلية يأكل ما لذ وطاب، رغمًا عنها فُتح فمها باستنكار وحنق.

ماذا عن دموعها التي ذرفتها من محطة الجيزة حتى سوهاج؟! وذلك الوداع الحار والبارد، ودرامية اللقاء عند وهج الشمس، وماذا عن القدر الذي وضع كلمته بفراقهما؟! وكيف ستنسى ذاك المشهد الدرامي البحت؟!

أخفض عينيه كرجل مهذب ثقيل وموزون وقال: «حمدًا لله على سلامتك يا أستاذة بهية».

همست داخلها بحنق: (أستاذة؟! كم أنت شهم تراعي الألقاب!).

رمت كل اللياقة جانبًا وقالت: «أي ريح محمَّلة بالأتربة ألقت بك عندنا؟».

شدَّد والدها بصرامة وهيبة رغم انخفاض نبرته: «بهية، الضيف في بيتك».

أجاب محب باستفزاز: «الرياح الشرقية، تعلمين عندما يعصف بها الجبل لا نأمن ما نوع الكائن الذي تبلينا به، أنصحك بإغلاق بابكِ جيدًا ولا تتركيه مواربًا حتى لا يتسلل إليك أحدهم خلسة».

ازداد امتقاع وجهها الشاحب أصلًا، كما تفضلت وأشارت والدتها التي أخذت تضع الهجوم والدفاع معًا واقفة أمامها بحماية، حين كان والدها السيد هشام هادئًا يُقلب عينيه بينهما وكأنه يقرأ بحكمته ما يخفى من السطور!

قالت أمها بنزق: «اسمع يا ولدي، نقدِّر أنك رئيسها ونثمِّن جهدك بمساعدتها، ولكن ما أتيت من أجله مرفوض، فابنتي لن تعود، بصراحة نحن تنفسنا الصعداء بانتهاء هذه المحنة وما صدقنا أن الدولة أفرجت عنها».

قال بهدوء وغض بصره عنهما: «تتحدثين يا أمي وكأنه سجن وليس واجبًا مشرِّفًا لها، مصر تنادي وواجب على كل أبنائها تلبية النداء».

تراجع بظهره قليلًا يكشف موقع بهية، وبغمزة لم يلاحظها غيرها ذكَّرها!

ردت والدتها بهجوم: «كلٌّ يلبي من موقعه المتاح، وبهية ستعود إلى طلابها تحفِّظهم تاريخهم وتصحِّح مفاهيمه وتنزع أفكار زرعها فيهم عديمو الانتماء، حتى يأذن الله بزواجها وتكمل رسالتها مع أبنائها».

ابتسم محب بتوسُّع بينما ارتعشت شفتاها وعنقها الطويل بالحرج والارتياع (يا إلهي! ها قد عادت إلى ربط حياتها ونجاحها برجل، وأمام البغيض الخبيث).

قال: «لديك الحق يا أمي، أنا أيضًا أرى أن مكان المرأة الطبيعي بيت زوجها، العمل الميداني، بل العمل ككل، ليس مناسبًا للمرأة، إنما رجُلها الذي يسعى ويتعب ويكد ثم يعود إليها ليجدها قد ذبحت له ذكر البط الذي تعبت في تزغيطه لتطعمه له كاملًا مهادنة». (لا تُلقِ بالًا لشيء يا محب، كُل أنت يا حبيبي)!

الآن فغرت فمها بذهول، وبخاصة مع ابتعاد والدتها ونسيان غضبها وتبدله إلى إعجاب وحب خالص لهذا المحب!

التفت محب من فوره إلى والدها وأبعد بقايا الرغيف الشمسي وتنحنح قائلًا بتهذيب: «عماه، لقد فهمتَ خطأً، فلم أستقل الطائرة من فوري قاصدًا استباق الأستاذة من أجل إقناعك بعودتها إلى العمل، بل الأمر

أناني بحت، أرغب في عودتها ولكن زوجة لي، ملكة متوجة في بيتي».

شهقت بصوت مسموع تستجلب كل ذرة أكسجين انقطعت عنها، وعلامات التفكير العميق تبدو على والدها الصامت.

أما والدتها فسألت بلهفة مريعة: «أتقول إنك لن تُشجعها على العمل في هذا المجال؟».

خط الخبث عينيه ولوَّن صوته بنبرة ستفهمها والدتها وقد عرف مفاتيح شخصيتها: «بالطبع لا، الحمد لله لديَّ ما أنفقه على زوجتي وأعيِّشها في رغد، ولن أحتاج إلى بضعة جنيهات تجلبها، مكان المرأة منزلها ورعاية زوجها وصغارها».

انكمشت أصابعها وطحنت أسنانها وصرخت بهوجاء: «أهذه مساندتك؟ هل أتيت لتقنعهم بقدراتي الفذة كما أشرتَ في السابق؟ أم لتتزوج؟».

تصنَّع الحيرة والتفكير العصي، ولوهلة تعشمت أن يتراجع عن موقفه ويؤازرها فعلًا.

إلا أنه نطق ببرود: «لأتزوجكِ طبعًا».

عقدت يديها فوق صدرها وقصفته: «وأنا لن أتزوجك وإن كنت آخر رجل في الدنيا».

رد ببرود وصلف: «للأسف ليس لرأيك هذه الأهمية، أليس كذلك يا أمي؟».

ردت أمها وعيناها تلمعان بإعجاب كألف شمس ساطعة: «نعم يا حبيبي، الرأي لوالدها وإخوتها، لذا اعتبرها غير موجودة».

قالت بهية: «حبيبي وغير موجودة؟ الاثنان؟!».

رفعت إصبعيها بذهول غير مصدِّقة ما يحدث.

غمز مرة أخرى وقال: «قَدِّري المبادرة، أنا أحاول تخليصك من عقدة أذنَي المقاطف إلى الأبد».

عاندت: «أفضِّل المقاطف على الزواج بك».

لم يهتم، استدار محب إلى والدها الذي زاده صمته وتأمله لهما ارتباكًا.

وقال له: «ما ردك يا عماه؟ هل أعتبر الصمت علامة الرضا؟».

أطرق والدها بعد أن أشار بكفه للمرأتين بالمغادرة ونفَّذتا دون تأخير، كان السيد هشام من الذكاء بأن يعرف أن هناك أكثر من إعجاب يدور بينهما، وأن دافع محب ليس كما أخبره، أنه وجدها فتاة مناسبة له ومن عائلة لها وزنها وذات أدب وحياء، أول ما شده أن بهية صعيدية مثله وستفهم عاداته وتقاليده، كما أنها باحثة وتعرف مصاعب عمله.

ما أتى بمحب العشق، وما يجعل ابنته في حالة دفاع تتلظى كقطة على صفيح ساخن أن قلبها نبض أخيرًا، هو رغم أفكاره القبلية ليس ضد الحب النقي الطاهر، ومن تأمل بسيط لردود فعل ابنته كما محب من الواضح أن الحدود لم تُكسر بينهما، ابنته تحافظ على اسمه وشرفه وتصون دينها ونفسها في غيابه كما وجوده.

استبدَّ القلق به وبدأ يغلي مكانه، أخرج من حقيبة ظهره ملفًا ضخمًا ووضعه أمام والدها.

وقال بهدوء قدر استطاعته: «حتى أسهِّل عليكم الطريق، هنا ستجد اسمي ولقب عائلتي حتى الجد المئة، وتدرُّجي الوظيفي، وشهادة بمؤهلاتي، وكشفًا براتبي وحسابي البنكي، لديَّ منزل بالجيزة ومنزل لعائلتي وأراضٍ زراعية في مدينة قنا و...».

قاطعة الأب مبتسمًا: «بهية الصبية الوحيدة على ثلاثة رجال، قرة عيني وزهرة منزلنا، يوم أن أقرر التخلي عنها لصالح رجل لن أبحث عن المال يا محب».

ارتبك أكثر رغم عقله اليقظ وقال: «ملتزم بديني وأتَّبعه في كل أمور حياتي يا حاج، لا أترك فرضًا يتراكم عليَّ، سأتقي الله فيها، بهية لن تكون زوجة وفقط، بل شريكتي، امرأة خُلقتْ من ضلعي».

قال هشام بهدوء: «الوعود تُنتهَك عند الشدائد، عندما تتدخل أنانية الإنسان ومصلحته، الأنانية نفسها التي أتت بك لتطالب بها».

سحب نفسًا طويلًا ثم هب من مكانه وجلس يقابله على إحدى الأرائك ويقول: «كنتُ مضربًا عن الزواج مثلها تمامًا، لن أخفيك سرًّا عن خوفي من دخول ساحة أصبحت معركة بدل أن تتحد روحان وتنصهر به عائلتان تعبتا واجتهدتا في تربية كل طرف من هذه المعادلة، تنتظر كل عائلة منهما بشوق إنشاء عائلة ثالثة يثمر فيها تعبها ويجعلون بقاء نسلهم واقعًا وناجحًا كنجاح العائلتين، أصبح الأمر الآن ساحة حرب ضارية يتصارع فيها الطرفان، يخططان لفوائد الطلاق قبل الزواج نفسه، ومن فيهما سيغتنم النصيب الأكبر».

سأل هشام بهدوء يسبر أغواره: «ما الذي غيَّر رأيك؟!».

تردد محب، كيف يخبر أباها صراحةً أنه يحبها؟ قدره المكتوب واختياره من بين كل نساء الكون.

أطرق قليلًا وأجاب: «قد تكون إجابتي سابقًا مُرضية، فهي فتاة على دين وخلق، عمرها مناسب لعمري، من عائلة ومتعلمة، ولكن أرى أن هذا غير كافٍ لي شخصيًّا».

بداخله علم السيد هشام أن محب المناسب لابنته، سيمنحها الرفيق والصاحب قبل الزوج، سيحميها ويدعم اختياراتها ويمنحها ما بحثتْ عنه طويلًا، وحرية اختيار الطريق، لكنه احتاج إلى إجابة صريحة مباشرة.

عبَّر عنها محب حين قال بصوتٍ أجش خشن مرتعش بالصدق والعشق: «دائمًا ما يجد الحب طريقة لنزع زعزعة النفس، أنا أحبها يا عمي، اختارها قلبي دون سواها».

***

بعد شهرين...

أب-ب-دجو-أبيدوس!

وقفت بهية يحيط بها إخوتها والفتيات من عائلتها وعائلة محب بعد أن عُقد قرانهما منذ أسبوع مضى، وها هي ذي ليلة زفافهما غير عادية بالمرة!

لقد أصر العريس أن يكون العرس في وضح النهار تحت وهج الشمس، وفي موقع «العرابة المدفونة»، بتصريح خاص كهدية من وزارة الآثار تكريمًا لهما بالطبع.

راقبت محب يرقص على صهوة جواده بالعصا، يعتمر عمة صعيدية ويرتدي جلبابًا وقفطانًا، وفرقة كاملة تعزف بالطبل والمزمار، وآخرون اصطفوا في خط مستقيم ضم أكثر من خمسين رجلًا من العائلتين فيما يُدعى سامر صعيدي، يلقون مواويل أبي زيد الهلالي بالتناوب لكل فرقة حتى يُعلن منتصر، مع اندماج العائلتين في تباهٍ بأصولهما دون عداء، بل حبًّا وترحيبًا.

عصف بها الخجل وقد تخلت أيضًا عن ثوب الزفاف واستبدلت به عباءة على الطراز الفرعوني، فستان أبيض طويل نُقشت صورة لإيزيس على صدره وعباءة فوقه ترفرف حولها، رُسمت زهرة اللوتس على أطرافها وسُجلت لوحة الملك مِينا موحِّد القطرين، أول ملك مصري وحَّد شمال مصر وجنوبها، وقد بدأ من محافظتها الحبيبة سوهاج.

والدتها تنوح جانبها كأي أم مصرية أصيلة تحافظ على التراث، بل زادت من النواح بتطرُّف حين تغنت بخفوت ببعض كلمات تفجُّع إيزيس: «يا ولاد محارب، حوحه، نصبولكم قارب، حوحه، والقارب طين، حوحه، ونينه تكاكي، وتقول يا وراكي، حوحه، يا وراك الشوك، حوحه».

ارتفع حاجباها بصدمة مع سماعها لكلمات والدتها وحاولت مهادنتها: «هذه ليلة زفافي التي تمنيتِها طويلًا يا أمي، وليس ليلة دفني».

تمخطت والدتها بطرف منديل أبيض ثم تمتمت بنزق: «فرحتي بخلاصي منكِ أمر وأخذ ذلك المستفز لك شيء آخر».

دبت كفًّا على كف واستغرقت في تعجبها قائلة: «أحيانًا أشعر أنكِ وجدتِني أمام باب المسجد».

نهنهت والداتها وزاد بكاؤها حدة: «سأفتقدك، لقد خطفكِ مني غراب البين بدري».

ارتفع حاجباها أكثر تقول: «بدري؟! وهذا منذ متى إن شاء الله؟ لقد أطلقتِ عليَّ لقب عانس منذ أن كنت في السادسة عشرة! على كل حال لا أقبل بحزنكِ، سأعود معكِ الآن».

فعل الذعر على وجه والدتها الأفاعيل حين صرخت: «تعودين إلى أين؟! ما صدقتُ وتخلصتُ منكِ، وكسرتُ مئة زير ومئتي قُلة فخارية وراءك».

– لا حول ولا قوة إلا بالله، هل أنتِ متأكدة أنكِ أمي ولستِ زوجة أبي؟

انضم والدها إلى موكب الزفاف وضم والدتها إلى صدره يهدئ لوعتها لفراق ابنتهما، سرعان ما اندست فيه وانمحى حزنها بابتسامة حب ورأفة واطمئنان ونسيت سجالهما من الأصل، كانت سعادة والدتها منذ خطبتها ولهفتها لمنحها كل شيء كاملًا دون نقصان بدافع الحب لا التقاليد جعلتها تفهم أن لهفة

أسرتها لزواجها لم يكن من أجل نظرة المجتمع (أن المرأة لا تكتمل قيمتها إلا بوجود الزوج الخارق الذي سينقذها من شبح العنوسة ويعزز قيمتها الاجتماعية)، بل والدتها رغبت كما أخبرتها حرفيًّا في أن تجد شريكًا يؤنس وحدة روحها، والسند الذي يؤازر انكسارها، تحصل على الحب القادر على محو أشد حالات ظلامها.

أحاط والدها وجنتها بحنان وعينين دامعتين وقال: «يعز عليَّ فراقك، رغم أن ما يسعدني أنكِ وجدتِ نصفك الآخر، رجل سيكون معكِ لا عليكِ يا قرة العين».

سقطت روحه بلوعة لإدراكه أن زهرة بيته نُزعت لتزيِّن بيت رجل آخر. فتح والدها عباءته ودخلت فيها ليضمها إليه بقوة.

تشبثت به ورددت: «ستظل يا أبي حبيبي الأول، بطلي، مالك نبض فؤادي، انتمائي إليك وروحي تبحث عنك، عيناي لا تريان سواك والبقية تأتي بعدك».

اقترب محب وقد أفسح له الجميع ليتسلم عروسه، ربت على يد والدها بلطف.

وبسعادة هتف مازحًا: «ها قد وصل البقية، هلَّا سلمتَني زوجتي يا عمي؟».

ضحك من أحاطوا بهم، ولم يغفل عن النظرات المهدِّدة من إخوتها وقد تبرع أحدهم ومرر إصبعه على نحره بإشارة ذبح إن فكر يومًا في إغضابها.

يا رب السماوات، وكأنه سيتجرأ!

بعيدًا عن رجال عائلتها الحماة بزيادة عن الحد، فبهية وحدها لديها لسان كافٍ ليتقي شرها، وألا يفكر مجرد تفكير في توريط نفسه معها، لقد زهد النساء وتاب، بل كره الصنف كله إلاها.

سلَّمها والدها له وضمَّها بين طرفَي عباءته معلنًا أنها أصبحت زوجته وفي حمايته منذ اللحظة.

***

ليلًا...

وقفت بهية تستند بيديها إلى سور الشرفة المطلة على النيل شاردة تمامًا، سبحان من خلق هذا الجمال والوجه الملكي، ساحرة.

تنحنح معلنًا عن وجوده: «هل ستظلين عندكِ طويلًا؟ للتذكير فقط، إنها ليلتنا».

مطت شفتيها بامتعاض وقالت: «ليلة بانت من أولها! عرسٌ في المقابر».

فك عِمته ببطء موضحًا: «حاولتُ أن أبهرك وأمنحك شيئًا يعبِّر عن كينونتنا معًا لتتذكريها عمرك كله».

– ثق بي، سيتذكره الجميع ويتحاكون عن المجذوب الذي أقام عرسه في المقابر.

رفع يديه بلا مبالاة وقال: «رأيت انبهارك بزفاف آسينيت ورغبت في أن أمنحك شيئًا مماثلًا وفي حضرة الملوك».

عقدت يديها فوق صدرها وأجابته ببرود: «زفاف آسينيت كان في معبد الحب وحضره ملوك أحياء».

نفخ بإحباط وتمتم: «ومن أين سأحضِر ملوكًا أحياء؟».

- منكَ لله، لقد تندر عليَّ بنات أعمامي وحتى أخواتك يا عريس الغبرة.

غبرة؟ ومن أولها! لا فائدة، ها هو ذا النكد يلوح ومن أول ساعة.

دمدم بسخط مصحِّحًا: «مدينة الملوك ألف فتاة تتمناها».

ردت بسماجة: «سمِّها ما شئت يا باحث الآثار التي لحست عقلك، ولكنها تبقى مقبرة، واسمها العرابة المدفونة، مدفونة كمن فيها».

هز رأسه بتعب، هل سيلومه أحد إن خنقها الآن؟!

زفر مطولًا، وكرر بكل وداعة وسلام نفسي خالعًا جلبابه: «أنتِ مؤكد ذنب ارتكبته وأرسلك الله ليخلِّصه ويعاقبني لأصعد إلى الأعلى خفيفًا، اللهم لا اعتراض على قدرك».

- موضوع صعودك لسنا متأكدين منه، ونعم أنا كذلك، اعترض إن استطعت.

تبدد حنقه وحل التلاعب والعبث، فاقترب فجأة وشدها إليه وأغلق باب الشرفة هاتفًا بشقاوة: «قدري الحلو، وهل أجرؤ؟ أنا ما صدقت أن أُغلق علينا باب».

قاومت ودفعته بقوة تكاد تشبه الرجال مناقِضة لصوتها المرتعب.

وأمرته: «ابتعد، ماذا تظن أنك فاعل؟ لن أسمح لك».

لكنه لم يبتعد وسيطر عليها بأنفاس لاهثة وهدر: «لقد سمحتِ وسمح أبوكِ والثيران إخوتك، فات أوان الحماقة والسماجة يا با-هية».

حذَّرته بتوحُّش: «أقسم بالله سأقتلك يا محب».

انفجر صوت محب بالضحك وابتعد، ليس لشيء إلا ليتأمل لون الخجل العاصف الذي زيَّن وجهها، وفور إطلاق سراحها طارت إلى آخر الغرفة تحدق إليه بارتياب، وكأنه ذئب بشري سيسلبها أعز ما تملك.

رفع يديه يهادنها: «حسنًا، لم أتوقع تسليمًا سريعًا، بل جهزتُ نفسي لأخذ كل الوقت حتى تعتاديني».

ما بالها وكأنها مراهقة حمقاء صُدمت لأول مرة بما يحدث في الزواج؟!

حاولت السيطرة على نفسها وراقبته بحذر يقترب وأخرج شيئًا من ملابسه وناولها بهدوء.

وقال: «هذا العِقد إرث، رغبت والدتي في تسليمه لكِ كما هو متوارَث في عائلتي، لكني طلبت أن أسلِّمه بنفسي».

لقد أحبت بهية والدته وشقيقتيه الطبيبتين المتزوجتين وشقيقه الصيدلي، استقبلوها بالمحبة والرضا، كما شعرت بانتمائها إليهم، ومحب يُعد الأكبر، و...

قطعت تفكيرها وصعقها الإدراك، فقفزت لتجذب القلادة برعونة تقول: «هذه ليست... مستحيل! مستحيل! مؤكد صنعت مثلها».

أخذ نفسًا طويلًا ثم أطلقه ضاحكًا وتهدج صوته: «بلى، هي نفسها يا بهية، لقد فحصتها بنفسي كما عرضتُها سرًّا على أحد المختصين، وأكد أن عمرها يتعدى آلاف السنين».

لم تستوعب، وكيف ستفعل؟

– مستحيل!

– كم كنت أرعن! التاريخ تحت يدي ولم أحاول يومًا البحث، بل لهثتُ وراء إثبات كذب الزيف وكانت الحقيقة أمامي.

ابتسم متفهمًا تعجبها ثم استدار ليخلع القفطان الأبيض يمنحها ظهره، فاعترضت وحشرت أنفاسها بارتياع الخجل، ولكن العلامة الكبيرة على ظهره وكأنها وشم ضيَّع المتبقي من تماسكها.

فأكد: «هذا دليل آخر، وُلدتُ به ككل كبير في عائلتي، وكأنها تعويذة تخص نسلنا فقط».

اقتربت دون عقل تمرر إصبعًا مترددة وكأنها ترغب في التأكد.

قالت: «هذا يعني أنك...».

التف فجأة وقبض على أصابعها بغلظة رغم نبرة الغزل.

قال: «يعني أنكِ من دمائي بطريقةٍ ما، خُلقتِ من ضلعي واقعًا».

سيطرت على ارتجافها من لمستها لجلده العاري وشمخت بأنفها.

وقالت: «من فضلك ابتعد، أنا لا أتأثر بالكلام الماسخ».

سماجتها تُمتِّعه، ضمها أكثر ونزع حجابها بتأنٍّ.

تنهد بوَلَهٍ وهمس متغزلًا بقصيدة: «أعيديني لأرضي كي أستريح فإني أحبك حتى التعب».

امتعضت قاصفة: «على عيني والله، ولكني متعَبة وأرغب في النوم».

لم يضحك، بل أخذها ببطء وجذبها إلى عالمه بتروٍّ، وعندما تجرأت على النظر إليه كان يلتهمها بنظرة حارقة.

تهربت بالعتاب: «لم أملك الفرصة لسؤالك، لماذا ابتعدت عني بعد عودتنا؟ ودَّعتني عند القطار وكأن الحكاية انتهت!».

انخفض وجهه مقتربًا من وجهها بمعدل خطِر، كما تسللت يده إلى الخصر المستور فألهب حواسه بنكهة لاذعة شهية، نكهة بنات النيل والأرض الطيبة.

رد: «المرأة تزهد الرجل السهل، وتعشق المقتحِم لأسوارها غازيًا ظافرًا منتصرًا».

ضحكت تسبل أهدابها.

اقترب أكثر ومس وجنتها برقة وقال: «انتصرتُ وظفرتُ بكِ يا أعظم انتصاراتي وأغلى غنائمي».

ضحكت أكثر تحاول أن تبتعد عنه بلا أمل تتعجب: «هذا الجانب غريب، لم أعتده منك!».

قال بهدوء: «لم تكوني زوجتي لأظهره لكِ».

قرَّبها أكثر رافضًا بُعدها للحظة أخرى.

وصرَّح: «أحبك، أحبِّيني، دعيني أحقق فيك الخيال واليقين، اتركينا نلغي المسافات بين الأحلام والواقع».

لعقت شفتيها بتردد تنجر إليه بحياء فطري، عيناها معلَّقتان بعينيه.

همس ببيت شعر تحفظه وتمنت يومًا سماعه من عاشقها: «دعيني أؤسس دولة عشق تكونين أنتِ المليكة فيها وأصبح أنا أعظم العاشقين، وإني أحبك».

- وأنا أحبك يا محب.

وآخر ما أدركته شهقة ارتياح، هل خرج منها الاعتراف فعلًا؟

يا إلهي!

الحب لا يصنع المعجزات، بل التهديد بفقدانه يصنع منا أشخاصًا آخرين.

***

بعد ثلاثة أعوام...

صغيرة بشعر أسود غجري مجنون يلف جسدها المكتنز، ووجه خمري رائق تتوسطه عينان كحيلتان ومتطرفتان بالجنون، تعبث بأدوات حفرية تحت تمثال لم يُزَح تراب الجهل عنه بعد، بينما فرقة كاملة تطاردها وتبحث عنها وقد اختفت كالعادة في أماكن يجهلونها.

- إيزيس، ها أنتِ ذي، منه لله والدك، لقد أذهبتِ المتبقي من عقلي مثله.

شعرت بعنفوان يمرق كالسهم بجانبها، فتوقفت تغلق جفنيها مستغفِرة، وعيناها يتراقص فيهما جنون ساحرة شمطاء، وهي تراقب انحناء محب ليضم ابنتهما إلى صدره بحماية شديدة.

وردد بحذر خائف: «أعوذ بالله منكِ، ابتعدي عن الفتاة بخيرك وشرك».

زمجرت كالنمرة: «أنت السبب، أفسدت الفتاة، وأصبحت خارجة عن السيطرة، وجودها هنا غير طبيعي بالمرة، وما زلت تُصر رغم تطرفها على جلبها لتعبث بلعنة القدماء».

ضُرتها! لقد أنجبت ضرة لها واستسلمت للأمر الواقع.

توسعت ابتسامته الفخورة ينظر إلى وجه ابنته بولَه عاشق لا أب.

وهادنها بفخر: «إيزيس تعرف كيف تهادن أجدادها، لعنتهم لن تطالها، بل ستحميها كأمها يا ساحرة العُقاب».

لم يكُف قط عن مناداتها بهذا اللقب، لم ينسيا! وكيف ينسيان ما قلَب حياتهما وأرسى مركب رحلتهما بشاطئ الأمان؟!

استسلمت واقتربت منهما تبعد فرشاة صغيرة ومكسِّر الصخور، ما كانت تعبث بهما ابنتها، واستقام محب وسحبها معه ليضمها بذراعه الأخرى بقوة.

قال: «حان وقت راحتك، سيهتم الفريق بالتنظيف خلفها كالعادة».

ابتسمت بتعب مستسلمة له شاكرة بعينيها أحد الشباب الذين هموا بالفعل بالترتيب خلف ابنتها.

منذ عملهما في الموقع الجديد الذي اكتُشف خلف مقبرة أبيدوس أوضح جميع المشاركين هوسًا مُرحِّبًا بصغيرتها، يستبشرون بوجودها ويحزنون في اليوم الذي ترفض قدومها وتبقيها مع والدتها، منحها محب الاختيار أن تكمل طريقها بجانبه وتحت رعايته، أو تبقى بالمنزل، أو ربما تعود إلى التدريس، ولأول مرة شعرت بحقها في تقرير مصيرها، وها هي ذي اختارت جانبه، الأمر ليس سهلًا وبخاصة عندما ظهر بطنها بحملها الأول، الخجل عصف بها، بل ورغبت في الانسحاب، وكل زملائها ينظرون بتشجيع إلى رئيسهم الهمام المستفز والمتسبب المباشر في وضعها.

ركنوا في مكان استراحتهم وضمها إلى صدره وعلى يده الأخرى ابنتهما المشاغبة ووقفوا ينظرون إلى أبواب أبيدوس العريقة.

سألها: «أين ذهبتِ؟».

ابتسم قلبها قبل شفتيها وأجابته: «أتذكر ما كان، أنت أجمل نصيب كُتب لي يا محب، معك تبددت مخاوفي من القادم».

ضمها إليه أكثر، حبها يتوغل في قلبه يومًا بعد يوم، ينتشر في كل خلية فيه.

قال: «حيث يوجد الحب، لا ألم ولا خوف».

صفعته يد ابنته المدببة بعبوس وأمرته بتسلط رهيب: «أنا، أنا، هي لا».

غرق في الضحك وقال: «الغطرسة تجري في دمائها، أليس كذلك يا با-هية؟».

عندما التفت إلى زوجته المتجمدة، وجد عينيها شاخصتين بعاطفة وليس صدمة كما يُفترض، بحثت عيناه عن السبب فتسمر هو الآخر وتلقائيًّا ضغط على كتف زوجته متراجعًا إلى الوراء بقلق.

قبل ذلك كان مجازفًا لا يُلقي بالًا بالقادم ولا يهاب المخاطر، ولكن بعد أسرته الصغيرة تغير كل شيء وأصبح حريصًا، يفكر ألف مرة قبل أن يضع قدمه حرصًا عليهما وليس على حياته.

أنفاس بهية هوجاء وهي تراقب تجلي الهيئة المهيبة بجناحيها الرائعين وتاجها مذهل الصنع ووجهها الخمري الفاتن.

قالت: «هي، إنها هي!».

أمرها بهدوء وعيناه تمشطان المكان: «اهدئي».

ومن انشغال العمال والباحثين وعامة الناس الموجودين أدرك محب أنها لم تظهر لسواهما.

ابتسمت إيزيس من موقعها تتأملهما بشوق أمٍّ افتقدت ولدًا أحبها.

همس غير متأكد من سماعها: «ظننتُ أن تعاويذك لا تنكسر وأن السحر انتهى».

غمزت من موقعها تقلده وتقول: «حنين الأم يكسر كل القوانين ويخترق الحواجز».

هتفت بهية بشوق: «اشتقت إليك وإلى آسينيت».

قالت: «كنا بخير تمامًا، وخيرنا انتهى وحان وقتكم».

– أتيتِ في مهمة؟

حركت رأسها بالنفي وكسا ملامحها مداعبة معبد الحبيب الذي بُني في فترة لاحقة لتخليد ذكراه، لم تُشفَ جروحها ولم يكُفَّ نواحها، ربما لم تحصل على نهايتها السعيدة، ولكن أبناءها فعلوا، وهذا كافٍ لتضميد الجراح.

قالت: «أتيت لأتأكد بعيني أنك لم تترك قلب ابنة إيزيس».

ضحك ملء شدقيه هاتفًا غير مبالٍ بأحد: «أسميتُها إيزيس تيمنًا بكِ، وها أنا ذا أنتظر رحلة أخرى تمنِّين علينا بها لنحصل على ابنة أخرى كما حلمت، حور-محب».

أومأت برأسها بالابتسامة الهادئة الوقورة نفسها، ورفرفت تهبط حتى وصلت إليهم، مسحت على وجه الطفلة التي هللت بصخب، بل حاولت القفز بين ذراعيها وكأنها تعرفها من قبل!

همست إيزيس بنبرة محبة مهيبة: «كوني أنتِ كما أنتِ، لا تتصنَّعي، لا تتجمَّلي، ولا تختبئي وراء الأفكار المدنسة، قوتك وسحرك دائمًا في داخلك، وعليكِ فقط إيجادها بطريقتك كما فعلت با-هية».

التفتت نحو بهية الدامعة تُبادلها نظرة وداع وقالت: «أنا فخورة بكِ وبنساء هذا الزمان، أنتن لم تستسلمن رغم الصعاب، ما زلتن تحاربن بقضاياكن، بطلات إيزيس الباسلات».

ليت السعادة كانت أطول عمرًا!

عندما ابتعدت سأل محب بصوت أجش: «هل سنراكِ من جديد؟».

– ابحث عني مع كل إشراقة لوهج الشمس بعد أن تنزع شوك الزيف.

***

تمت بحمد الله